مختارات إسلامية

المجلد الأول

ار الفكر اللبناني - بيروت



سلسلة مختارات إسلاميّة

رمضانيّات

(١)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
اسلامية



دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهْرِالحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمسْجِدِ الحَرَامِ واخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالفِتْنَةُ اكَبَرُ مِنَ القَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهِ فَيَمُتْ وهُوَ كافرٌ فأولئِكَحَبَطتْ أَعْمَالُهُم فِي الدُّنْيا والآخِرَة ، وأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون * إن الذِينَ آمَنُوا وَالّذين هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سبيل اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُون رَحْمَةَ اللهِ ، والله غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

صدق الله العظيم

وانتصر الحق

كلما أقبل علينا شهر رمضان المبارك أقبلت معه ايـاته وذكرياته . وهي الايات الخالدة التي يقرأها الناس في كل عام فتزداد على التكرار حلاوة وطلاوة ، والذكريات العزيزة التي تتجدد معها العبرة والموعظة الحسنة فتجدد مارث من العقدة ، وتقوى ما ضعف من اليقين ، وتزيد المؤمنين ايمانا فاذا هم يستبشرون .

ففي شهر رمضان من العام الثاني الهجري كانت اول معركة كبرى في تاريخ الاسلام-وهي غزوة بدر حيث وقف الحق امام الباطل وجها لوجه ، والتقى الجمعان فئة تقاتل في سبيل الله واخرى كافرة . فانتصر الحق بفضل الله وعلا لواؤه . وخذل الباطل وذوى ثم هوى . . . ، « ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» .

ولقد كان يوم بدر يوم القصاص تجلى فيه عدل الله مع الظالمين

حيث اخرج الله الظلم من مكمنه ، واقتنصه في مامنه ، ورأى الظالمون باعينهم نكال امرهم ولمسوا عاقبة بغيهم وغدرهم . . « وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد » . . . فأمية بن خلف رأس الكفر والضلال ، يقف في يوم بدر ذليلا خاضعا امام صيحة الحق التي يرتفع بها صوت [عبده القديم] بلال ، وبلال بن رباح ـ وقد تخلص من ذل العبودية لامية ـ يمسك بسيف الحق والايمان ، ويتذكر ما قام به امية نحوه من عسف وطغيان . فتثور نفسه ويصرخ باعلى صوته . . . « أمية بن خلف رأس الكفر والضلال . . . ، لا نجوت ان نجا » .

ويحاول امية بن خلف ان يتوارى عن الانظار يلوذ بالفرار ، ولكن هيهات هيهات . فقد نفذ القضاء وحكم الله بأمره فكان القصاص العادل في الدنيا قبل الاخرة ، وذهب امية بن خلف صريع بغية وعدوانه على يدي بلال . ورأى بلال في امية ما اطفأ ألمه القديم . وكان خير عوض عن حقه المهضوم . . وإن في ذلك لعبرة . . ، وعقبة بن أبي معيط عدو الله ورسوله ، والنضر بن الحارث عدو الله ورسوله ، وابو جهل عدو الله ورسوله . هؤلاء وغيرهم من أئمة الكفر الذين لا ايمان لهم وقفوا في يوم بدر للقصاص . ورأوا باعينهم عاقبة بغيهم وظلمهم . وكانت نهايتهم الاليمة عبرة وعظة سجل التاريخ فيها أن الظلم لا يدوم . وان مرتع البغى وخيم ، وأن المكر السيء لا يحيق الا بأهله . .

وفي شهر رمضان من العام الثامن الهجري اقبل الحق نسعى الى البلد الامين بعد ان اخرجه منها عنت الكفر وطغيان الهوى واستبداد الفسادأجل . اقبل الحق الحق يسعى الى البلد الامين كما يقبل الصيب الهتون فكان الفتح الاعظم الذي اهتزت له بطحاء مكة وربت . واخضر به الوادي الجديب . وتفتحت لاستقباله القلوب ، وبدأت مكة عهدا جديدا توارى فيه شبح الوثنية البغيض إلى غير مآب ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، «وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد». وبعد ان تم فتح مكة ، واجتمع الناس حول رسول الله ﷺ ـ وكان منهم من ائتمروا به ليقتلوه ، ومن قاتلوه في بدر وفي احد وحصروه في غزوة الخندق وعذبوه واصحابه ـ نظر الرسول اليهم حينئذ وهم جميعا في قبضة يديه ، وحياتهم رهن كلمة ينطق بها . فلم يأخذه العجب والغرور بما وصل اليه من مجد وسلطان ولم يطف بنفسه ما يتملك نفوس الناس ساعة النصر والظفر من ظلم وطغيان .

بل وحتى لم يفكر في الانتقام لنفسه وللمسلمين عما اصابهم على أيدي قريش من الاذى والعدوان . ولكنه نظر اليهم نظرة كلها عفو ورحمة وقال لهم ! « اذهبوا فانتم الطلقاء » وهكذا يكون الخلق الكريم الذي يسمو على السمو نفسه وصدق الله العظيم حينما يقول عن رسوله « وانك لعلى خلق عظيم ».

وفي شهر رمضان وفي يوم الفتح الاعظم دالت دولة الاوثان وحطم الرسول الاصنام فكبت على وجوهها واصبحت حطاما وركاما واعلن رسول الله ﷺ كلمة الحق وقال : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »، « جاء الحق وما يبدىء يبدىء الباطل وما يعيد » . . وبعد توالي القرون وتتابع العصور بما تحمله من قوة وضعف ومن نعمى وبؤس ومن رخاء وشدة ومن اقبال وادبار اقبل علينا اليوم العاشر من رمضان في العام الماضي حيث كان الابطال الصناديد . وابناء مصر الاوفياء لدينهم ووطنهم مع ابناء العروبة والاسلام يقفون على الضفة الغربية للقتال كما يقف الليث المصور اصابة ذئب لئيم في غفلة طارئة . . ويستعدون للوثبة الكبرى لتحطيم الظلم وازهاق الباطل ، يحملون في ايديهم العدة القوية . . ويشرق في قلوبهم الايمان ، وتمتلىء نفوسهم بالذكريات الرائعة لانتصار الحق في شهر رمضان فيتمثلون امامهم رسول الله ﷺ مع اصحابه المخلصين يدكون صروح الظلم والضلال . ويرفعون راية العدل ويعلنون كلمة التوحيد . . يتمثلون ذلك كله امامهم فيعيدون سيرة الرسول واصحابه من جديد . ويرفعون اصواتهم بكلمة التوحيد . . فكان الله معهم بقوته وتأييده ونصره . ومن الهزيمة المخزية الى النصر المؤزر المبين ، وكان الخزى والنكال لليهود ومن عاونهم من اعداء الحق وانصار الباطل واعادها ابطال العرب والمسلمن كما كانت على عهد الرسول صلى ﷺ بدرية

عربية اسلامية لا شرقية ولا غربية .

. . . وقد طالعنا اليوم العاشر من رمضان وقد تجمعت الصفوف وتوحدت القلوب وذاق المسلمون والعرب حلاوة النصر وعرفوا اسبابه فتشرق نفوسنا بالامال الكبار ونتطلع الى الغد القريب الذي تعلو فيه راية العروبة والاسلام على كل راية . .

. . . فياباغي الشر اقصر فعلى الباغي تدور الدوائر . .

ويا ساعيا الى الظلم حسبك فان الظلم لا يدوم .

ويا أيها المكروب الذي اظلمت امامه السبل واحاطت به الحيرة ان الصبر والايمان والثقة بالله . . . تلك هي المنارة الهادية التي يسير الناس في ضوئها الى الخير والسعادة والسلام .

« والعصر ان الانسان لفى خسر ، الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ».

علام . . الهم ؟

كان القطب الصوفي ابراهيم ابن ادهم في الطريق عندما التقى به رجل يبين في وجهه الحزن وتنطق كل ملامحه بالهموم . فقال له ابراهيم : انني سائلك عن ثلاث فاجبني : هل يجري في هذا الكون شيء لا يريده الله ؟

قال الرجل : كلا !

قال ابراهيم : اينقص من اجلك لحظة كتبها الله لك في الحياة . .
قال الرجل : كلا !
فقال ابراهيم : فعلام الهم اذن . .

مجلس الأمن الاسلامي

من عبقرية الاسلام انه عقيدة وعبادة وعمل ، وانه شريعة ونظام سياسي واجتماعي يكفل للبشر الخير والعدل والسعادة افرادا وجماعات .

لهذا لم يتغافل عن الغرائز البشرية ، ولم يتغاض عن اثارها او يفترض محوها ، بل عرفهاوعرف آثارها ، فشرع لها من الوسائل ما يكفل تهذيبها والتسامي بها والخلاص من اضرارها ، ومن هذه الغرائز غريزة المقاتلة .

واذا كان من المحتوم ان يعيش الناس جماعات ، فانه من المتوقع ان ينشب بينهم الخلاف والتنازع على المصالح ، وكثيرا ما تعجز الوسائل السليمة عن حسم هذا التنازع ، فتنشب الحرب .

وليس من شك في ان الاسلام يحرص على السلام ، ويحض على صيانته بالقوة ان لم تستطع صيانته الا القوة . .

فما حكم الاسلام حينما يتحارب شعبان او طائفتان من المسلمين ؟ اتقف الشعوب الاسلامية الاخرى موقف المتفرج اللاهي ؟ ام تتشفى بالارواح المزهقة ، والدماء المراقة ، والأشلاء الممزقة ، والعمران المقوض ، والأموال المبعثرة في طاعة الشيطان ؟ أم ينحاز بعض المسلمين إلى فريق ، وينضم اخرون الى فريق ؟ لا ، ان في موقف المسلمين موقف المتفرج او موقف الشامت المتشفى منافاة للاخوة الاسلامية ، ومجافاة للصلة الانسانية ، وتمكينا للمتحارين من ان يتفانوا ، او يقضي قويهم على ضعيفهم .

ومن ذا الذي يرى أخويه يقتتلان فيتركهما ويخلى بينهما ، ويرضى بأن يصبر حتى يرى عاقبة ما بينهما من صراع ؟

ثم ان في تحيز فريق من المسلمين ، الى طائفة ، وتحيز فريق آخر الى طائفة توسيعا لميدان الحرب ، واطالة في اجلها ، وافسادا للعلاقات التي تربط المسلمين ، وتخريبا في الارض ، وتدميرا للحضارة ، وتعويقا للرقي ، وفيه اضعاف للمسلمين جميعا . لهذا رسم القرآن الكريم الخطة المثلى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما . فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى امر الله . فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا . ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم . واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فاذا تحاربت طائفتان من المسلمين كان على الامة الاسلامية ان تسعى جهدها للصلح بينهما ، بان تعرف اسباب النزاع ، وتقضي بينهما بالعدل ، فان رضي المتحاربان بهذا الحكم فقد عاد السلام ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وان رضيت طائفة ورفضت الاخرى واصرت على الاستمرار في عدوانها مغترة بقوتها كان على المسلمين جميعاً أن يحاربوهـا منضمين إلى الطائفة المعتدى عليها ، ليكونوا جميعا قوة عظيمة تستطيع ان تحطم الغرور الباغي ، حتى يخضع المعتدي لحكم الله ، وهنا تتجلى سماحة الاسلام وسموه وحكمته .

وذلك انه دعا الى انصاف المظلوم واقرار السلام .

ثم انه قيد المنتصرين تقييدا يمنعهم من الانتقام لان المتوقع ان تتشفى الطوائف الغالبة من الطائفة الباغية ، مجازاة لها على تمردها وغرورها ، لكن الاسلام قضى يغير ذلك ، قضى بأن يستانف المنتصرون ـ وهم الذين رفضت وساطتهم في الصلح ورفض حكمهم العادل فاضطروا الى محاربة الباغي ـ الصلح بين الطائفتين المتنازعتين صلحا قائما على العدالة لا على التحيز والمحاباة والانتقام وجب إلى الميلمين العدل في حكمهما بأن الله تعالى يحب العادلين .

ولقد بنى الاسلام الدعوة الى الاصلاح بين المتحاربين على انهم اخوة للمسلمين الاخرين ، اخوة في الدين ، والدين رباط

وثيق لا يقل عن رباط النسب والدم واخوة في الانسانية لانهم جميعا من أب واحد وام واحدة . ولا شك أن هذا اعظم نظام لصون السلام ، وحفظ الامن ، والفصل العادل بين الشعوب المتنازعة .

هذا هو مجلس الامن الحقيقي الفعال الذي يستمد قوته من حب الحق ، ونصرة العدل ، ولا يرعى شيئا غير الحق انه مجلس الامن الذي شكله الخالق سبحانه وتعالى فهو اذن مجلس يسعى الى الخير ، ويقر السلام على الارض ، ويعتز برهبته الدينية الروحية . وهيهات ان تبلغ مبلغه هيئة اخرى ، لان الجماعات التي عرفناها لم تستطع ان تصون السلام ، ولم تستطع ان تردع المعتدي وطالما حرصت الدول القوية فيها على رعاية صوالحها ، والاحتفاظ بنفوذها ، ومحاباة من يستظلون بظلها ، وهذا هو السبب في ان الحرب لا تنقطع ملتهبة وباردة ، وفي ان العالم يتحزب كتلا وشيعا ، يطغى القوي على الضعيف ، ويطمع المسلح في الاعزل ، فلا تكاد حرب تنتهي حتى تبدأ في اعقابها حرب اخرى اشد طحنا ، واهول فتكا فمتى تثوب البشرية الى الى رشدها ؟

ومتى ينعم العالم بسلام دائم يحميه مجلس الامن الذي شرعه القرآن الكريم ■

النصر . . جزاء صدق النية

ان المفاضلة بين المقاتلين على قدر صدق عقيدتهم ، وقوة عزيمتهم ، وثقتهم في المولى ـ جل وعلا ـ والملائكة من نور ، وحين يشرقون في مكان تحل به البركة والامن ، والسلامة . وهم يصاحبون من صفت نفوسهم فبعدوا عن وساوس الشيطان ـ وفي الصفاء النفسي يكون « الالهام » بالتوفيق في القتال .

وفي الآية الكريمة دلالة على ان جند الله من السماء تنزل بالمعونة لتحقيق نصر جنوده في الارض ، ليكون الثبات عند اشتداد الامر ، ويطلب القدير ذكر ما كان يوم « بدر » حين اعلم العليم الخبير ملائكته تأييد المؤمنين وهم معهم بالنصر جزاء صدق نيتهم .

وقد روى ان الملك كان يمشي بين الصفوف يبشر بالظفر ، فيقوى الروح المعنوي حتى ان المؤمن كان يشير بالسيف الى عنق المشرك فيهوى تحت موطىء قدمه شاعرا بان هناك قوة اخرى تعين على القتال .

والتأمل في الآية الكريمة يبين ان الثبات يتبعه رعب في قلوب الاعداء واقتدار من المؤمنين يمكنهم من الضرب في كل مكان من دون زعزعة أو زحزحة وما فوق الاعناق فيه البصر والعقل ، فالاطاحة بهما مذهبة القوة . اما البنان فتعطيلها يمنع مسك السلاح ، فلا يقدر العدو على الوقوف موقف الدفاع .

ويقول ابن العباس ـ رضي الله عنهما ـ: ان البنان تساعد على (بيان) ما يقوم به المحارب المعتدي ، فالقضاء عليها يعجزه . .

على أن الواجب يتطلب الحرص بعامة حتى يؤ تى العدو في كل مكان والجندي الصادق المواجهة هو الذي تملكه اليقظة ، فقد يتماوت العدو الماكر الغادر او يخادع ، ويحاول التغرير ، ولقد جمع العلى العظيم الامر بين اذهاب ما هو ظاهر فوق الاعناق ، وما هو بعيد المنال كالبنان .

ان اليقظة الحربية لا تتحقق الا بالصبر . وان الله مع الصابرين .

النصر . . في غزوة بدر

كانت غزوة بدر ـ اول معركة خاضها المسلمون مع الكفار ـ في هذا الشهر لقد انتهت بقتل سبعين واسر سبعين من ائمة الكفر ،

وبدأت المعركة بالمبارزة بين ثلاثة من المسلمين وثلاثة من الكفار ولكن هذه المبارزة لم تطل الا ريثما وقعت سيوف المسلمين على رقاب اعدائهم ، ثم التحم الجيشان في عاصفة قاصفة ، فامد الله المؤمنين بعونه وكان ما يذكره القرآن حيث يقول الله فيه :

« اذ يوحى ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ».

كان هذا النصر في السابع عشر من هذا الشهر ، وكان سببه قوة الايمان ، وثبات اليقين ، والحرص على شرف الاستشهاد ، او شرف النصر . .

ويظهر ذلك فيما قاله سعد بن معاذ حين رأى النبي أن يستشير الانصار قبل الالتحام مع الكفار ، فقد نهض يرد عليه بهذا الكلام الذي يفيض حماسة وحيوية وايمانا : لقد آمنا بك ، وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق واعطيناك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما اردت ، فو الله الذي لا اله غيره لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره ان تلقى بنا العدو غدا ، انا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء . ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك . .

ولم يكد ينتهي من هذا الكلام حتى تالق وجه النبي بالبشر وبشر اصحابه بما ينتظرهم من خير ونصر .

وكان الله معه ومع الفئة القليلة المؤمنة ، وكان النصر في هذه المعركة بداية الانتصارات الكثيرة الرائعة التي اعلت راية الاسلام ، ومكنت لنوره ان يزحف في كل اتجاه .

دور الملائكة في يوم بدر

كان يوم بدر يوم السماء نزلت فيه الملائكة الى الارض لتثبيت الذين آمنوا وتلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، وفي ذلك يقول الله عز وجل « اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم » ويقول « اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ».

وقصة امداد الله للمسلمين بالملائكة قصة عجيبة قوامها قدرة الله الذي « الارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه » وقد اختلف العلماء في الغرض الذي من اجله امد الله المسلمين بالملائكة فذهب بعضهم الى ان الملائكة انما نزلت للقتال . فهي جيش من السماء انزله الله لاضعاف شوكة الشرك والطغيان في الارض ويستدلون على ذلك بما يروى من ان رجلا من المسلمين كان يطارد رجلا من المشركين في يوم بدر فسمع صوت ضربة بالسوط بالسوط فوقه فنظر الى المشرك فاذا به قد خر مستلقيا وشق وجهه فلما اخبر الرسول بذلك قال : ذلك من مدد السماء ، وما يروي عن ابي داود المازني حيث قال : تبعت رجلا من المشركين لاضربه يوم بدر فوقع راسه بين يدي قبل ان يصل

اليه سيفي ، وهم يقولون ان الامر في قوله تعالى « فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » امر للملائكة بالضرب والقتال . ومعنى ذلك ان الله قضى بإنزالهم للضرب والقتال .

ويذهب البعض الاخر الى ان الملائكة انما نزلت لتثبت قلوب المؤمنين ولتقوي الروح المعنوية لديهم وانهم لم يشتركوا في القتال وحجتهم في ذلك ان الملك الواحد يكفي لاهلاك اهل الارض جميعا .

وهذا الراي هو الذي تميل اليه النفس وتؤكده القرائن والدلائل التي لا يتطرق اليها الضعف والوهن .. ذلك لان الملك الواحد يكفي لاهلاك الكفار جميعا في لحظة واحدة . . فلماذا ينزل الله هذا العدد الكبير من الملائكة !

ك ولان الله لو قدر للملائكة ان تشترك بالفعل في القتال لما كان هناك خيرية للمسلمين الذين اشتركوا في هذه الغزوة ، ولما كان داع للاخذ بالاسباب العادية في هذا الوجود حيث يأمر الله المسلمين باعداد العدة للقضاء على الكفار فيقول : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

ولان الملائكة لو اشتركت بالفعل في القتال لكان عددهم بانضمام المسلمين اليهم اكثر من عدد المشركين . . ولا يقال حينئذ ان الفئة القليلة « المؤمنة » قد غلبت الفئة الكثيرة « المشركة » .

ولان الملائكة لو اشتركت في القتال بهذا العدد الضخم وهو الف من الملائكة مردفين اي متبعين انفسهم بملائكة اخرين حتى وصل عددهم الى خمسة آلاف . لو ان الملائكة اشتركت في القتال بهذا العدد الكبير ثم انجلت المعركة عن قتل سبعين من المشركين فحسب لكان هذا الموقف غير مناسب وغير لائق بملائكة الله . بل كان ذلك يعتبر نصرا للمشركين . وهزيمة الملائكة والمسلمين .

وبذلك يتبين لنا ان الملائكة لم تنزل للقتال ، وانما نزلت لتثبيت القلوب وتقوية الايمان . . ومما يزيد هذا المعنى تاكيدا وقوة قول الله تعالى بعد ذلك « وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » اي وما جعل الله امدادكم بالملائكة لشيء من الاشياء الا للبشرى لكم بانكم ستنتصرون ، ولتسكن وتطمئن بهذا الامداد قلوبكم حيث تدركون بأن الله معكم وانكم اهل لرضاه فيزداد ايمانكم وجهادكم . ويكون الامر في قوله تعالى فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان امرا موجها الى المؤمنين لا الى الملائكة ويكون المعنى اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم بمعونتي فثبتوا الذين آمنوا وشجعوهم واخبروهم بان الله معهم وانه سيلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، واذا كان الامر كذلك فاضربوا ايها المؤمنون فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان .

هذا ـ ومن الله العون وبه التوفيق ■

شهر رمضان المعظم
درس في اكتساب
من غزوة الفتح

حين نقول : ان الاسلام يصلح لكل زمان ومكان ، فانما نريد بذلك ان مبادئه الخالدة تستطيع ان تقدم الدروس والعبر ، وتعطى الحلول للمشاكل المختلفة في الظروف المختلفة باسلوب سهل ممتع يعتمد على « المادة » كما يعتمد على « الروح »، ولا يقتصر على الاسلوب « المادي » الذي لا روح فيه .

ولكن المهارة التي نطالب بها الكاتبين في الدين ، والمتكلمين في الدين ، ان يستخلصوا تلك العبر والدروس المستمدة من تعاليم الدين الحنيف الخالدة ، وان يقدموا الحلول المبنية على تلك الدروس والعبر للمشاكل المختلفة في الظروف المختلفة ، ليبهر الاسلام المؤمنين به وغير المؤمنين به ايضا ، وليلمسوا عظمة هذا الدين العظيم الذي قاد الحضارة العالمية قرونا طويلة حين كان اتباعه متمسكين به ويسيرون على هديه ، فلما بدلوا ما بانفسهم اصبح عزهم ذلا وتداعت عليهم الامم .

وفي هذه الايام العصيبة التي يجتازها المسلمون في دار الاسلام ، وهم في حرب مصيرية دفاعا عن حقوقهم المغتصبة في الارض المقدسة ضد التوسع الصهيوني الاستيطاني وضد من وراء اسرائيل من دول الاستعمار القديم والجديد .

في هذه الايام تطل على المسلمين ذكرى غزوة فتح مكة ، تلك الغزوة التي عاد فيها المستضعفون الذين اخرجوا من بلدهم الامين بغير حق الا ان يقولوا لمن اخرجهم من بلادهم واملاكهم كلمة الاسلام بما فيه من سماحة وقوة وامانة : اذهبوا فانتم الطلقاء .

فماذا يستطيع العرب بخاصة والمسلمون بعامة ان يستفيدوا من درس وعبرة من غزوة الفتح ؟!

ـ ٢ـ

لقد كان من جملة اسباب انتصار اسرائيل على العرب في حرب حزيران « يونيو » ١٩٦٧ ان اسرائيل استطاعت اقتناص الاسرار العسكرية العربية ، فحاربت العرب على هدى وبصيرة .

وقد صرح المسؤولون العسكريون في إسرائيل . بأن من أهم أسباب انتصارهم على العرب، أن مخابراتهم استطاعت بوسائلها الحصول على أدق المعلومات العسكرية عن العرب .

والدرس الكبير الذي يجب ان يتعلمه العرب من تلك الحرب هو ان يصونوا اسرارهم العسكرية ويتحلوا بأعلى درجات الكتمان .

ولو كان العرب شعوبا وحكومات وافرادا وجماعات ، عند مسئولياتهم التاريخية في « الكتمان » وهم في حرب حياة او موت

ضد اسرائيل المعتدية المغتصبة لما استطاعت اسرائيل ومن وراء اسرائيل ، ان يجمعوا المعلومات المفصلة الدقيقة عن الجيوش العربية ، وعن اسرارها العسكرية الحيوية ولما استطاعت الانتصار على العرب .

فما هو الدرس الذي يمكن ان يتعلمه العرب والمسلمون من الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام في « الكتمان » الذي طبقه في غزوة فتح مكة بالذات . بمناسبة ذكرى هذه الغزوة التي كانت في السنة الثامنة الهجرية وفي شهر رمضان المبارك ؟

- ٣ -

بلغ النبي ﷺ في تطبيق عامل « الكتمان » حد الروعة في غزوة فتح مكة ، حتى ليمكن اعتبار هذه الغزوة مثالا من اعظم امثلة التاريخ العسكري في تطبيق « الكتمان » الى ابعد الحدود .

فقد امر النبي ﷺ اصحابه بانجاز استعداداتهم للحركة وبعث الى القبائل المسلمة من يخبرهم بانجاز استعداداتهم للحركة ايضا .

كما امر عليه الصلاة والسلام اهله ان يجهزوه ، ولكنه لم يخبر احدا من المسلمين في داخل المدينة المنورة وخارجها بنياته واهدافه من حركته واتجاهها .

بل اخفى عليه الصلاة والسلام نياته واهدافه واتجاه حركته الوشيكة حتى عن اقرب المقربين اليه !

دخل ابو بكر الصديق رضي الله عنه الى ابنته عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ، وهي تهيء جهاز النبي ﷺ فقال لها : « اي بنية ! أأمركم رسول الله ﷺ ان تجهزوه ؟ » . . قالت : « نعم ، فتجهز » . قال : « فأين ترينه يريد ؟! » فقالت : « والله لا ادري » .

ولما اقترب موعد الحركة ، صرح الرسول ﷺ بانه سائر الى مكة المكرمة ، ولكنه بث عيونه وارصاده ليحول دون وصول اخبار اتجاه حركته الى قريش .

بث عيونه وارصاده داخل المدينة المنورة ، ليقضي على احتمال تسرب اخبار حركته من اهلها الى قريش وقد استطاع ان يحجز رسالة حاطب بن بلتعة الى قريش قبل ان تتسرب الى مكة .

وبث دورياتهم الاستطلاعية داخل المدينة وخارجها ، ليمنع قريشا من الحصول على المعلومات عن نيات المسلمين ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من ارسال المعلومات اليها .

وبقي النبي ﷺ يقظا اشد اليقظة حتى وصلت قواته الى ضواحي مكة المكرمة ، فنجح اعظم النجاح بترتيباته الوقائية في الكتمان « الشديد لحرمان قريش وحلفائها من معرفة نيات المسلمين .

فقد وصل جيش المسلمين البالغ تعداده عشرة الاف مقاتل « مر الظهران » على مسافة اربع فراسخ من مكة المكرمة ، دون ان تعرف قريش موعد حركته من المدينة المنورة ، وموعد وصوله المراحل بين المدينة ومكة .

وعسكر جيش المسلمين في « مر الظهران » فامر النبي ﷺ ان يوقد كل مسلم في جيشه اللجب نارا حتى ترى قريش من بعيد ضخامة جيش المسلمين ، دون ان تعرف هويته فيؤثر ذلك في معنوياتها ، وتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يؤمن الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام خطته العسكرية في دخول مكة دون اراقة للدماء .

واوقد عشرة الاف مسلم عشرة الاف موقد المنار ، ورأت قريش وهي في مكة تلك النيران الكثيرة تملأ الافق البعيد .

واسرع قائد قريش ابو سفيان بن حرب ومعه بديل بن ورقاء الخزاعي وحكيم بن حزام بالخروج من مكة المكرمة متجهين نحو مصدر تلك النيران فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين قال ابو سفيان لصاحبه بديل : « ما رايت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا » .

ورد بديل قائلا : « هذه والله خزاعة حمشتها الحرب »، اي جمعتهم الحرب وهيجتهم ، فلم يقتنع ابو سفيان بجواب بديل وقال : « خزاعة اقل واذل من ان تكون هذه نيرانها »،

- ٤ -

لقد كانت قريش تعرف حق المعرفة ان المسلمين سيهاجمون مكة ، ولكنها لم تكن تعرف متى وكيف واين سيجري الهجوم المتوقع .

والفضل في ذلك للكتمان الشديد الذي كان الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام لا يتخلى عنه طرفة عين في القضايا العسكرية المصيرية .

ذلك لان نيات المسلمين في مهاجمة مكة وفتحها ، لو انكشفت لقريش في وقت مبكر ، لاستطاعت ان تحشد قواتها وقوات حلفائها ، ولاعدت خطة عسكرية لاحباط هجوم المسلمين ، ولكان بامكانها مقاومة المسلمين اطول مدة ممكنة ، ولا وقعت بقوات النبي ﷺ خسائر في الارواح والاموال دون مسوغ .

والنتيجة ان قائد قريش ابا سفيان لجأ الى النبي ﷺ واعلن اسلامه ، وفي اليوم التالي دخل المسلمون مكة فاتحين .

ان « كتمان » النبي ﷺ نياته حتى عن اقرب المقربين اليه ، وكتمان وقت حركته وتعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه هو الذي ادى الى هذا الفتح القريب بدون خسائر تذكر .

ودرس فتح مكة في « الكتمان » الشديد ، يمكن ان يعتبر مثالا رائعا لمزايا التمسك باهداب « الكتمان الشديد » .

ولعل درس هذه الغزوة العملي في « الكتمان » خير ما يمكن ان يدرس في الكليات العسكرية العربية والاسلامية وكليات الاركان ليعرف العسكريون العرب والمسلمون ، كيف كان النبي ﷺ حريصا على تطبيق عامل « الكتمان » وكيف كان ينتصر على اعدائه لتطبيقه بكل مهارة وحذق هذا العامل الحيوي ويضعه في حيز التنفيذ .

ذلك درس ما احرانا ان نتدبره في هذه الايام ، حتى نحرم عدونا الذي هولنا بالمرصاد من أهم عوامل انتصاره ، وحتى نحصل على المعلومات عنه ولا يحصل على المعلومات عنا .

ترى ! انستفيد من هذا الدرس العظيم ، المستمد من سيرة سيد القادات وقائد السادات عليه افضل الصلاة والسلام ، ليتبدل حالنا الى احسن حال ، ولناخذ المباداة من عدونا اللدود ، ولنستعيد حقوقنا المغتصبة من الارض المقدسة ؟!

اذا فعلنا فستقول اسرائيل كما قال اسلافها من قبل : ان فيها قوما جبارين .

وصدق رسول الله عليه افضل الصلاة والسلام : « استعينوا على قضاء الحاجات بالكتمان » .

من اضطر غير باغ ولا عاد

ثورة الفكر الاسلامي

حتى الاوامر والنواهي التي تتضمنها النصوص القرآنية او الاحاديث النبوية . لم يجعلها الاسلام فوق مجال العقل بل انه على النقيض طالب ذوي الابصار بان يفقهوها ويتدبروا ما فيها بحيث يمتثلون لها مدركين لحكمتها وعلتها مستبصرين باهدافها . . حتى لو كانت تتعلق بالتحليل والتحريم . .

ذلك أن الاسلام يرى الانسان هو العقل الذي يتدبر والقلب الذي يؤمن واليد التي تعمل . . هو الجوارح والحواس . . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً . .

وكان على بن أبي طالب يسمى الضمير « عين الله » . . وكان يحض الناس على ان يملأوا اعماقهم بنور العلم كيلا يصبحوا وقلوبهم غفل صم بكم عمى فهم لا يبصرون . .

وكان عمر بن الخطاب ـ كعلي ـ متبعين آثار النبي ﷺ وابي بكر من بعده . . كان يجهدان جهدهما في فهم علل الاحكام ، وفي تفسير النصوص بما يحقق المقصود منها ويؤكد روحها والحكمة فيها .

وكان هذا كله تحريرا لنصوص الشريعة مما قد يهددها من جمود تتعرض له الشرائع عادة ، ان لم يقيض لها هذا الطراز من المفسرين والرواد والمطبقين العظام . .

وهكذا وضعت في الشريعة مبادىء واصول تجعل الشريعة السماوية ، شريعة انسانية في كل تطبيقاتها . . من ذلك قاعدة الضرورات تبيح المحظورات . . فمن الحق ان الله تعالى قال « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون » . . ولكن الله وضع لحدوده ، حدودا اذ قال « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » .

وهكذا لم يطبق عمر حد السرقة في عام المجاعة . . وقضى بالعفو عمن طرق ليأكل وهو جائع . . مع ان حدود الله صريحة واضحة والآية تقضي بقطع يد السارق . . غير انه بالفهم المتكامل للاسلام ، وللاعماق البعيدة في النصوص التي يعتبر بعضها مقيدا ومفسرا للبعض وبسعة الافق والجسارة وبالفهم الدقيق لانسانية الروح الاسلامية جعل الاضطرار من غير بغى ولا عدوان ، غير موجب للاثم ، بل يستحق المغفرة والرحمة . . وهو من اجل ذلك اعتبر الآثم من قهر غيره على ارتكاب المعصية او اقتراف الجريمة . . فقد سرق غلمان ناقة لرجل غريب ، واوشك ولي امرهم ان يأمر بقطع ايديهم ولكن عمر رفض وقال لاولياء امورهم : « أما والله لولا اني اعلم انكم تستعملونهم

وتجيعونهم حتى ان احدهم لو اكل ما حرم الله عليه ، حل له ، لقطعت ايديهم » ثم امر من يستعملونهم ويجيعونهم ان يدفعوا ثمن الناقة المسروقة لانهم هم الذين اضطروا الغلمان للسرقة . .

ولقد جيء لعمر بامرأة جهدها العطش فمرت على راع فأبى ان يسقيها الا ان مكنته من نفسها ، ففعلت . . فاشار علي باخلاء سبيلها فلعلها مضطرة قد قهرت على هذا الاثم .

وثبت انها مضطرة ، فاخلى عمر سبيلها ولم ترجم ، وعوقب المعتدي عليها ، الذي قهرها وخلق لها حالة الاضطرار وجعلها بين ان تموت عطشا او تمكن له من نفسها . . . !

وبهذه المواقف الانسانية المتبصرة بالدوافع والعلل والغايات ، اصبح الفكر الاسلامي بحق ، فكرا انسانيا قادرا على تغيير فساد الانظمة ، مشحونا بالثورية والقدرة على التجديد والتغيير .

ليلة القدر . .
ليلة الاسلام !

بسم الله الرحمن الرحيم « انا انزلناه في ليلة القدر ، وما ادراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر سلام هي حتى مطلع الفجر » .

ـ بهذه الايات مجد الله ليلة الاسلام التي اوحى فيها الى محمد بن عبد الله قوله تعالى :

« أقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » فكان انزال هذه الايات اول ما نزل في القران الكريم ـ هداية الله للبشرية باسرها في مختلف عصورها واحوالها ـ على رسول الله صلوات الله عليه ، اصطفاء له ، وابتداء لارساله بالرسالة العامة ، ومضى صلوات الله عليه منذ هذه الليلة التي يقول فيها « انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منزلين فيها يفرق كل امر حكيم » من الشهر المبارك « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وهو ـ صلوات الله عليه ـ الرحمة المهدأة والنعمة المسداة « يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا كبيرا ».

ـ ان ليلة اصطفاها الله بخصائص اصطفاء الرسول الخاتم ، وانزال القران الخالد ، وابتداء الامة التي جعلها الله بالاسلام « خير امة خرجت للناس » جديرة بان يسميها الله . . ولله الحجة البالغة ـ « ليلة القدر » وان يضفي عليها نعوت الشرف والفخروان يذكرها بانها « خير من الف شهر » ليس فيها ليلة القدر ، حيث يزكو فيها ذكر الله ، وترتفع اليه فيها الطاعات ،

ويضاعف فيها الثواب والاجر ، وليستجيب ربنا الدعاء ، ويحقق الامل والرجاء ، وما زالت الملائكة تنزل فيها على المؤمنين ، والى يوم الدين ، بفيوض وحمات الله ورضوانه وعفوه واحسانه ، وهو ـ سبحانه ـ يصفها بانها « سلام هي حتى مطلع الفجر » حتى نتعرض فيها لنفحات الله ، ونحن نقومها تائبين مستغفرين سائلين الله من خيره مؤكدين العهد معه ان نذكره ما حيينا وان نعبده مخلصين له الدين ، فطاعته اعون شيء على ما نرجو من صلاح الحال ، وبلوغ الامال ، واحراز النصر في المعركة التي عقدنا العزم على ان نلقى فيها ا عدونا .

ـ ففي عقيدة التوحيد يقول الله تعالى في كتابه « فاعلم انه لا اله الا الله » ويقرر سبحانه ان التوحيد دعوة كل نبي ورسالة كل رسول فيقول « شرع ا اليكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

ومن اجل تعميق وجود الله الواحد الاحد يلفتنا الله في كتابه الى انفسنا والى ملكوت السموات والارض وما خلق الله في شيء بمثل قوله « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب » « وفي انفسكم افلا تبصرون »؟ « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبـــال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت »؟!

والقران يجلو حق الله على عباده بمثل قوله « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » « اني انا الله لا اله الا انا فاعبدني ، واقم الصلاة لذكرى » « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ».

ويحفل كتاب الله بالايات التي يمتن بها على عباده ويذكرهم فيها بنعمه حتى يشكروها بطاعته واتباع سبيله فيزيدهم من خير ، ولا يحوجهم الى غيره ، ممن لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا يملكون موتاولا حياة ولا نشورا ، فيقول تعالى « الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون » .

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » .

ـ ويسم الله قاطعي الارحام بسيماهم ، ويتوعدهم بعذابة فيقول : « وما يضل به إلاّ الفاسقين الذين ينقضون في عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون » .

« فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم ، افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها ».

ـ مضى القران والرسالة الخالدة يقيمان صرح المجتمع الرباني على اساس من المحبة والتراحم والصبر واحتمال اذى قريش حتى هاجروا وهاجر النبي صلوات الله عليه الى المدينة ، الى دار الذين اووا واثروا ونصروا ، وفي السنة الثانية من الهجرة شرع الله جهاد المشركين وقتال الكافرين وكان اول ما نزل من القران في ذلك قوله تعالى . .

« اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » .

وهي ايات مع قوله تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا نعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » تبين دوافع القتال واهدافه في الاسلام ، وانه كان لرد الضيم ودفع الظلم عن افراد المجتمع الاسلامي ، وحماية الحدود والمقدسات الاسلامية وغيرها « ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً » .

والقرآن الكريم يمجد السلام الحق ، وينكر الخيانة وينقم ذلك من اليهود الذين اخلفوا وعود انبياء الله المصطفين الاخيار في كل زمان ومكان حتى رسول الله الذي عرفوه كما يعرفون انفسهم وابناءهم قال تعالى « ان شر الدواب عند الله الذين منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت وهم لا يتقون » .

والقران الذي يرفع راية السلام العزيز ، يدعوا الى اعداد العدة ، والاخذ باسباب القوة المادية الممكنة فيقول « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم واخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . . ».

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم ».

ـ واسباب النصر واضحة جلية في ايات من سورة الانعال ، وسورة الحج ، وفي مثل قوله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ـ الاية « ما يضاعف العزم على الجهاد في سبيله حتى احدى الحسنيين « النصر او الشهادة » وما احوجنا في ليلة القدر ليلة الاسلام ان نتأمل حتى هذه الايات ، وان نمضي في نورها الى النصر القريب « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ».

وفي ليلة القدر ، ليلة الاسلام كله نجد طريق الاسلام هو وحده طريق الوجود السعيد والمجتمع الرشيد ، بوصايا القرأن وآدابه التي تدعم الأسرة ، وتصون الحكم الصالح ، وتشد روابط الاخوة ، وترفع صروح التعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وتقيم جسور مكارم الاخلاق التي استهدفها رسول الله ، ومدح الله بها مصطفاه وجمع اصولها في قوله تعالى .

« ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »- فلناخذ هدايات القرأن وتوجيهات الاسلام من كتاب الله في « ليلة القدر » ولنعمل صادقين على اساس من ذلك حتى يوفينا الله عهده في قوله « وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فاؤلئك هم الفاسقون ».

- ولنقل مع رسول الله صلوات الله عليه في ليلة الخير« اللهم انك عفو تحب العفون فاعفو عنا ».

ليلة
القدر

وصفها الله بانها ذات شرف وقدر . . وذكر ان قدرها فوق ان يعرف ويوصف حيث قال : وما ادراك ما ليلة القدر . . ثم بين انها خير من الف شهر ، ولنا ان نفهم من ذلك انها خير من كل ليالي وايام العمر ، فان متوسط اعمارنا قريب من هذا القدر وهو الف شهر ، وقد يكون هذا العدد مرادا به الكثرة .

ثم هي دون شك من شهر رمضان ، لانه الشهر الذي يقول الله فيه : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن ».

اما اين تقع هذه الليلة من هذا الشهر فذلك ما اختلفت فيه الاقوال . فمن قائل انها في الليالي الاوتار من العشر الاواخر من شهر رمضان ومن قائل انها في العشر الاواخر دون تخصيص بليلة او وصف ، وانها ليست ثابتة في ليلة معينة من العشر ، بل تتغير كل عام ، ومن قائل انها السابعة عشرة من رمضان . واظهر الاقوال انها ليلة سبع وعشرين منه ، لما ورد في ذلك من احاديث ولان طائفة من السلف كانوا على ذلك .

ومن طريف ما يذكر ان بعضهم عزز هذا الرأي بالقرآن نفسه ، اذ وجد كلمة (هي) السابعة والعشرين من كلمات السورة : « انا انزلناه في ليلة القدر ، وما ادراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر ، سلام هي حتى مطلع الفجر ».

ويرى الامام محمد بن عبده امام هذا الاختلاف ان على من يريد ان يوافقها احياء ليالي الشهر كلها ، فان ذلك هو السر في عدم تعيينها ، وهذا ما تشير اليه اية البقرة : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن » فانها تجعل الشهر كله ظرفا لنزول القرآن ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه .

وايا ما كان الامر فان ثواب العبادة في هذه الليلة كما يقول الله : « ليلة القدر خير من الف شهر ».

السلوك
النبوي
في رمضان

نستطيع ان نقرر ان من ابرز مميزات السلوك النبوي في رمضان ما تتضمنه هذه المقالة المروية في صحيح البخاري - اصبح كتاب بعد كتاب الله - والتي يقولها ابن عباس عن ابن عمه محمد ﷺ حيث يقول عنه انه « كان اجود الناس وكان اجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القران فلرسول الله اجود بالخير من الريح المرسلة » اننا لنستطيع ان نستخلص من هذا النص ظاهرتين للسلوك النبوي في رمضان ، الظاهرة الاولى هي الظاهرة القرآنية ، مدارسة القرآن ومذكراته وتلاوته وقراءته والاحتفاء به واستقطابه للمسلم استقطاب المسلم له في شهر رمضان هذا . فابن عباس يصرح في هذه الرواية كما جاء في روايات اخرى كثيرة بأن جبريل عليه السلام كان كلما جاء رمضان يهبط الى النبي ﷺ ، يجلس معه يستعرضان القرآن من اوله الى اخره قراءة وتلاوة ، سواء اكان النبي يقرأ وجبريل يسمع او كان جبريل يقرأ والنبي يسمع ، او يقرآن معا ، النهاية احياء رمضان ولياليه بالقرآن ، دستور الحياة وينبوع الفضائل والكمالات الربانية التي يجب ان يتحلى بها المسلم على قدر الطاقة

البشرية ، مع زيادة الضبط لالفاظ القرآن والتحري في النطق به وازالة خوف النبي من ضياع القرآن او تحريفه او عدم تمكنه منه وتمكين المسلمين منه حسبما يستفاد من قوله تعالى له في موقف اخر « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرأته فاذا قرأناه فاتبع قرانه ثم أن علينا بيانه » وذلك عندما كان يحرك لسانه مستعجلا قراءة جبريل .

واذا اضفنا الى ذلك ما هو معروف من نزول القرآن في رمضان كما يقول القرآن « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » عرفنا لماذا يسمى هذا الشهر بشهر القرآن ، ولماذا درج المسلمون الى يومنا هذا في مشارق الارض ومغاربها على جعل رمضان شهر القرآن قراءة ودراسة وتفسيرا .

الظاهرة الثانية للسلوك النبوي في رمضان ما اشار اليه ابن عباس من الجود والكرم ، بل زيادة الجود والكرم في رمضان عنه في سائر اشهر السنة حتى انه كان يصدر من الرسول ﷺ كانه رياح تهب بالخير والبركات توزعها ذات اليمين وذات الشمال . إن شهر رمضان بوضعه وظروفه وصيامه، وحرمان النفس فيه من شهواتها وتطلعاتها المادية، يدفع نفس المسلم القادر إلى أن تبذل وتعطي وتجود وتغدق الخير على المحرومين والفقراء والمساكين بعد أن عرفت هي طعم الحرمان ، وذاقت مرارة الصبر عليه

بعض الساعات على حين ان الفقير والمحتاج يذوق طعم ذلك طوال الايام والاعوام . هذا يضمنه ان التجرد بالصوم عن علائق المادة وشهوات النفس يعطيها جرعة من الروحية والشفافية والزهادة في الدنيا وعلائقها ، وهذا كله مما يدفع الى الجود والكرم والعطاء ، استهانة بالدنيا والمادة وتطلعا الى ما وراء الدنيا والمادة من وجه الله الكريم ونعيمة المقيم ، كما يقول تعالى « وسيجنبها الاتقى الذي يؤتى ماله يتزكى ومالاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى » على هذا استقر الفكر الاسلامي ودرج السلوك الاسلامي بين المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، حيث يعتبرون ويقولون ان رمضان شهر الجود والكرم ، ويصير من الظواهر الرمضانية بين المسلمين اغداق الخير والعطاء على الفقراء والمساكين والمحتاجين .

ومن ابرز مظاهر السلوك النبوي في رمضان ما روته الاحاديث الصحيحة من انه كان ﷺ يخص رمضان بقيام النيل المعروف بصلاة القيام او صلاة التراويح التي صارت من الانطباعات الرمضانية عند المسلمين الى يومنا هذا ، غير انه ﷺ كان يصليها في بيته ثم صلاها ليلة او ليلتين بالمسجد فوجد الناس افواجا خلفه يصلون وراءه فعاد الى صلاتها في بيته وامرهم ان يصلوها في بيوتهم خشية ان تكتب عليهم جماعة في المسجد فيشق ذلك عليهم ففعلوا وامتثلوا حتى كان عمر بن الخطاب فوجد الناس يصلونها في المسجد اوزاعا متفرقين فقال ما افضل ان يجمع

هؤلاء وراء امام واحد ، فجمعهم خلف ابي بن كعب يصلونها جماعة وعمر ينظر مسرورا قائلا ما احسن هذه البدعة واستمرت على هذا الوضع الى يومنا هذا . وفي عدد ركعاتها خلاف طويل لكنه من توابع ذلك وعلائقه ما روته السنة الصحيحة عنه ﷺ من انه كان في العشر الاواخر من رمضان يجهد نفسه في عبادة ربه ويعتكف بالمسجد ويهيب بنسائه ان ينشطن في عبادة الله وان لا يكثرن النوم فيقول « ايقظوا صواحيات الحجر » يعني نساءه ثم يقول يا رب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة . .

واحيانا وفي بعض الرمضانات يكون مساوكه ﷺ جهادا ونضالا وقتالا في سبيل الله دفاعا عن الحق وكسرا لشوكة الباطل . ففي رمضان السنة الثانية من الهجرة كانت غزوة بدر الكبرى التي انتصر المسلمون فيها بقيادته وفي رمضان السنة الثامنة من الهجرة كانت غزوة الفتح التي انتصر المسلمون فيها بقيادته كان سلوكه في رمضان وفي غيره سلوكا متكاملا . كله في مرضاة الحق جل جلاله يتعدد المظهر ويتوحد الجوهر : .

دين
الوحدة

عاشت البشرية قبل الاسلام الوانا من الصراع والتفرقة عانت فيها كثيرا من صنوف الاذى والالم وفي خضم الشدة بدت خيوط

من الامل . فكان بزوغ فجر الاسلام وظهور تعاليمه بمثابة الشرارة المضيئة لبداية مجتمع فاضل لا فرق فيه بين عربي وعجمي الا بالتقوى .

وكان محمد بن عبد الله هو القائد المرتجى والامل المنشود . فلقد سار الرسول الكريم في بناء مجتمع المؤمنين المسلمين على اساس الاخاء والوحدة والمساواة . . فآخى بين الأوس والخزرج بعد حزبية وعداوة ضارية . ودعم هذه الاخوة والوحدة بروح الايمان . فامتلأت قلوبهم بالصدق والوفاء والتضحية والفداء كما آخى بين المهاجرين وبينهم ، وكما آخى بين المؤمنين جميعا .

وعلى هدى هذه المبادىء سار الرعيل الاول من المسلمين وسارت الطليعة المؤمنة الهادية تقود القافلة الانسانية الى سعادة الدارين مؤتمرة بما امر الله به . . منتهية عما انهى الله عنه . . فلم يمض الا القليل من الزمن حتى حقق الله وعده الذي ضمنه قوله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » فنصر الله جنده ورفرفت الراية الاسلامية على بلاد كسرى وقيصر . وبسطت رسالة الاسلام جناحيها على أكثر بلاد العالم وأنشأت مجتمعاً جديداً يسوده الأمن والأمان والسكينة والاطمئنان .

وكان من اثار ذلك هذه المدينة الفاضلة التي حررت الامم المظلومة وردت الحقوق المهضومة . . واطمأنت اليها القلوب ونعم في ظلالها الافراد والشعوب .

فما احوجنا في هذه الايام الى استعادة ذلك المجد الغابر ولا يكون ذلك الا بان نصل الماضي بالحاضر . . ونواصل السير على هدى من كتاب الله وسنة رسوله . . فذلك وحده هو طريقنا للنصر على عدونا وعدو الله والانسان !

أضواء
من السنة

عن ابي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله . ما كانت صحف ابراهيم . قال : كانت امثالا كلها ايها الملك المسلط المبتلي المغرور اني لم ابعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم . فاني لا اردها وان كانت من كافر . وعلى العاقل ـ ما لم يكن مغلوبا على عقله ـ ان يكون له ساعات : فساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها لحاجاته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل الا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، حافظاً للسانه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه الا فيما يعنيه . قلت : يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام . قال : كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت . ثم هو يفرح عجبت لمن أيقن بالنار . ثم هو يضحك . عجبت لمن أيقن رأي الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها . عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا

يعمل . قلت يا رسول الله أوصني قال : أوصيك بتقوى الله فانها رأس الأمر كله ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : عليك بتلاوة القرآن ، وذكر الله عز وجل ، فانه نور لك في الارض وذخر لك في السماء ، قلت يا رسول الله زدني . قال : إياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : عليك بالجهاد فانه رهبانية أمتي ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : أحب المساكين وجالسهم . قلت يا رسول الله زدني ، قال : أنظر الى ما هو تحتك ولا تنظر الى ما هو فوقك فانه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عندك . قلت يا رسول الله زدني ، قال : قل الحق وان كان مراً ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : ليردك عن الناس ما تعلمه من نفسك وتجد عليهم فيما تأتي . ثم ضرب بيده على صدري فقال يا أبا زر : لا عقل كالتدبير ولا درع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق .

انظر يا اخا الاسلام الى الوصايا الخالدة وكيف ان سيد الخلق وحبيب الحق يوصي ـ اول ما يوصي ـ بتقوى الله ، ثم يحكم على التقوى بانها راس الامر كله ، وما التقوى الا الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، فهي كلمة جامعة .

واذا كانت مقومات التقوى اربعة وهي : خوف ـ عمل ـ رضا ـ استعداد ناسب ذلك ان يحافظ الانسان على هذا الكنز السليم بتلاوة القران العظيم وذكر الله

والذكر الصحيح مقرون بالتفكير فالذكر بلا تفكير كلمات جوفاء والتفكير بلا ذكر اعمال بطراء ولذلك جاء وصف اولى الالباب في كلام الله تعالى مشتملا على الذكر والتفكر ، قال جل شانه ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ».

فالتقوى وتلاوة القرآن والذكر : كل اولئك طهرة للنفس وتزكية للقلب ونور للانسان في الارض وذخر له في الملا الاعلى ليحيا في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

في القصاص . . حياة

قبل هذه الآية جاءت الآية الكريمة : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . . الخ الآية . .

ومما هو من البر الذي يدخل في مفهوم تلك الآية ، ان يأخذ المسلمون انفسهم بالتطبيق العملي لما فرض الله تعالى عليهم في جريمة القتل ، وهو القصاص من القاتل . وفي قوله تعالى : « الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى » بيان لتكافؤ المسلمين في دمائهم ، فليس حر اكرم من حر ، ولا عبد احسن

من عبد ، ولا انثى افضل من انثى . . انهم جميعا يحملون نفسا انسانية ، هي واحدة في جوهرها ، كما يقول سبحانه : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ».

وقد ذهب بعض الفقهاء الى ان القصاص في القتلى ، انما يقع بين المتماثلين ، حسب ظاهر النص القر آني : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى ، فلا يقتل الحر بالعبد ، ولا الرجل بالمرأة .

وهذا فهم غير سليم للآية الكريمة ، اذ ليس هذا التقسيم التنويعي للناس بالذي يوجب التفاضل بين نوع ونوع ، ولو كان هذا موجبا لذلك لما كان قتل المرأة بالرجل ، ولا العبد بالحر قصاصا اذ لا يفي دم المرأة ـ على هذا التقدير ـ بدم الرجل ، ولا دم العبد بدم الحر .

والحق هو ان تفهم الآية الكريمة على ان هذا التنويع الذي جاءت به ليس مقصودا به التفاضل بين نوع ونوع ، وانما المقصود به ، هو الا نفاضل بين افراد الانواع . . فالحر لا يفضل الحر ، قرشيا كان ام غير قرشي ، اميرا كان او رعية للامير . . وهكذا سائر الانواع وبهذا تلغى الانساب ، وتزول فوارق الانواع والاجناس ، ويكون الناس في دمائهم سواء ، كما يقول الرسول الكريم : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ».

وعلى هذا تقتل النفس بالنفس ، ايا كان جنسها ، او مكانها الاجتماعي .. نفس بنفس ، وروح بروح ..

الايمان
ضرورة حتمية

حين ازدهى العلم بفتوحه الكثيرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر طغت نزعة الالحاد الديني طغيانا عارما بين المثقفين ، فجاهر الماديون بانكار الخالق واخذوا يتلمسون من اسباب الجدل الخادع ما يشنون به الحملات على المؤمنين ، وقد غرهم ما فوجىء به المتدينون من وهن وقتي اخذ عليهم سبيل الرد المفحم ، فانبروا يعلنون ما اسموه بخرافة الايمان ، ولجأوا الى المنطق المادي الاصم في التعليل والتدليل ، واهمين انهم حطموا الاسطورة ، وقضوا بادلتهم الحاسمة على الاديان .

ولكن الغشاوة الكثيفة قد انجابت عن العيون حين قارن المنصفون بين اطمئنانهم المؤمن ، وقلقهم الملحد وحين واصل العلم فتوحاته ، فرأى علماء الذرة والفضاء ما يشمل الاجرام المختلفة من نظام دقيق لا يعقل ان تبدعه المصادفة دون ان يعتريه في ملايين السنين المنصرمة خطأ عابر يصطدم معه كوكب بكوكب ، فلا يدع على الارض نسمة تتردد ، ثم ما علاج هذا القلق الحائر الذي جعل النفوس دون ايمان تعتقد انها تتخبط في

تية هائل لا تحده الضوابط ، دون ان تجد مرفأ للراحة والاطمئنان ، فالى من يلجأ المريض اذا اعضل داؤه ؟ وكيف يصبر المغبون على ظلمه دون ان يعلم ان هناك ربا يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ؟

ثم الى من يحتكم الناس في تطاحنهم المرير ؟ أ الى العقل وهو ذاتي يخضع للملابسات ؟ ام الى الضمير وهو وليد مؤثرات اجتماعية اصطلح عليها العرف العام ، ام الى القانون وهو مما يسنه الاقوياء ليسلبوا به الضعفاء . . . ولا بد من حكم عادل تطمئن اليه النفوس ، ولن يكون غير فاطر السموات والارض ، ومحيي الكائنات .

يتحدث بعض الملحدين عن نفسه فيقول ، لقد كنت في بعض الاوقات اتصور نفسي دون ايمان كاني اجلس على قمة مرتفعة لقطعة من الارض ممتدة الى البحر ، يحيط بها الماء من كل مكان فاجد نفسي محاطا بالمجهول من كل ناحية ، كاني اقف في اقيانوس لا ساحل له ، وليس لدي سفينة او شراع او بوصلة ، فسالت نفسي عند ذاك ، ما معنى هذا التأمل في المجهول إن لم يكن انفجارا للعاطفة الدينية التي زادها العلم المحسوس قوة بدل ان يطفىء جذوتها .

ولا نجد في مجال التعبير الادبي تصويرا ابلغ من هذا التصوير نقدمه الى المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، والى المترددين فيعتبرون .

ثورة الفكر الاسلامي

المساواة . .
امام القضاء

من الانصاف عندما نريد تقدير شيء ان ندري الظروف المحيطة به . . فكثير من الافكار التي تبدو لنا مالوفة في ايامنا هذه كانت على عهدها متقدمة وثورية ايضا ، وكانت صدمة لبعض الناس في زمانها . .

من ذلك المساواة امام القضاء . . ان ابناء هذا الزمان يرونها امرا من امور البداهة ولكن الذين عاشوا قبل الغاء الامتيازات الاجنبية يذكرون اية مرارة كان يعانيها المواطن في وطنه وهو يرى الاجانب يتمتعون بامتيازات امام القضاء لم تكن للمصريين . . وكان هذا الامر عاما في كل البلاد التي كانت في يوم من الايام تابعة للخلافة العثمانية وجزءا من امبراطورية آل عثمان .

ولقد كان من اهم اهداف الثورة الفرنسية : المساواة . . وبصفة خاصة المساواة امام القضاء . . فقد كان للامراء ورجال الحاشية وكبار الملاك امتيازات خاصة . .

ولكن الاسلام كان قد تخلص من هذا كله منذ زمن بعيد . . وقد فتح المسلمون بلادا كثيرة ، وكان من الطبيعي ان يشعروا بالامتياز على ابناء البلاد المفتوحة الذين حررهم الاسلام . .

ولكن ولاة امورهم كانوا يردونهم الى تعاليم الدين بحسم . . ويكلفونهم في سبيل تحقيق المساواة مشقة هائلة . . من ذلك ما كان يفعله عمر الخطاب . . فقد ولي عمرو بن العاص حكم مصر بعد الفتح . . وتجادل ابن عمرو وابن احد ابناء الفقراء المصريين فاعتدى ابن الامير على ابن الفقير . . وشكا المعتدي عليه الى عمر بن الخطاب فارسل يقرع عمرو بن العاص « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟» وامر فاقتص ابن الفقير من ابن الامير . . عمرو ابن العاص . .

كان عمر بن الخطاب شديدا حقا في اقرار هذه المساواة لكيلا يشعر احد الذين دخلوا الاسلام حديثا بانه اقل درجة ، ولكيلا يشعر احد السابقين او القرشيين بان السبق الى الاسلام او الانتماء الى قريش يمنحه امتيازا ما فتنهار قاعدة العدالة التي هي احد اركان النظام الذي انشأه الاسلام .

ولقد كان ببعض الصحابة هذا الحرص نفسه وكانوا يشعرون بحرج كبير من كل ما قد يثير شبهة التفرقة او يمس قاعدة المساواة .

وقد احتكم يهودي وعلي بن ابي طالب الى عمر بن الخطاب وهو امير المؤمنين . فقال عمر لعلي : « قم يا أبا الحسن واجلس امام خصمك . . ساو خصمك يا ابا الحسن » . .

فقام علي فجلس امام خصمه مساويا له . . وقد غشيت وجه

علي كرم الله وجهه كآبة . فلما انتهى النزاع وقضى عمر وانصرف اليهودي قال عمر لعلي متلطفا : اكرهت يا علي ان تجلس امام خصمك ؟ . .

ولكن علي بن ابي طالب اجاب : « كلا ولكني كرهت انك لم تسو بيننا حين قلت لي يا ابا الحسن ». (وابو الحسن هو كنية علي . . والنداء بالكنية تعظيم عند العرب) بهذه الروح عند الحاكم والمحكوم . . اكد الفكر الاسلامي الحر ، قاعدة المساواة امام القضاء . . ان الناس سواء في الحقوق والواجبات . . لتكون هذه المبادىء من بعد هدف الثورات الكبرى في التاريخ الانساني . .

مع آيات الله
في كتابيه

المنظور

ان الخالق ـ الذي شاء لسمو شأنه وجلال قدره ان لا تدركه حواسنا ـ لم يتركنا هكذا حيارى في بيداء الحياة الدنيا . بل تجلى لنا في كتابين خالدين : كتاب نراه ونحس به هو الكون او

الكتاب المنظور ، وكتاب نقرأه ونرتله هو القرآن الكريم او الكتاب المسطور (وهو المعجزة الخالدة) .

وكان من الطبيعي ان يستمد الكتاب المسطور كثيرا من ايات الكتاب المنظور وعلى هذا النحو تحدث عن السماء والماء ، والهواء ، والاحياء ، والارض ، والجبال ، . . . . . . وهكذا اثار القرآن الكريم قضايا علمية عامة ، هي في حد ذاتها من روائع المعجزة الخالدة .

وبدهي أن المعجزة الخالدة التي خاطبت العقل ، ووجهت الحديث الى اهل العلم والفكر ، لا يمكن ان يقف اعجازها عند عصر معين او يحد ، ثقافة بالذات ، كما انها الرباط الوثيق بين العلم والايمان . وقبل ان نشرح ذلك نجب ان نبين امرين هامين :

الاول ان الله تعالى يمكن ان يرى بالقلب تحت شروط معينة بطبيعة الحال اذ ان القلب وحده هو الذي يمكن ان يتسع لجلال الخالق وقدره العظيم ، بشرط ان يكون عامرا بالايمان وان يكون صاحبه نقي السيرة طاهر السريرة .

والثاني ان العلم قام على اساس تلمس الحقائق في الكون باستخدام الحواس ، ويرقى الى مستوى الحس ويلتقي العلم بالدين لأن العلم انما يبصرنا بآيات الخالق في كتابه المنظور او

ناموس الكون الثابت الشامل ، بينما يشير كتاب الخالق المسطور الى بدائع ذلك الناموس لنلمس قدرته .

[ان في السموات والارض لايات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة ايات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فاحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح ايات لقوم يعقلون].

ويأمرنا القرآن بدراسة آيات الكتاب المنظور على نفس المستوى الذي ندرس به آيات الكتاب المسطور ، لانه بطبيعة الحال لا يقل العمل قيمة عن الكلام ،

١ - قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق .

٢ - قل انظروا ماذا في السموات والارض . .

وتتضمن الاية الاولى كل الاسس التي قام عليها صرح علم الجيولوجيا ، ذلك العلم الذي اسسه لورد هاتون منذ نحو ٢٠٠ سنة فقط عندما قال : (ان تاريخ الارض مكتوب بين طيات قشرتها)، ولم يكن على عالم الجيولوجيا الا ان يسير في الارض ويجمع الحفريات او الاحافير ويحاول الربط بينها ، ومن ثم التعرف على تاريخ الارض وما عليها . .

وبعد أن نشأ العلم في احضان الدين عند اجدادنا على ايدي امثال الخوارزمى والبيروني والحسن ابن الهيثم و . . . . . . عمد

الاوروبيون في العصور الوسطى الى فصل العلم عن الدين ، تم نقلناه نحن عنهم مفصولاً في هذا العصر ، وقد آن الاوان لرد الامور الى نصابها في اطار العلم والايمان .

ونحن عندما نرفع راية (العلم والايمان) لا نعني اخراج العلم عن منهجه ، او تغيير الطريقة العلمية ، انما نعني ضرورة امتداد الحقائق لكي تصل الى الغاية وتبين العلة ، ولا تقف عند حد مجرد سرد الاية كما يفعل الغربيون .

علينا ان نؤمن أن اعظم اهداف العلم اظهار آيات الخالق في كتابه المنظور ، وكذلك خدمة البشرية وتقديم او توفير العون للانسانية والامثلة على ذلك كثيرة ، ولعل من ابسطها واعمها آية الثلج !

فالثلج ـ وهو الماء الصلب ـ اخف من الماء السائل الذي في نفس درجة الحرارة . والتعبير العلمي هو ان كثافة الثلج تساوي تسعة اعشار كثافة الماء ، مما يجعل الثلج يطفو جزء منه فوق سطح الماء ، مخالفا بذلك القاعدة العلمية العامة !!

والعلة التي تكمن وراء هذه الحقيقة هي ان اكداس الثلج الهائم الذي ينساب من القطبين الى المحيطات تتعرض لاشعة الشمس فتذوب اولا باول بدلاً من ان تغوص الى قاع المحيط المظلم وتظل عني حالها ، وبمرور الوقت تتجمد محيطات الارض وتنعدم فيها الحياة كما ينعدم البخر ، ومن ثم ينعدم المطر وتموت

الاحياء على اليابسة . ان العناية الالهية هي التي جعلت آية الثلج أن يطفو فوق الماء ، مخالفا بذلك القاعدة العامة المعروفة في الطبيعة وهي ان الجسم الصلب اكبر كثافة من نفس مادته السائلة ولا يمكن ان يطفو ، بل يغوص .

ولو أن مهندسا من ابرع المهندسين صمم للارض سقفا لقصر فوائده على عدد محدود منها ، ولكن الخالق اراد ان يكون هذا السقف غازا (هو الهواء) بدلا من ان يجعله صلبا او سائلا . واحتفظت الارض بهذا السقف الممتد عبر نحو الف كيلومتر فوق رؤ وسنا بقوة جاذبيتها ، رغم ان من اهم صفات الغازات ميلها للتسرب والهروب

وهكذا عادلت قبضة جذب الارض قوة هروب الهواء وانطلاقه الى الفضاء فظل سقفا محفوظا ومرفوعا بغير اعمدة

ويقدم هذا السقف لبلايين البشر خدمات (وآيات) لا حصر لها بلا مقابل يعرف بعضها الدارسون والمتخصصون ولكن مرة اخرى لا بد من اظهار تلك الايات المعجزة مصداقا لقوله تعالى :

(وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) ، والله اعلم ■

المؤمنون الصادقون

المؤمنون الصادقون هم الذين اشرف نور الايمان في قلوبهم

عهدوا الي الصراط المستقيم لا تهتز عقيدتهم في شدة او رخاء ، ان احاطتهم السراء شكروا وان نزلت بهم الضراء صبروا .

ثقتهم بالله فوق الاحداث ، يخضعون الدنيا لدينهم فما اتفق منها مع الدين اخذوه وما تعارض معه تركوه في رضا لا يساوره قلق ، وصدق الله اذ يقول : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون .

هم قاعدة الايمان الصلبة يرفضون الذلة والهوان ، لانهم اعتـزوا بعزة الله وقـووا بقوتـه : « ولله العزة ولـرسـولـه وللمؤمنين » .

ميزوا بالبصيرة النافذة فرأو الله في انفسهم ، وفي كل ما يحيط بهم في عظيم صنعته . وجلال قدرته . واياته في الافاق فازدادوا ايمانا وخشوعا وصدق الله اذ يقول : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

وهذه النماذج المتألقة من البشرية تستعلى بالغرائز في اعماقها لتتحول الى طاقات بناءة فهي تندفع الى الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال واثقة بالنصر او الشهادة لا تتاخر عن المعركة مهما كانت الظروف ، فحنظللة بن ابي عامر الذي زفت اليه

عروسه ، يسمع المنادي يقول : « يا خيل الله اركبي فينتزع نفسه من الفراش معجلا لياخذ مكانه في صفوف المجاهدين وقضى الله ان يستشهد .

والصور كثيرة تعطر جوانب التاريخ قدوة لمن اراد ان يتأسى ودليلا حيا على ما تفعله العقائد في نفوس اصحابها من قدرات تحقق النصر ، وشجاعة باهرة ليس فيها ذرة تردد او ضعف .

ولقد وعد الله المؤمنين الصادقين بالطمأنينة والهداية من كل شر : « الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون » يحفظهم الله كما حفظوه ويثبت اقدامهم . فلا روع ولا خوف . يهديهم خير السبل . « يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » .

من آيات الأحكام

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتِ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ولا الَّذِينَ يَموُتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ اعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

الآيتان ١٧ و ١٨ من سورة النساء

التوبة .. والتائبون

في هاتين الآيتين الكريمتين يرسم القرآن الكريم الطريق الذي يأخذه العصاة والمذنبون ، الى الله تائبين مستغفرين لذنوبهم ، حتى يلتقوا بربهم في ساحة مغفرته ورحمته .

فالتوبة في شريعة الاسلام ، باب واسع من ابواب رحمة الله بهذه الامة ، يفتح لكل طارق يطرقه من الضالين والزائغين ، في اية لحظة من نهار او ليل ، فلا يرد مذنبا مهما حمل معه من ذنوب ، متى جاء رب بقلب سليم .

ومن جلال التوبة وعظمتها انها في شريعة الاسلام عقد بين العبد وربه ، لا يحضره الا ما مع العبد من ولاء لربه ، ومن حياء من عصيانه ، ومن طمع في عفوه ومغفرته . . وبهذا يستر الله تعالى على المؤمن ذنوبه ، ويداري عيوبه ، فلا يطلع عليها انسان ، وبهذا يحتفظ المذنب التائب بآدميته وكرامته بين الناس ، على خلاف ما لو كشف المذنب ذنبه لانسان ـ أيا كان هذا الانسان ـ فان ذلك يضعه موضع الخزى والذلة بين يدي هذا الانسان ! ولهذا جعل الله سبحانه التوبة اليه وحده ، فقال سبحانه : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » كما جعل غفران الذنوب لذاته وحده جل شانه ، فقال تبارك اسمه : « ومن يغفر الذنوب الا الله » . . وذلك ليرفع من خسيسة هذا الانسان الذي

تدنس بالمعصية وتلطخ بالاثم ، فاذا هو رجع الى ربه تائبا ، طهره من ذنوبه ، وغسله من آثامه ، واعاده الى الحياة نقيا طاهرا كيوم ولدته امه .

والمراد بالجهالة هنا ليس هو عدم علم المرء بالمنكر الذي يرتكبه ، كمن يأكل لحم ميته او خنزير غير عالم بصفته تلك ، فذلك محسوب من باب الخطأ المعفو عنه . . وانما المراد بالجهالة ما يركب الإنسان من خفة وطيش حين يواجه المنكر ، ويقع بين يديه ، حيث يذهب لبه ويطيش عقله ، ويطير صوابه ، وتغشاه حال من الذهول اشبه بحال المخمور . .

والتوبة من قريب هي التوبة التي تعقب المعصية التي وقع فيها المؤمن . . فالمبادرة بالتوبة من هذه المعصية ، والانخلاع عنها ، ينبىء عن شعور ضائق بالاثم ، مختنق بالمنكر وعن ضمير يأبى ان يبيت مصاحبا لشبح هذا الذنب الذي الم به . . فهذا هو شأن المؤمنين الذين يخشون ربهم ، والذين يقول سبحانه فيهم : « والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » « اولئك جزاؤ هم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين » .

مساواة

قرر القرآن الكريم ـ دستور الاسلام وهدية السماء الى

الارض . المساواة بين الناس في عنصر التكوين . فأصل الانسان البعيد هو التراب والقريب من نطفة من ماء مهين . . فالناس جميعا من اصل واحد . كلهم لآدم . وآدم من تراب .

فمبادىء الاسلام لا تعرف لونا . ولا حسبا ولا عنصرية . فرب حسيب نسيب لا يزن عند الله جناح بعوضة . . ورب اشعث اغبر لو اقسم على الله لابره . . وهذا رسول الاسلام لا يقيم وزنا لمظهر الرجال بل يفضل الذي يعرف عنه صالح الاعمال . .

يروى ان أبا سفيان مر على سليمان وصهيب وبلال من نفر فقالوا : (ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذا) فقال ابو بكر : اتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم . .؟ فأتى النبي فاخبره . . فقال : يا ابا بكر : لعلك اغضبتهم . لئن كنت اغضبتهم فقد اغضبت ربك . . فاتاهم ابو بكر . فقال : يا اخوتاه . . أأغضبتكم ؟ قالوا : لا . . يغفر الله لك يا اخي

فلقد راعى رسول الاسلام كرامة سلمان وهو فارسي . وصهيب وهو رومي . وبلال وهو حبشي . وحذر ابا بكر من اغضابهم .

ويروي التاريخ أن بلالاً الحبشي وصهيباً الرومي . وأبا سفيان القرشي وجماعة من عظماء قريش وقفوا بباب أمير المؤمنين عمر يستأذنون في الدخول عليه . فبدأ بالاذن لبلال وصهيب

تعظيمًا لحق السبق إلى الاسلام دون اعتبار للعنصرية والطبقية .

فأين من هذه السماحة الاسلامية ما يتسامع به العالم اليوم من معارك التفرقة العنصرية في غير مكان وهي تأخذ شكل العراك المسلح بين البيض والسود . في دول الغرب التي تتشدق بالمدنتية . .

ان المجتمع اشد احتياجا الى هذه التعاليم اليوم اكثر من حاجته الى سفن الفضاء . ومخترعات الدمار والفناء . . واقامة العدل بين الشعوب والامم رهن بتطبيق مبادىء الاسلام . التي ينطق بها دستوره العظيم .

الاعجاز . . القرآني

جاء القرآن ل مؤيدا لدعوة خاتم الرسل ، ومعجزة تثبت صدق ما يقول ولقد كانت آيات القرآن واضحة في تحدي الذين أرسل إليهم وكذبوه (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً فأتوا بسورة من مثله) وكان الرد المباشر على دعوة التحدي عجزا بينا تمثل في ذلك الموقف الذي اضطر المكذبين الى رفع السيف واراقة الدماء ، ولو قد استطاعوا ان يفحموا الكلمة بالكلمة لما اريقت دماؤهم وعزتهم ومعتقداتهم ، وتمثل أيضاً اعترافهم على لسان احد قادتهم . بأن له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اسفله لمغدق وان اعلاه ل لمثمر وانه يعلو ولا يعلى عليه .

ولقد عكف الدارسون العرب من علماء البلاغة والمتكلمين على دراسة ظاهرة الاعجاز . وكان لهم فيها اتجاهات ثلاثة ، اولها اتجاه سلبي يرى ان سر الاعجاز هو (الصرفة) ويعني بها ان الله صرف العرب عن ان يأتوا بقرآن مثله مع ان ذلك كان في مقدورهم . . وهذا الاتجاه ينسب الى النظام . وهو مرفوض من جمهرة العلماء .

وثانيها . . اتجاه يرد الاعجاز الى ما تضمنته معاني القرآن من الاخبار بالمستقبل المغيب ، والماضي البعيد ، مع ان مبلغه عليه السلام امي لم يتلق المعرفة على يد احد ، الى جانب ما يحتويه اسلوبه من الوان من البلاغة .

اما ثالث الاتجاهات . . فلا يرجع الاعجاز لمجرد اشتمال الاسلوب على هذه الادوات لان الاساليب الراقية في اللغة ايضا تشتمل عليها ، وانما لما أبدع فيه القرآن من بناء العلاقات بين الكلمات داخل الجملة ، بحيث لا يمكن ان ينزع منه فعل ويوضع مكانه اسم ، او تقدم فيه كلمة او تؤخر اخرى ، او يحل مكان الجملة ما يرادفها معنى ، او يستبدل فيه اسلوب خبري باخر انشائي . .

. . وهذا المنحى في ملاحظة دقائق التركيب هو ما عرف بنظرية النظم . . ونسب الى الامام الجليل عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز ، وبه وصل البحث البلاغي في قضية الاعجاز الى قمة ما أراد.

: احمد درويش :

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير ت ص ٤٠١ ٢٧

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

رمضانيات

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية



الناشر: دَار الفكر اللبناني
تلفون: ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس: ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



هذا الشهر المبارك

لشهر رمضان المبارك ميزات بارزات على سائر الشهور . وهذه الميزات الكبيرة الخالدة التي اختص الله بها شهر الصيام وحباه فضلها المبين دون سائر شهور السنة هي متعددة الجوانب . منها أنه الشهر الوحيد الذي ورد ذكره في « الذكر الحكيم » نصّاً . قال الله تعالى في محكم كتابه : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وبقية شهور السنة ليس بينها من ذكره القرآن نصّاً ، كما ذكر شهر رمضان .

ومن مزاياه البارزة أن الله تعالى مدحه بمحكم كتابه في الآية السابق ذكرها . قال الامام ابن كثير في تفسيرها : يمدح الله شهر الصيام من بين سائر الشهور ، بأن اختاره من بينهنّ لإنزال القرآن العظيم . وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء . . قال رسول الله ﷺ : « أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ،

وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأبع وعشرين خلت من رمضان »[1] .

ونزول القرآن في شهر رمضان ، كان جملة واحدة إلى سماء الدنيا فجعل في بيت العزّة ، ثم أنزل على رسوله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس[2] .

ومن مزايا هذا الشهر المبارك أن الله جلت عظمته وحكمته ، اختصه من بين سائر شهور السنة بفرضية الصيام في دين الاسلام ، فيصوم فيه ـ فرضاً محتمًا ـ المؤمنون البالغون العقلاء القادرون غير المعذورين بالأعذار التالي بيانها ، ثلاثين يوماً ، أو تسعة وعشرين إذا كان الشهر ناقصاً . والصوم في رمضان ليس صوم وصال أي صوم النهار مع الليل معاً ، فذلك ما لا يطيقه الانسان . والله لا يكلف الناس إلاّ ما في وسعهم ، وإنما يجب الصوم في بياض نهار رمضان فقط ، أي من السحر إلى غياب الشمس . . أما الليل فيباح من السحر إلى غياب الشمس . . أما الليل فيباح فيه للمسلم الصائم كل ما يباح له في غير شهر الصوم من أكل وامتاع وشرب وما إلى ذلك .

ومن مميزات شهر رمضان المبارك التي لا تنسى انه كان شهر الفتوح الاسلامية الأولى ، ففيه كانت غزوة بدر أول فتح حربي

في الاسلام وفيه كان فتح مكة السلمي وكان هذا الفتح فتح الفتوح في الاسلام .

والمعذورون في نظر الإسلام ، من عباد الله البالغين ، منهم من إذا أبيح له الفطر لعذره الواضح ، فيجب عليه القضاء إذا زال هذا العذر عنه . ومن هؤلاء : المسافر والمريض الذي يرجى برؤه ، والحائض إذا زال عنها الحيض ، والنفساء إذا انتهت المدة المعينة لنفاسها . .

ومن « المعذورين » طائفة رفع عنهم الصيام رفعة واحدة ، لأن أعذارهم لا تنقضي ولا تنقطع . . وهؤلاء هم المرضى العاجزون عن الصيام في أمراض لا يرجى برؤها ، والشيوخ الهرمون الفانون . وعلى هؤلاء ـ على تفصيل واختلاف بين العلماء ـ فدية طعام مسكين عن كل يوم .

وصيام المسلم القادر البالغ لشهر رمضان هو في صميم مصلحته الدنيوية والدينية . . فالمرء يتناول مختلف الأطعمة والأشربة بدون توقيت أو ميزان ـ على الأغلب ـ طيلة شهور السنة الأحد عشر ، فيسوء هضمه ، وتتضرر صحته تضرراً يلمسه هو ويشعر به في دخيلة نفسه ويشاهده من يعرفه على قسمات وجهه وفي تلافيف جسمه . . فإذا حل شهر الصيام ، كان هذا الشهر الحد الفاصل لما يتناول وما لا يتناول ، وكان فيه تحديد ما يأكل ، فيأكل أكلاً خفيفاً يقيم صلبه ـ هذا إذا تمسك

بتعاليم الاسلام ـ ويتباعد عن الأكلات الدسمات التي توجب التخمة وامتلاء البطن وانتفاخ الأمعاء . . فيضمر جسمه المترهل وتشتد عضلاته ويعود إليه ما افتقده من صحة أثناء شهور العام الأخرى . .

ويزيد هذا «المحصول الصحي» نضرة وإشراقاً وائتلاقاً ، في كيفية وكمية ، بما يقوم به أثناء الليلِ من صلاة التراويح ، وبما يقلّله أثناء النهار من نوم ، وبما يكثّره فيه وفي الليل من قراءة القرآن بلسم الأرواح وحادي البهجة والمتعة الفكرية . فتكون هذه الأعمال كلها روافد لأمنه الصحي والروحي ومتعته . . فإذا هو مشرق الجسم بالصحة ، مشرق الروح بالفرحة ، والايمان والعمل الصالح المبرور والعبادة الخالصة لوجه الله : « الصَوم لي وأنا أجزى به » . . كما ورد في حديث قدسيّ معروف .

وهكذا يجمع الصوم للمسلم الصائم مزايا جمة ، لصحته وقوته ، وعصمته ، ونفحته بأريج سماويّ عطر من أريج الملائكة الأطهار في ساعات النهار . . فالملائكة من ميزاتهم أنهم لا يتناولون طعاماً ولا شراباً ، ولا يفترون عن ذكر الله وتسبيحه . .

وبعد ، فإن في صيام شهر الصيام « رياضة مزدوجة » . . فيه رياضة روحية تصهر كل الآثام وتكبح جماحها ، وتزرع في قلب المرء مزايا سامية ، يتحوّل بها من السلبية إلى الايجابية ، ومن

الضحالة إلى العمق والإلهام .

وفيه كذلك رياضة جسدية بارزة ، إذ يجعل الصيام المرء محدود المطعوم والمشروب وإذ يخصص وقتاً معيناً لأحجامه عن تناول المطعوم والمشروب ، ووقتاً آخر معيناً لتناوله ، كل ذلك بنظام في منتهى الدقة والحكمة كيما يجعل للانسان سبيلاً قويماً لا حباً إلى حماية صحته وتفكيره من غوائل الانهماك والافراط فيما قد يعود عليه بالضرر .

إن شهر الصوم إذن هو « دورة رياضية سنوية قدرها الله لعباده المؤمنين » ووقّت لهم زمنها ، وحدّد لهم كيفيتها وكميتها وتراتيبها رحمة بهم ولطفاً ، ونعمة عليهم وعطفاً .

ومن كمال عنايته بالمؤمنين من عباده أنه قرر لهم بعد استكمالهم إجراءات هذه الدورة الرياضية السنوية الروحية القيمة ، ذات الأثر العميق والايجابي في نفوسهم ومعنوياتهم وذاتياتهم وأرواحهم ، يوم مهرجان حافل بالأفراح والبهجة والمتعة أباح لهم فيه كل ما كان محرماً عليهم في أنهر رمضان من مباحات الأمور في شرعة الحكيم ، وحرّم فيه عليهم ما كان واجباً عليهم أداؤه ، بالأمس في بياض تلك الأيام من رمضان ، ألا وهو « الصوم » . وهذا المهرجان ، مسك الختام لشهر الصيام ، هو « يوم عيد الفطر الميمون » . . وكل عام ليحتفل المسلمون

بشهر رمضان ، وليفرحوا بعد صيامه ، بمسك ختامه ، وزهرة نظامه .

مفتاح النصر !

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين في معركة القادسية ، يوصيه ويحذره ، فكان مما قاله له في كتابه : . . . وعليك بالنظر في سواد جندك ، فإنكم إذا جانبتم نهوى الله ، ما نلتم بذلك عدوكم ، فكاثروكم بعددهم . . فغلبوكم . .

هذا الشهر

لا يستطيع الانسان أن يقدر الأثر الجليل الذي يحدثه رمضان في حياة الأمة كل عام إلاّ إذا إتفق له أن يمر بعد الغروب مباشرة في طريق عام فيرى كيف تقفر الطرق من الناس . .

فهذا الصمت والسكون المطبق وهذه العزة والفخار الذي يعلو وجوه الناس يبدد كل شك في قوة إيمان هذا الشعب واعتزازه بدينه .

يشبه رمضان صوتاً عالياً مجلجلاً يهيب بالناس في كل عام :

ان أذكروا ربكم وعودوا إلى حظيرة دينكم . . فإذا بروح دينية جديدة تتغلل في أعماق نفوسكم فتحملهم على التعاطف والتآلف والتلهف على المزيد من المعارف الدينية والعمل الصالح . .

ولكن كيف نستفيد من ذلك ونتجه به إلى الطريق السليم ؟

إن الحياة العادية اليومية تخفي صراعاً مضمراً بين مطالب الدين ومطالب الدنيا . وليس بجديد أن نقول أن السعي وراء المعيشة كثيراً ما يستغرق جهود الانسان ويستبد بأفكاره ونشاطه إلى حد يصرفه عن الفروض الدينية نفسها فتصبح نفسه مجالاً لصراع خفي بين فروض الدين وواجبات الحياة ولا يكاد يسلم من ذلك إلّا القليل الذين يقول الله فيهم : « رجال لا تلهيهم تجارة ، ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة » .

إن المبدأ الذي يجب أن يأخذ به كل فرد هو الاستفادة من روح رمضان الكريمة ، وأول ذلك اتخاذ هذا الشهر وسيلة لسد النقص الذي كثيراً ما يطرأ على الحياة الدينية في بقية شهور العام وفي مقدمة ذلك ما يتصل بالصلاة . فمن الشذوذ الديني الصارخ أن تهمل الصلاة حتى في شهر الصيام ، ولا بد لمن حرمته ظروفه منها طول العام أن يستجد في رمضان عزيمة قوية على أداء الصلاة ومغالبة كل الظروف التي تعترض طريقه إليها .

ويقترن بالصيام واجبات أخرى كثيرة وربما كانت الواجبات الاجتماعية أهمها فإذا كانت ظروف الحياة العلمية القاسية قد أثّرت في حسن الصلاة بين الناس ، فلا بد لنا في رمضان من استرجاع روابط الأخوة والمحبة والتآلف .

ويجب أن تعبر هذه العواطف عن نفسها تعبيراً إيجابياً قوياً فلا يكفي الكف عن التباغض والتنافر والتنابذ بالألقاب الجارحة فهذه هي الخطوة الأولى ونحن وإن كنا في أشد الحاجة إليها فإنها لا تغنينا عن واجباتنا الايجابية الضرورية لسعادة المجتمع ورفاهية الأمة .

لقد قرر الله عز وجل في كتابه وقرر الرسول ﷺ في المأثور من أحاديثه مبدأ الأخوة كأساس للصلات بين الناس ومصدر للمعاملات المتبادلة بينهم وعلى أساس هذا المبدأ وضعت شريعة الاحسان والتعاون . وقدم الرسول عليه الصلاة والسلام نموذجاً لذلك وبخاصة في شهر الصيام .

وعندي أن إبنٍ حزم على حق حينما يقول ليس بأخ من يرى أخاه يتضور جوعاً وهو يقدر على إنقاذه ثم لا يبالي به ولا يفكر فيه .

والأخوة التي يقررها الاسلام لا بد أن تكون أساساً لواجب التعاون والاحسان وإلاّ فهي كلمة جوفاء ، ولو سارت الأمور في

مجراها الطبيعي لتحول شهر رمضان بوجه خاص إلى شهر بذل وإحسان وعطاء عام غامر يشترك فيه الكبير والصغير والنساء والرجال ليلاً ونهاراً وسراً وعلانية ، ولكان المبدأ الذي يسير عليه كل فرد والآية التي يرددها كل إنسان هو قوله تعالى :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

رفض المال
مخافة الكبرياء

قيل ان أحد الفقراء دخل مجلس النبي ﷺ وعنده رجل غني ، فكف الغني ثيابه عنه . فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت ! أخشيت أن يلصق فقره بك أو يلصق غناك به ؟

فقال الغني : يا رسول الله . . أما إذا قلت هذا فله نصف مالي .

فقال رسول الله ﷺ للفقير : أتقبل منه ؟

قال الفقير : لا

قال النبي ﷺ : ولِـمَ ؟

قال الفقير : أخاف أن يدخلني مدخله .

من دروس رمضان

لقد أشاعوا في غريزة الجنس أنها سيدة الغرائز ، ولا مناص من الخضوع لها ، فمقاومتها كبت ، والكبت يورث الجنون ، ولقد اغتر بقولهم الزائف بعض من لا مناعة لهم من الدين ، ولكن الصوم أثبت أن الارادة أقوى من الشهوة ، وإنها تستعلي عليها ، حتى لتجعلها تحت الأقدام لا فوق الرؤوس .

إن الصائم المتزوج يكون أمامه في نهار رمضان زوجة الحلال ولا يقر بها لأنه ملك زمام نفسه وقوي الصوم إرادته فتحكم بها في شهوته فقهرها وأثبت أنه ليس عبداً لها مع قدرته على تلبيتها ، وغير المتزوج يستعين بالصوم على التحكم في غريزة الجنس وإضعافها حتى لا يكون لها عليه سلطان .

والصائم كما يتدرب على الاستعلاء على الشهوات ، يتدرب على صيانة اللسان من اللغو والفحش والبذاءة وقول الزور . . ويتدرب على صيانة الجوارح من المعاصي والآثام ، وهو يفهم جيداً قول الرسول الكريم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن أبدع طعامه وشرابه » .

وإن الصائم لتتربى فيه عادة مراقبة الله وخشيته ، فهو لا يعصيه سراً كمالاً يعصيه جهراً ، وهذه التربية تجعله ينفذ القوانين بدافع من مراقبة الله والضمير ، لا تحت أعين الشرطة

ولا خوفاً من العقاب والتكبر .

وانه ليعلم أن الرسول الكريم كان أجود ما يكون في رمضان ، وكان أجود من الريح المرسلحة فهو يتأسى به وينهج نهجه .

ومن أهم دروس رمضان أنه يدرب صائمه على أن يكون كذلك في سائر أشهر العام ، فرب رمضان هو رب سائر الشهور ، والرقيب عليه في رمضان هو الرقيب سائر الشهور ، فإذا انقضى رمضان سار في غير مسيرته عليه وراقب ربه ، وحاسب نفسه وأعلى إرادته وطامن من شهوته ، واستبق الخيرات .

وهكذا يخرج لنا رمضان كل عام أقواماً يحبهم الله ويحبونه ، جاهدوا أنفسهم فلما ملكوا أزمتها ساروا في الناس أجمل سيرة وسهل عليهم الجهاد في سبيل الله ، وكانوا خير أمة أخرجت للناس .

سبب . . توبته

قال محمد بن مسروق البغدادي : خرجت ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان ، وكنت أغني بهذا البيت :

بـطور سينـاء كـرم مـا مـررت بـه
ألا تـعـجـبـت ممـن يـشـــرب المـــاء
وفي جـــهـنـــم مـــاء مـــا تجـــرعـــه
خلق فـأبقى لـه في الجـوف أمعـاء

فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة .

رمضان والعلم والإيمان

ليست كأيام رمضان أيام نـأمل في ملكـوت السموات والأرض ، وما بينهما من اشعاعات الـروح ، وما في هـذه الاشعاعات من قبس إلهي ينير الطريق إلى الله في الدنيا والآخرة . . وفي هذا التأمل تبرز معالم هذا الطريق ، وتبدو على جانبيه أيام من الفكر الصائب الذي يهدي به الله عباده المتقين . . ومن آياته هذا الشعار الساداتي الذي انطلق منذ ١٥ مايو من هذا العام ، شعار « العلم والإيمان » .

إن العلم قيمة من قيم الحياة الأساسية أما الإيمان فهو قيمة هذه القيم جميعاً .

وفي شهر رمضان المبارك صلات روحية وفكرية وتاريخية بهذه القيم كلها . . فالله قد علم آدم الأسماء كلها ، وفي هذه الآية كما وردت في القرآن الكريم إشارة خالدة إلى أن العلم هو أساس

البناء في هذه الحياة الدنيا . . وطريق الاتصال بما فوق هذه الحياة الدنيا من خلود . .

والله تعالى حينما بعث محمداً نبياً ورسولاً للعالمين جعل أول هذه البعثة فتحاً مبيناً للعلم والإيمان بقوله تعالى : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم » .

فالواضح من هذه الآيات البينات أن الله قد جعل من « العلم » سبيلاً بين العبد وربه . . ثم سبلاً إلى التفكر في الخليقة نفسها على أسس علمية حين قال تعالى « خلق الإنسان من علق » فإن وراء هذه الحقيقة وحدها بحراً من العلوم الانسانية التي توحي الآية الكريمة ببحثها . .

ولقد اختار الله لنزول آياته الأولى شهر رمضان موعداً لهذا البعث العلمي الجديد حتى لقد جرى العرف على تسمية شهر رمضان بأنه شهر القرآن . . ولما كان القرآن الكريم هو مفتاح المعرفة فنحن نستطيع أن نسمي شهر رمضان شهر العلم أيضاً .

هكذا نزل القرآن في شهر رمضان المبارك داعياً الناس كافة إلى « العلم » . . وكانت هذه الدعوة السماوية في نفس الوقت دعوة إلى « الإيمان » . . والإيمان وقت واحد . . الإيمان يسبق العلم لأننا حين ننظر في ملكوت السموات والأرض انما نتحرك في هذه

النظرة إبتداء بدافع من هنا يسبق العلم ويلحق به في الايمان ، أي بدافع من الاعتقاد المطلق بأن في ملكوت الله ما يفرض الإيمان وعلى الإنسان أن يتزود منه بما يستطيع وما يشاء الله من علم . .

من هنا تبدو الرابطة واضحة بين العلم والإيمان ، شعاراً رمضانياً صالحاً .

وحين نقول أن شعار « العلم والإيمان » شعار رمضاني إنما نحن نشير إلى هذه الحقيقة التي أرادتها حكمة الله بنزول القرآن في رمضان وبتقديم القرآن لآيات العلم ، وما وراء هذه الآيات من أسباب الإيمان .

وليس شك أن حصن المؤمنين على العلم ليس مقصوداً به علوم الدين وحدها « فالدين ذاته يحصن المؤمنين على أن يعلموا من شؤون دنياهم ما يصلح لهم هذه الدنيا ويجعلها خير طريق إلى آخره كريمة . .

وليس شك أن الإيمان بالله واليوم الآخر يحمل في معانيه الواسعة الإيمان بكل القيم التي يحملها المعنى القرآني القائل : « وكرمنا بني آدم » فلكي يكون بنو آدم كرماء على أنفسهم مقربين إلى الله ينبغي أن يمتد إيمانهم إلى ما يصلح شؤونهم الوطنية والقومية والانسانية جميعاً والدليل على هذا المعنى واضح في الاصطلاح الاسلامي الانساني القائل الوطنية من الايمان .

لهذا نعتقد أن أيام رمضان المبارك من خير الأيام تفكراً وتأملاً وتحركاً في دائرة هذه المعاني جميعاً . . فليس بكاف أن نصوم ، ثم نظن أن كل شيء من أشياء رمضان على ما يرام . . بل ينبغي أن يكون صيامنا مصحوباً بتطبيق شعار « العلم والايمان » على نطاقه الفسيح الذي يتسع لصلاح أمورنا في الدنيا الآخرة .

إن صلاح أمورنا للآخرة طريق العبادات . . لكن العبادات لها أسلوب إضافي آخر لا بد منه ، هو العمل على صلاح أمورنا في الدنيا لكي نكون أهلاً لصلاح الآخرة . . وفي مقدمة صلاح أمورنا في الدنيا أن ندافع عن الحق . . أن ندافع عنه بالعلم والعمل . . ونحن الآن أمام حق مضاع تريد الفئة الباغية أن تسلبنا إياه سواء كان ما تسلبه أرضاً أو قيمًا قومية لا بد من استردادها .

أريد أن أقول أن الجهاد في سبيل هذا الحق عمل يرضاه الله . وتحضنا عليه روح رمضان ، شهر القرآن . . وأمامنا المثل الأعلى في هذا المجال أوضح ما يكون في معركة بدر التي خاضها رسول الله في شهر رمضان المبارك ، فاعتبر جهاد المسلمين فيها وفوزهم المؤزر بها آية من آيات رمضان .

وأريد أن أقول أن الصيام وحده لا يكفي . . إن سمة الصوم الحق هي الجهاد في سبيل الله وكل ما نجاهد به في سبيل الحق إنما نقدمه مرضاة لوجه الله الذي ينصر من ينصره فلنتخذ من هذا

الشهر الفضيل زاداً لنا في معركتنا المقبلة أيا كان توقيت هذه المعركة ، وخير الزاد التقوى . . ومن التقوى أن نتحرك كلنا قلباً ويداً وفكراً ولساناً على ضوء العلم والإيمان .

إن العلم والإيمان هما المجدافان في زورق النجاة إلى شاطىء الأمان . . فلننظر إلى هذا الشاطىء نظرة الارادة الصادقة بعيون التقي والصلاح في رمضان .

إنسان . . خير
من . . واحد !

خطب عمر بن الخطاب الناس يوماً فقال : إن رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا فقال : من أحب منكم أن يلزم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو مع الاثنين أبعد . .

وفي حديث للنبي عليه السلام يقول : إثنان خير من واحد ، وثلاثة خير من إثنين ، وأربعة خير من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة ، فإن الله عز وجل لم يجمع أمتي إلاّ على الهدى .

رمضان والجنة

إن تواصل القلوب فيه ما يغني عن إستمالة الرغبات

الدنيوية ، وكلما خلصت المودة من شوائب المادة صفت النفوس وقامت على العهد ، لأن الروح جوهر لا يتغير وكل ما يكون موضع إمداد له نفاد ونهاية وتقلب ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغيره انقطع وانفصل .

والتهادي قد يكون فيه رمز الود ، لأنه يدل على ترضية طبعية النفس في الفرح بها تملك لكن الاسراف فيه مضيعة .

قالوا : كان عمر بن عبد العزيز يصوم ويفطر على البقل ويغمس الخبز بالملح المدقوق فأهدى إليه إليه طبق تفاح وفاكهة لكنه رده ، ولم يتناول منه شيئاً ، فقيل له : ألم يكن رسول الله - ﷺ - يقبل الهدية ؟ قال عمر: بلى ! أن الهدية للرسول هدية لكنها لمن بعده رشوة .

ولقد جرت العادة في « رمضان » على أن يتبادل القادرون الهدايا ويدفع السرف إلى التغالي حتى يكون الأثقال عليهم و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ، ولعل أفضل ما يهدي أن تجمع الهديتان وتقدما مما إلى بيت محتاج قد أغلق على أهله بمفتاح القناعة !! وقد جملتهم العفة وظهروا بمظهر الغنى ليستروا الفاقة ، وهؤلاء أحق الناس بالاهداء ، فقد تجملوا بالصبر

ويجب أن ينالوا حسن الأجر

وأن في رمضان ومضات نورانية تهتدي إلى البر ، فتخمد بها لذعة الجوع وحرارة العطش ، وقد روى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يرحم من أخطأ في حق ربه يوم القيامة ، وحين تسأله الملائكة ـ من باب التأدب والتعرف ـ عن سبب عدم تعذيبه يقول ـ جل وعلا ـ : يا ملائكتي إني أحرقته في الدنيا بنار الجوع والعطش حين صام رمضان ، فلا أحرقه اليوم بالنيران !

ونقول : إن نور الله في جليل رحمته ، والراحمون يرحمهم الرحمن !

الحياة الطيبة
هي .. القناعة

قال سعد بن أبي وقاص لإبنه عمر : يا بني : إذا طلبت الغنى فأطلبه بالقناعة ، فإن لم تكن قناعة فليس يغنيك مال .

وقال بعض المفسرين في معنى قوله تعالى : « فلنحيينه حياة طيبة » يعني بالقناعة .

في نور القرآن الكريم

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

القرآن الكريم كتاب الله المعجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا وانتظمت سعادة الأولى . والآخرة ونزلت هدى ونور للبشرية فقضت على الأوهام الباطلة والأساطير الكاذبة والعبادات الضالة ونقلت الانسانية من عصر تسوده الفوضى ومبادىء الطغيان والعبودية إلى حياة فيها رضا وأمن وطمأنينة وسلام وحرية وعدل . .

ويتجلى أعجاز القرآن الكريم في بلاغته وروعته وجدته التي تأخذ بالأفئدة والاسماع والمشاعر والعواطف فهو كتاب الانسانية نزل إلى البشرية قاطبة موجهاً إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة والأمن والسلام والخير المطلق والأخاء والحق والعدالة والحرية والمساواة بين الناس ، ولذلك يجد فيه من يقرأه السكينة والراحة النفسية والدواء لكل ما أهمه وأحزنه ، ولا شك في أن المؤمن إذا رتع قلبه في رياض القرآن كان له ربيع عمره ، واستضاء به في ظلمات الشبهات والشهوات وتسلى به من كل فائت وتعزى من كل مصيبة واستشفى به من ادواء صدوره ،

فيكون جلاء حزنه وشفاء همه وغمه .

والشفاء هو البرء من السقيم ، والمراد أن القرآن الكريم هو الدواء المعنوي ، يشفي صدورنا من النفاق والأحقاد ويكون للأجسام أيضاً من بعض الأضرار ، كما أمر الله رسوله ﷺ أن يتحصن من السحر ومن الحسد بقراءة المعوذتين ـ وكما كان النبي ينصح بالرقبة لمن يشكو بعض مواجعه فيأمرهم بقراءة « هل هو الله أحد » و « المعوذتين » ، وهذا ليس بكثير على كتاب الله وإنما يحتاج إلى صدق الإيمان وتمامه .

ومن المأثور عن النبي ﷺ من الدعاء إذا أصاب الانسان هم أو حزن قوله « اللهم اني عبدك وإبن عبدك وإبن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل إسم هو لك ، سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي » .

والقرآن الكريم هو شفاء جميع الأذواء القلبية والبدنية وإذا أحسن العليل التداوي به ووضعه على دائه بصدق وإيمان واعتقاد ، لم يقاومه الداء أبداً ، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدمها أو على الأرض لقطعها ، انه الكتاب الجامع للفوائد والمنافع ، مبين للمعارف .

الحقة التي هي شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائفة ، جاء رحمة للمؤمنين ، نجوا به من ظلمات الكفر والغلال إلى نور الإيمان .

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ؟ وجل من قائل « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

الدين النصيحة

كان جابر بن عبد الله يشتغل بالتجارة وكان من عادته عندما يعرض السلع للبيع أن يبصر المشترى بما قد يكون فيها من عيوب ويقول : ان شئت فخذ ، وإن شئت فأترك .

ولما قيل له أن تصريحه بعيوب السلعة يوقف بيعها ويجعلها تبور قال : لقد بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم ، والدين النصيحة .

القرآن أفضل طريق إلى الجنة

هداية القرآن توجه أساساً إلى الضمير . . إلى نفس الانسان من داخله قبل جوارحه الظاهرة ، لأن قلبه يتحكم في حواسه .

ولا عكس . فإذا صلح القلب صلح الجسد كله ، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله .

● من عمل صالحاً فلنفسه . ومن أساء فعليها . .

من هنا كان الاسلام هو الطريق الأمثل والأوحد في إصلاح البشرية وهدايتها لأنه يحيط النفس من جميع أقطارها ، ظاهرها وباطنها . ولأنه يصوب إقباسه النورانية إلى الضمير مباشرة . ولن يستطيع الانسان أن يفلت من أحكامه وقواعده وتوجيهاته التي ألزمه بها ، في حين أن الانسان لا يعجز إذا حاول التخلص من القوانين الوضعية . لأنه في الأولى على يقين من أن الله تبارك وتعالى يراه . وإن كان هو لا يراه ، ولأنه في الحالة الأخرى قادر بالحيلة على النجاة من قوانين الأرض .

وبقدر ما تسن الحكومات من قوانين رادعة للمنحرفين بقدر ما تتفتق أساليبهم وألاعيبهم للافلات منها وهذا حال مشاهد وواقع في عرض الدنيا وطولها : ولا كذلك حال المسلمين يوم نزل عليهم القرآن غضاً طرياً فإنهم تقبلوه واستجابوا له بقلوبهم وحواسهم ، فتساوقت بواطنهم مع ظواهرهم في سلوكهم في كل ما دق وجل من كل الأمور . بل انهم كانوا في الباطن أشد خشية من الله ولله وحقوق الناس منهم في الظاهر وإن كان هذا الظاهر لا يبعد قيد شعرة عن تعاليم الله .

وكل ذلك جاء ثمرة لما كان يحرص الرسول عليه السلام على تطهير قلوب أصحابه من الغل والحسد والبغض هي أمراض الحياة ليغرس مكانها سلامة الصدر منها ، باعتبارها أفضل من كثرة الصلاة والصيام وإنفاق المال .

قال أنس : كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ . فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج ـ الطريق ـ رجل من أهل الجنة . . قال : فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال ، فلما كان الغد ، قال : ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل ، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل .

فلما قام النبي ﷺ تبعه أي تبع ذلك الرجل ـ عبد الله إبن عمرو بن العاص فقال له : اني لأحيت أبي ـ جادلته ـ فأقسمت ألّا أدخل عليه ثلاثاً ـ يعني ليالي ثلاثة ـ فإن رأيت أن تؤ ويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت . فقال : نعم . . فبات عنده ثلاث ليال ، فلم ير يقوم من الليل شيئاً . غير انه إذا تقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى لصلاة الفجر . قال إبن عمرو : غير اني ما سمعته يقول إلا خيراً . فلما مضت الثلاث . وكدت ـ هذا قول إبن عمرو ـ أن أحتقر عمله . . قلت يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : كذا . . وكذا . .

فقال الرجل الأنصاري : ما هو إلّا ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفس غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله بن عمرو فقلت له : هي التي بلغت بك وهي التي لا تطيق .

وأنت ترى من هذا الأثر أن الرسول عليه السلام كشف لأصحابه كيف يكون التعامل مع الله . لتكون الجنة جزاءهم . وأكد لهم أن هذا التعامل يجب أن يقوم على طهارة القلب من البغض والحسد والغل . أن يقوم على سلامة الصدر ، ولا شيء وراء ذلك .

يقول مالك بن نبي في مؤلفه الظاهرة القرآنية :

لم يصنع الرسول نفوساً مؤمنة تقية فحسب وإنما صنع عقولاً مستنيرة وطرق إرادات فولاذية . . انه يسمى الشعور بالمسؤولية . ويشجع المبادأة في كل إنسان ويعظم الفضيلة في أبسط صورها . . وإن الناس والمسارعة لهما رائد كل عضو في الجماعة . إذ يرى نفسه في سباق إلى الخير بحسب أمر القرآن .

وإذا كانت الصدور محل الهدى والضلال ، وعن طريقها يتولد الخير والشر ، فإن الله يشرح صدر المؤمن للهدى والخير وصدر الكافر للضلال والشر وشرح الصدر لأيهما يجيء لائقاً ومناسباً لحاله ، فهو سبحانه يبشر المطبع بالنعيم المقيم والجامد بالعذاب الأليم .

فبالنسبة للمؤمن يقول القرآن :

● فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام .

وبالنسبة للكافر يقول :

● ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذب عظيم .

● ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء .

والقرآن مائدة الله التي أنزلها من السماء للأمة المحمدية يحيي بها النفوس ويطهر القلوب ويزكي الجوارح ويشفي الصدور من أدران الشر وعبادة المادة .

● قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور .

والصدر هو وعاء الإيمان والعلم فالذين أوتوا العلم هم الذين يعقلون ويتفهمون ويتدبرون آيات القرآن التي هي آيات الكوز .

● بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم .

وحذر الله رسوله من أن يضيق صدره عند تلاوة القرآن التي تنعى على المشركين شركهم خوفاً من استهزائهم به ، لأن من مستلزمات النبوة هو الاستخفاف بما يتعرض له النبي من سخرية .

● فلعلك تارك بعض ما يوحي إليك وضائق به صدرك .

● كتاب أنزلناه إليك ، فلا يكن في صدرك حرج منه .

● ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من المساجدين .

● لأن الله تبارك وتعالى قد تكفل بنصره عليهم .

● قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

وهذا ما يتحتم أن يواجه به المؤمنون أعداءهم الذين يبغضونهم .

● قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم إكبر .

وعن طريق الصدر يعلم المسلم الصادق ، علم اليقين أو عين اليقين ويؤمن إيماناً أرسخ من الجبال بأن الله عليم بسره وجهره ، فلا مهرب منه ، ولا فرار إلّا إليه ، ولا مجادلة عنده ، ولا حجة تعلو حجته ، أو له الحجة البالغة .

● إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور . يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

● ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليهم بذات الصدور .

● وأسروا قولكم أو أجهروا به انه عليم بذات الصدور

● قل أن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله .

● وإن ربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون .

فشأن المسلم الصادق . الإيمان بأن الله مطلع على الخفايا والظواهر . وهو لهذا يطيع الله ويجتنب نواهيه ولا كذلك المنافق الغافل عن مراقبة الله إذ يؤمن بلسانه دون قلبه لاستجلاب المغانم والفرار من المكار .

● ومن الناس من يقول آمنا بالله ماذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن أنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين .

فهؤلاء المنافقون يقولون بألسنتهم انهم مؤمنون فإذا أوذوا في الله جزعوا وفتنوا عن دينهم ولم يفكروا في عذاب الله يوم القيامة .

قال القرآن فيهم .

● يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ، أي بريء من مرض الكفر .

● وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ، أي سار إبراهيم على نهج نوح في توحيد الله .

ومهما تنكره صدور الكافرين من بعث الناس يوم القيامة . وتتصور استحالته في عقولهم ومدركاتهم . فإن الله تعالى الذي خلقهم من العدم قادر علىٍ إحيائهم بعد موتهم في يوم الحساب ولو كانوا حجارة أو حديداً ، وذلك لتأكيد قدرته سبحانه .

● الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

وسلامة الصدر قبل هذا وبعد هذا مطلب الأنبياء والرسل ، ومهوي أفئدتهم ، ولذلك توجه موسى عليه السلام بالدعاء إلى ربه .

● رب إشرح لي صدري .

● وامتن الله على رسوله الكريم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بشرح صدره .

● ألم نشرح لك صدرك ، أي بما أودعنا فيه من الهدى والإيمان .

تلك هي ثمرات إنشراح الصدر للإيمان وهذه نتائجها المباركة التي أدخرها سبحانه وتعالى لأوليائه في الدنيا والآخرة .

شدة السلطان
الحق والعدل

خطب سعد بن شريك يوماً بحمص فقال : إن للاسلام حائطاً منيعاً وبابا وثيقاً ، فحائط الإسلام الحق ، وبابه العدل ، وما يزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق ، وأخذاً بالعدل .

القرآن والأمة

يرتبط إسم رمضان دائمًا بالقرآن . . ورمضان شهر نزول القرآن . . قال الله سبحانه وتعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . . » والقرآن هو حبل الله المتين . . والذكر الحكيم . . وهو الدستور الذي يضيء الطريق أمام المسلمين في كافة أنحاء العالم ويربط القرآن بين المسلمين في جميع الأرض حيث يجتمعون حول تعاليمه للاستفادة منها في حياتهم الدنيا وللتزود إلى اليوم الآخر . .

وفضل القرآن على هذه الأمة لإيدانية فضل آخر . . فقد جاء القرآن إلى العرب وهم أمة بدوية . . جافة . . الخلافات بينهم

التــلاوة والتجويد

تختلف قراءة القرآن من قارىء لآخر ومن نوع لآخر ولكنها تخضع لقواعد وأسس يحددها علم القراءات . ويلتزم بها القارىء وإلاّ فإنه يكون آثمًا .

وتلاوة القرآن تختلف بالطبع في قواعدها عن تجويد القرآن كما نعرف جميعاً ، ولكن الكثيرين منا يعتقدون أحياناً أن هذه القراءات غير محددة وإنها تحتاج إلى ضوابط كما أن البعض يحلو له أحياناً ـ عن جهل بالموضوع وعدم إلمام بالتراث الإسلامي ـ أن يقترح أن يلحن القرآن الكريم ونص التلحين أن يكتب بالنوتة الموسيقية وأن يتغنى به كما هو الحال في القصائد والتواشيح والطقاطيق والأغنيات العادية ، ومع ما في هذا الاتجاه من مخالفة لأحكام الشريعة ومع ما فيه من عدم فهم للقرآن الكريم وطبيعته وسماته الخاصة فإنه يتضمن أيضاً الجهل بالتراث .

فإن للقرآن موسيقية ولتلاوة القرآن وتجويده قواعد علمية مأخوذة عن رسول الله ، فنحن نتلو القرآن كما كان الرسول يتلوه وكما تعلم أصحابه منه ، فقراءة القرآن وتوقيفية يتوارثها الخلف عن السلف وتنقلها شفاه الرواة عن الرواة إلى أصدق الرواة عن رسول الكريم . .

وقد ألفت الكثير من الكتب في تراثنا تتضمن القراءة وكيفيتها

وحدودها ، منها (منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ، للأشموني الشافعي .

وهذا الكتاب يوضح القراءات ويبين المواضع التي يحسن الوقف عندها وكيفية الابتداء .

وقد ألفت عدة كتب اهتدت بالمنار وسارت على نهج صاحبه ، فاختصره عبد الله المغربي في كتاب أسماه (وابل الندى ، من منار الهدى) ، واختصر المختصر السردي في كتاب (تحفة من أراد الاهتداء في معرفة الوقت والابتداء واختصره إبن مسعود الفاسي في كتاب (أوائل الندى المختصر من منار الهدى) .

وكما ظلت هذه المحفوظات دون تحقيق علمي فقد ظل على نفس الحال كتاب الاهتداء في الوقف والابتداء لأبي عمر والداني .

الجوار . . يباع ؟

عرض محمد بن الجهم داره للبيع بخمسين ألف درهم . . وكانت تجاور دار سعيد بن العاص . . فلما حضروا ليشتروا قال : بكم تشترون جوار سعيد بن العاص ؟

فقالوا : والجوار يباع ؟

فقال : وكيف لا يباع جوار من أن سألته أعطاك . . وإن تسكت عنه إبتدأك . . وان أسأت إليه أحسن إليك . . وإن غبت عنه حفظك . . وإن نابتك جانحة فرج عنك . .

فبلغ سعيد ذلك . . فوجه إليه مائة ألف درهم وقال : أمسك دارك عليك .

رسائل إلى قلوبنا

« أسلم تسلم » . . هكذا بدأت إلى الملوك رسائل محمد صلى الله عليه وسلم ، في نهاية السنة السادسة من الهجرة بعد أن أمن قريشاً بصلح الحديبية ، وأمن على المدينة بإجلاء اليهود عن حصونهم المنيعة شمالي الحجاز ، وتوقع الفتح القريب لمكة . لقد سقطت بسقوط هذه الحصون الاسرائيلية كل العوائق أمام ارتفاع صوت الوحدة والتحرير تحت رايات الاسلام ، وانفتحت الطرق في تلك الفترة الهادية بقيادة الرسول وأسوته لمخاطبة الملوك الجاثمين على أرض العرب . . لمقارعتهم بحجج السلام وشروطه ضد حجج العدوان وغطرسته . . مقارعة الند للند . . لأنه بعد الغطرسة لا يكون إلا القتال الذي أعد له المؤمنون عدتهم . .

« أسلم تسلم » . . أي آمن أيها الهرقل المتغطرس وسط قواتك وأسلحتك وأطماعك ، يتحقق لك الأمن . . فإن توليت. فإنما عليك اثم « الاريسيين » . . أي انك إذا أبيت الله . . . وشريعة الله . . فعليك ذنوب من استعمرت بلادهم من الأرقاء المنسحقين تحت حكمك . . عليك خطايا وآلام الفلاحين العرب البسطاء الذين استنزفت دماءهم بالاضطهاد وأموالهم بالضرائب ، في مصر والشام والمغرب . . عليك ما يقع منهم وما يقع عليهم عليك أوزار هؤلاء الذين يزرعون لك أرضهم . ويعبدون لك الطرق لتبطش بهم . . ليكون لك كل شيء من ثمار الأرض والإنسان . . ولا يكون لهم أي شيء إلاَّ الهشيم والدموع !

أربعة عشر قرناً مضت على هذه الرسائل . . ولا تزال كلماتها البسيطة في الدعوة إلى الله (وهي موجهة إلى هؤلاء الملوك المعتدين على الشعب العربي تبدو كما لو كانت مرسلة إليهم صباح اليوم . . أكثر من ذلك هي لا تزال موجهة إلى قلوبنا نحن لنتذكر . . وموجهة إلى عقولنا لنهتدي . . فلقد دار التاريخ دورة بالوطن العربي بعد تحرره وتوحده بالاسلام ليقع بأطماع الاستعمار والدول الكبرى في التجزئة من جديد . . ثم ليواجه مثل هذه الغارات الوحشية المخططة للقضاء عليه بقيادة هذا التحالف الاثم بين الصهيونية والاستعمار . .

لقد عادت مرة أخرى بيزنطة جديدة وعلى رأسها تاج خمسين

ولاية أمريكية . . وأصبح هرقل المعاصر رئيساً لأعظم تحالف عدواني ضد الشعوب النامية والصغيرة . أصبح له بيت أبيض من الخارج ، وأسود من الداخل . . يحكم منه على نهر البوتوماك في أقصى الغرب . . لقد أصبح هرقل الجديد أيضاً حليفاً للأكيدر الذي وجد في قادة إسرائيل . . الأكيدر الذي كان يحكم قديماً أيلة العربيه ثم أصبح الآن يحكم ما بين أيلات وعكا في أرض العرب . . لقد أصبح هرقل كعادته التي عرفناها قبل معارك التحرير العربية . يرفض السلام للعرب بل لهم الحياة . . ويغدق الأسلحة على إسرائيل !

لا شك أن هذه الرسائل ـ التي لن يستمع إليها هرقل الجديد ، ولا تابعه الاكيدر الاسرائيلي ، وهي موجهة إلينا نحن في مصر . . وموجهة إلى شعوب اتحاد الجمهوريات العربية . . وموجهة إلى كل جماهير العرب والمسلمين . . انها موجهة إلينا لنعيها ونهتدي بها . . وهي موجهة إلينا لكي تستجيب بالصدق والأمانة لكل دلالاتها ، ولكل وصاياها . . بداية من الاستجابة لله وللرسول إيماناً وسلوكاً . . عقيدة وشريعة . . لغة ووحدة . . عندئذ ـ وليس هذا بالبعيد ـ ينفتح الطريق لكي يسمع لنا العدو إذا خاطبناه ، وينسحب عن أرضنا إذا ناجزناه . . نفس الطريق الذي تحرك عليه الرسول إلى مؤتة وتبوك والفتح .

حسنة .. تضر !!
وسيئة .. تنفع !!

يقول أبو حازم سلمة بن دينار : أن العبد ليعمل السيئة ، ما عمل حسنة قط أنفع له منها ، وانه ليعملُ الحسنة ما عمل سيئة قط أضر عليه منها .

وذلك أن العبد يعمل الحسنة فيزهو بها ويتجبر ، ويرى أن له بها فضلاً على غيره ، ولعل الله بهذا يحبطها ويحبط معها عملاً كثيراً . ويعمل آخر السيئة فتسوءه .

لا يعرف حدود
الزمان أو المكان

النبوة اصطفاء وهبة من السماء ، وليست أمل نفس طموح أو تطلع إنسان يرمق القمم .. ويستطيع الصعود ! ولقد كان شروق الوحي على قلب محمد مباغتة له ، لم يفكر فيها ، وإن كانت مشيئة الله قد أعدته لها ورتبت على اختياره أموراً ذات بال في تاريخ العالم أجمع !

ولذلك جاء في الكتاب العزيز « وكذلك أوحينا إليك روحاً

من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا . . » وجاء أيضاً قوله جل شأنه « وما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب . . . إلاّ رحمة من ربك » .

وقد نهض الرسول الكريم بالمنصب الأشم الذي اختير له ، وأصبح بنعمة الله إنسان الإنسانية ، والقائد العابد في محراب الإمامة العامة لخلق الله إلى يوم يبعثون !!

وقد آمن به واقتنع بصدقه طلاب الحق على اختلاف الزمان والمكان ، وكانت الأدلة التي أحاطت به وتكاثرت في طريقه من القوة والوضوح بحيث اعتبر الصدود عنها عاهة فكرية أو نفسية ، تزرى بأصحابها ولا تغض من صاحب الرسالة !

والدليل على صدق أية دعوى قد يكون بأمون خارجة ، أو يكون بحقيقتها في نفسها . . فقد يزعم أحد النـاس أنه مهندس ، ويقول : دليلي على ذلك اني أستطيع السير بقدمي على الماء ، أو الطير بجناحي في الهواء . . . !!

فإذا فعل ذلك سلمنا له ؟

وقد يقول : دليلي على ما أقول : اني أبني ـ فعلاً ـ عمارة مدعمة الأركان ، أو أصل بين شاطئين ـ مثلاً ـ بجسر متين !!

فإذا فعل فقد دل بقدرته الهندسية على انه مهندس يقيناً . . .

بل قد تستريح النفس إلى هذا الاستدلال أكثر من راحتها إلى البراهين الخارقة الأولى ! قال إبن رشد : « إن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ ليست كدلالة انقلاب العصا حية ، ولا أحياء الموتى ، وإبراء المرضى ، فإن تلك ـ وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلّا على أيدي الأنبياء ـ وفيها ما ينفع الجماهير من العامة إلّا انها بعيدة الصلة بوظيفة النبوة ، وأهداف الوحي ، ومعنى الشريعة . . . !

فالآيات الحسية إذن قد تكون ذاتية في الرسالة . وقد تكون خارجة عن جوهرها . . والتفاوت بينها واسع النطاق باختلاف البيئات التي ظهرت فيها والرسالات التي اقترنت بها .

وقد جاء الإسلام فغض من شأن الآية الحسية المجسدة . . . ونوه بالآية العقلية الخالدة التي تنهض بها معنويات الرسالة ، وقرر إلى جانب ذلك أن الخوارق التي دعمت بها الدعوات السابقة لم تمنع التكذيب بها ـ أولاً ـ فلا معنى لطلب التصديق بها أخيراً . « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذب بها الأولون وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلّا تخويفاً » .

ومن ثم أتجه الأنبياء وجهة أخرى . . . وجهة تحريك القوى الكامنة في العقل الانساني ليستطيع أن يعرف ربه ، ويؤدي حقه . . . وجهة احترام الفطرة السليمة واستثارة أشواقها إلى

التسامي والطهر . .

وقد كانت الرسالة الخاتمة نموذجاً لهذا التحول الحاسم ، ولا شك أن الاشراق المستمر للحق وبرهانه هو أليق شيء بمصاحبة رسالة كرسالة محمد نخاطب الانسان حيث كان ، ولا يعرف في هدايتها حدود زمان أو مكان .

من كن فيه
كن . . عليه

قالوا : ثلاث من كن فيه كن عليه : البغي . . قال تعالى : « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، والمكر . . » قال تعالى : « ولا يحيق المكر السيء إلّا بأهله » والنكث . . قال تعالى : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » .

أقل عدداً . .
ولكن أعظم إيماناً

حشر « نوح » في سفينته الخشبية الصغيرة قبل أن تقلع بذور هذا العالم الكبير . . عالم النبات والحيوان والصراعات البشرية الضارية التي نراها اليوم على الأرض . . سارت السفينة تشق قلب الأعاصير والظلمات والأمواج . . كانت رغم كل شيء

نطفة هذه الحياة الجديدة التي تلمع وتختج على كف العناصر الغاضبة . . وأخيراً قر قرارها على صخرة الأمن . . وجفف ملاحوها المؤمنون الشجعان ـ آباء البشرية الحديثة ـ عرقهم . . وابتسموا . . لقد صفا الجو ، وغاض الماء ، وأشرقت الشمس أمامهم من جديد . .

لقد حققوا هذا النصر العظيم لحياة الانسان وإن كانوا أقل عدداً . . لأنهم كانوا أعظم إيماناً وعندما نزل القرآن الكريم على النبي العربي لم تلبث معاني الآيات ومحكماتها إن استحالت في نفوس المؤمنين على قلتهم إلى يقين وحياة للأفراد . وإلى قوة ووحدة للمجتمع . . وإلى ضوء وأمل على الطريق . وكان الطريق واضحاً تماماً بالقرآن . . وسنة الرسول . .

لقد حقق المسلمون الأولون أكثر من نصر عظيم للاسلام ، وشريعته . وطبيعته . . لأنهم كانوا على الدوام أعظم إيماناً . وإن كانوا أقل عدداً .

ثم تكاثر المسلمون في الأرض وانتشروا عليها . . تكاثرت القلة التي كسرت طوفان جاهلية العالم القـديم في القرن السابع . . أصبح الذين كانوا من صحابة الرسول في موقعة بدر أقل من خمسمائة مؤمن أكثر من خمسمائة مليون نفس . . ترتفع وراءهم إلى عنان السماء سلسلة من جبال الانتصار التي تشرق عليها الشمس ولا تغيب .

ولكن أعداءهم كانوا في بعض وهن الايمان قد فتنوهم في معتقداتهم .. تسللوا إليهم في فتور التخمة الحضارية الدسمة .. في خيلاء الدولة الغنية الباذخة التي صنعوها بالدين والقرآن .. ففي لحظات من فتور الجسد .. ونعاس العقل . ونسيان القلب وقعت الفتنة في الرأي .. ظهرت « هلوسات » كثيرة تحت عناوين معتقدات سليمة .. وكان حتمًا أن يظهر الوهن والتفكك والضعف وأن ينحسر فعل الاسلام ويتوقف انتصاره .. ليتجمد ويتراجع عند حدود العبادة .. لينزوي في الصلاة والصوم .. فالعبادات اليوم هي حصن المسلمين الأخير . هي الحصن الذي يريد أعداؤهم أن يجعلوه « غرناطة العقيدة » بينما العبادات في القرآن الكريم هي مقدمة الفعل الاسلامي لبناء الحياة . وتنمية العلاقات الانسانية والاجتماعية المتساوية ، وافتضاض غيب العلوم . وكسر شوكة القوى المعادية .. وليست هي مجموع الأفعال .. فما هو المخرج ؟!

المخرج بكل وضوح هو هذا المثال المتجدد في حياة المسلمين . هو هذا الموقف الراهن للشعوب العربية المعبأة للنضال .. موقف الذين تجمعهم اليوم طبيعة واحدة .. وتحكمهم صيرورة واحدة .. وقد حشرهم القدر الحكيم في سفينة حياة واحدة تندفع بغير خيار لتشق قلب الأعاصير وإن كانوا أقل عدداً .. لأنهم أعظم إيماناً ..

نأخذ ما أعطينا

تزوج أعرابي فتاة وطمع في أن تلد له غلاماً فولدت بنتاً ، فهجرها وهجر منزلها . وصار يأوى إلى ضرتها بجوارها ، وذات يوم كان جالساً في بيت ضرتها فسمعها تهدهد إبنتها بهذه الأبيات :

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا
تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا
نثبت ما قد زرعوه فينا

فنهض مسرعاً إليها وقبلها وقبل إبنتها وقال : ظلمتكما ورب الكعبة .

عناصر القوة في الاسلام

دور الأمة الاسلامية دور إمامة وزعامة ، وقد أمدها الاسلام بالعناصر التي تؤهلها لهذا المنصب الخطير ومن هذه العناصر

تتألف القوة الحقيقية التي تصل بالأمة إلى غاياتها ، من العزة ، والمنعة ، والمجد . والسؤدد . والسيادة . والقيادة . والتمكين في الأرض .

وليست هذه العناصر مقصورة على جانب دون جانب ، وإنما تتناول جوانب الحياة جميعاً فهي تتمثل :

في الإيمان بالله إيماناً يحرر الضمير والوجدان . .

وفي الاستعصام بالحق استعصاماً يزهق أمامه الباطل ويندحر . .

وفي معرفة الضعف النفسي ، والتطهر منه ، حتى تأخذ النفس طريقها إلى العزة ، والسمو .

وفي العلم المقوم لشخصية الانسان والكاشف له عن حقائق الوجود المادي ، وما وراء هذا الوجود من عالم ما وراء الطبيعة . .

وفي الثروة ، وتعمير الأرض ، واستثمار قوى الكون ، والانتفاع بما في الطبيعة ، من بركات الله وخيراته وتوزيعها على أفراد الأسرة الانسانية بالكفاية والعدل .

وفي إقامة المجتمع على أساس من الحرية ، والعدالة ، والمساواة والتشريع السمح ، والعمل الجاد ، والمعاشرة

الحسنة ، والحكم الصالح الذي تكون فيه السيادة للأمة .

وفي السلام العام القائم على احترام الانسان وكفالة حقوقه .

وفي احترام العهود والحفاظ على المواثيق . .

وفي التضحية النبيلة والاستشهاد في سبيل الحق ، ومن أجل الحياة الحرة الكريمة .

هذه هي عناصر القوة في الاسلام ، وهي قوة بالمعنى الحضاري فهي قوة في العقيدة ، وقوة في الخلق ، وقوة في العلم ، وقوة في المال ، وقوة في التماسك الاجتماعي وقوة في التنظيم السلمي وقوة في الاستعداد الحربي .

وقد كانت هذه القوى هي العامل الأساسي في نجاح هذه الأمة في أول دور من أدوار حياتها التاريخية ، وباجتماع هذه العناصر أصبحت الأمة رفيعة البنيان ، عظيمة السلطان ، ثابتة الأركان ، باذخة الذرى وتم لها وعد الله الذي لا يتخلف :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . ولسدلنهم من بعد خوفهم آمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » .

وما زالت كذلك حتى غيرت ما بنفسها ، وأخلفت ما عاهدت

الله عليه ، فغير الله ما بها ، وطبق عليها سنته في الاجتماع البشري :

« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ومن الواجب علينا ونحن في هذه المرحلة الحاسمة أن نبدأ بتغيير جوهري في نفوسنا وفي أخلاقنا ، وأن يكون ذلك التغيير عاماً وشاملاً بالنسبة للعامة والخاصة ، ويكون على أساس مدروس ، وخطة محكمة ، لكي نتقي أسباب الانحلال والضعف من جهة ونأخذ بأسباب القوة والعزة من جهة أخرى وأسباب القوة ليست في فوضى الأخلاق ، ولا في التحلل من الآداب ، ولا في التشكيك في المثل والقيم ، وإنما هي في الأصول الخالدة ، والمبادىء الكريمة التي جاء بها الاسلام .

آدم والملائكة

أخبر الله تعالى ملائكته أن سيجعل آدم خليفة في الأرض له عليها سلطان يتصرف في موادها ليجعلها ملائمة لحاجاته وينتفع بما فيها من زروع وثمار ومعادن وحيوان وهواء وماء . . فقال الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ فقال الله لهم : اني أعلم ما لا تعلمون . .

ولم يكن سؤال الملائكة احتجاجاً ولا مظاهرة أمام الله لأن الملائكة قوم مكرمون لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون ، وربما كان ذلك من الملائكة مجرد خواطر مرت بأنفسهم ليعرفوا حكمة الله في استخلافه ، فأراد الله أن يعلمهم أنه أودع فيه أسراراً .

وأراد الله أن يحقق لهم ما غاب عنهم فعلمه الأسماء كلها . . أسماء كل ما وقع عليه نظره وجال بخاطره وما يتعلق بحياته وطعامه وشرابه . والملائكة ليسوا في حاجة إلى شيء مما في الأرض . لأنهم على وصف يخالف وصف الانسان الذي قدم له الله أن يصنع ويزرع ويفكر ويوجه فكره إلى تطوير حياته ويستحدث الأساليب العلمية لصيانة هذه الحياة على وجه يلائم كرامته ووجوده .

زكاة . . الفطر
مقدارها . . وموعدها

على عادة رمضان الكريم ، الزائر السنوي في إطار حركة الأفلاك . فإنه لا يكاد يلوح قادماً ومشرقاً حتى يبدو عند نهاية طريقه قافلاً ومودعاً ، وعندئذ يجد المسلمون أنفسهم في مهام الشكر على الزيادة التي بلغوها به في إيمانهم ، وجلاء قلوبهم ، صائمين وقائمين ، يتساءلون عن الزكاة التي تجب عليهم . . .

ما نوعها . . . وما قدرها . . . وما موعدها ؟

ولكن ثمة سؤ وال يسبق هذه الأسئلة مما يهم جوابه جماهير الصائمين وهو ما حكم هذا النوع من الزكاة وما حكمتها . . ومن الخير أن نبدأ به . .

أما حكمها فهي واجبة على كل فرد من المسلمين وعنهم صغاراً وكباراً . ذكوراً وأناثاً ، إذا ملك زيادة عن قوته وقوت أسرته التي يعولها بمقدار صاع من الحبوب التي يصنع منها الخبز يوماً وليلة ، أو ما يعادلها ذلك نقداً . وهي تجب على المسلم عن نفسه وعمن تلزمه نفقتهم من أسرته وذوي قرباه . .

وأما حكمتها فهي كما شرعت في شعبان من السنة الثانية من الهجرة طهارة للصائم مما عسى أن يكون وقع فيه من اللغو والرفث فضلاً عن غاية البر بمن يجب لهم البر .

كان المسلمون الأولون على عهد الرسول الكريم ومن بعده يخرجون زكاة الفطر من القوت السائد بينهم وكان الشعير والتمر وهذا هو شرط النوع لهذه الزكاة . ومعنى هذا انه إذا اختلف نوع القوت السائد في الشام عنه في الحجاز أو في مصر عنه في الشام فإن الزكاة نوعاً تكون من القوت السائد في الاقليم وبذلك يجوز مع الشعير والتمر والأذرة والقمح والزبيب والأرز وغيرها .

وأما قدرها فهو الصاع الذي يعادل من أوعية الكيل عندنا

قدحاً وثلث قدح . .

على أن بعض المسلمين وهم الآن كثرة في المدن لا يملكون في بيوتهم شعيراً ولا تمراً ولا زبيباً ولا أذرة فهؤلاء كما يجيز لهم أبو حنيفة يستطيعون أن يقدموا ما هو المعادل لهذه الحبوب وقدره في هذه الأيام وفي مصر ما بين ١٢ و ١٥ قرشاً عن الشخص الواحد . .

وأما موعدها فهو آخر رمضان ويجوز تعجيلها قبل العيد بيوم أو يومين . وقال الشافعي يجوز تقديمها من أول الشهر ، وقال أبو حنيفة يجوز تقديمها على شهر رمضان ، وعن إبن عمر « أمرنا رسول الله ﷺ بزكاة الفطر قبل خروج الناس إلى الصلاة » . .

واتفق رأي الأئمة على أن زكاة الفطر لا تسقط بالتأخير بعد الوجوب ، بل تصير في ذمة من لزمته حتى تؤدي ولو في آخر العمر . .

أما اخراجها إلى « من يجب لهم البر » فهم الفئات الثماني. الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء . . الخ الآية » . .

وزكاة الفطر تعطي للفقراء المقيمين بالمكان الذي يقيم فيه المزكي ولا تنقل إلى مكان آخر إلاّ في حالة ذوي القربى للمزكي ، أو لمن هم أشد حاجة من أهل المكان .

الجمـــال . . وليس الكبر

كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم ، وفي لدار ركوة فيها ماء ، فجعل ينظر إلى الماء ويسوي شعره ولحيته .

سئل : وأنت يا رسول الله تفعل هذا ؟!

قال : نعم . . إذا خرج الرجل بي أخوانه ، فليهيىء من نفسه . ان الله جميل يحب الجمال .

ويروي إبن مسعود أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : لا يدخل لجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . .

فقال رجل : إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً !!

فقال النبي : إن الله جميل يحب الجمال . . الكبر بطر الحق وغمط الناس .

زكاة الفطر : حكمتها وأحكامها

للحياة ضرورات أربع ، لا تستقيم بدونها حياة . وهي : المآكل والمشرب . والمسكن والملبس . وإليها أشار القرآن الكريم

في معرض الامتنان على آدم في قوله تعالى : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » وهذه الضرورات ليست طوع كل الناس . بل منهم المخروم منها والعاجز عن الكسب . ومن هؤلاء الفقراء والمساكين الذين لا يخلو منهم مجتمع . ومن عدالة التشريع الاسلامي أن كفل لهؤلاء جميعاً حق الحياة الكريمة فيما شرع من زكاة ، وفيما أوجب من انفاق . فجعل الزكاة العامة مورداً لسد احتياجاتهم على مدار السنة . ولم ينسهم في المناسبات الهامة فجعل لهم ثلث الأضاحي في عيد الأضحى ، وخصمهم بزكاة الفطر في عيد الفطر . وبهذا أصبح لكل عباد الله نصيب في نعم الله .

حكمة مشروعية زكاة الفطر : يرى فريق من العلماء أن المقصود منها هو التوسعة على الفقراء والمساكين في يوم العيد ، حتى يشعروا هم وأسرهم بالبهجة والسرور فيه . وفي هذا جبر لخاطرهم يجعلهم في رباط وثيق مع المجتمع الذي يعيشون فيه ، وينعمون بخيراته . ويرى فريق آخر انها طهرة للصائم من اللغو والرفث . أي انها تجبر عنه أموراً كان ينبغي اجتنابها حال الصوم . ويغلو آخرون فيقولون أن صوم رمضان لا يقبل إلا بعد أداء زكاة الفطر ! .

والرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب ويقويه قوله ﷺ : « أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم » يليه الرأي الثاني . وليس

بعيداً أن يكون مقصود الشرع الحكيم الرأيان معاً أما القول الثالث فتبدو عليه سمة الضعف لأن الصوم فرض ، وزكاة الفطر سنة . والفرض أقوى . فلا يتوقف قبوله على سنة ليست هي هيئة من هيئاته .

وقت وجوب زكاة الفطر : يرى الأحناف أن وقت وجوبها هو طلوع فجر يوم العيد . ويرى الحنابلة أن وقت الوجوب هو غروب شمس ليلة العيد . كما يقول بذلك الشافعية حيث قالوا انها تجب بآخر جزء من رمضان وأول جزء من شوال . وهذا معناه غروب شمس ليلة العيد .

وللمالكية رأيان ، أحدهما انها تجب بغروب الشمس ليلة العيد ، وثانيهما انها تجب بطلوع فجر يوم العيد . وهم بذلك يلتقون مع جميع الآراء السابقة .

على من تجب زكاة الفطر : اتفق أئمة المذاهب الأربعة على أن الزكاة تجب على كل مسلم ، حرّ ، قادر على إخراجها وقت وجوبها . وفسروا القدرة بأن يكون مالكاً لقوته وقوت من تلزمه نفقتهم شرعاً يوم وليلة العيد . أي يكون مالكاً لأكثر من نفقات العيد حسبما جرت به العادة . لأن الزكاة تجب في القدر الزائد عن النفقة المطلوبة . ويخرجها الشخص عن نفسه وعن من تجب عليه نفقته شرعاً ، وهم هنا : الزوجة ، والأولاد الصغار ، والأولاد الكبار إذا كانوا عاجزين عن الكسب ولو لتفرغهم

لطلب العلم ، أو كانوا غير راشدين ثم الوالدان الفقيران . ثم من يعمل على خدمته إلّا إذا كان له أجر ثابت .

وخالف الأحناف فقالوا بعدم وجوبها على الرجل لزوجته . إلّا أن يتطوع بها فإنها تجزي عنها ولو بغير أذنها . والزوجة غير المدخول بها لا تجب زكاتها على زوجها ، وكذلك المرأة الناشز . وجوز الحنابلة اخراجها عن الجنين .

وإذا لم يجد العائل مقداراً من المال يكفي زكاة أفراد أسرته ، فإنه يخرجها عن بعضهم بادئاً بنفسه ، ثم زوجته فأمه فأبيه فأولاده . ثم الأقرب فالأقرب حسب ترتيبهم في الميراث . وبعض العلماء يقدم الأولاد على الوالدين ولا يجب عليه الاستلاف من أجل الزكاة . بل يجوز ذلك إذا وثق في السداد والأصل سقوط الزكاة عنه لعدم القدرة .

وقت إخراجها : إتفق الفقهاء على أن أفضل وقت لاخراجها هو ما بين طلوع فجر يوم العيد وصلاته . وكرهوا تأخيرها عنه ، ولا تسقط به بل هي حق ثابت يتحتم عليه إخراجها وعليه اثم التأخير . وكذلك منعوا اخراجها قبله وهذا النهج يجب النظر فيه . لأنه كان يليق بعصور كانت أمورها سهلة .

ونحن نعيش في عصر مخالف لما كان يصلح له ذلك الوضع ، فيجب أن نعطي مستحقي زكاة الفطر فرصة كافية للاستعداد

للعيد ، وهذا يقتضي أن نقدم وقت اخراجها عما هو منصوص عليه . وقد فطن بعض الفقهاء قديماً إلى هذا المغزى فجوزوا :حراجها قبل العيد باليومين والثلاثة . وبعضهم يجعل رمضان كله وقتاً لإخراجها والحكمة أن ينتفع بها مستحقوها في العيد ، فلنعطها لهم قبله بزمن مناسب حتى لا يستهلكوها قبل حلوله فيضطروا للسؤال الذي حذر النبي عليه السلام منه ومن أجله شرع الزكاة .

والفقه الاسلامي مرن يقوم على تلبية حاجيات الناس في غير ضرر أو ضرار فلا يضيق بمثل هذا التعديل الهادف .

إلى من تعطي زكاة الفطر: جمهور الفقهاء على أن زكاة الفطر يجوز إعطاؤ ها إلى أي نوع من الأنواع الثمانية المذكورين في قوله تعالى : انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وإبن السبيل . . » وخالف المالكية فحصروا أعطاءها في الفقراء والمساكين فقط لكثرتهم ولأنهم يوجدون غالباً في زمان .

ولا يجوز للمزكي أن يعطي زكاته لقريب له تجب عليه نفقته ، لأن نفعها سيعود عليه ، ويجب توزيع الزكاة في موضع وجوبها فلا يجوز نقلها إلى بلد أخرى .

نوعها ومقدارها : للعلماء تفصيلات مسهبة في بيان النوع

والمقدار لا داعي لذكرها ما داموا قد جوزوا إخراج البدل النقدي عنها . وحرصاً على صالح الفقراء والمساكين أرى أن يزاد مقدار النقد فيكون بالنسبة ، للشخص الواحد ما بين العشرين والخمسة والعشرين قرشاً ، ولنتذكر دائماً قوله تعالى : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، مما تنفعون إلاّ ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون .

خُذ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

الآية: ١٠٣ من سورة التوبة

الزكاة . . في لسان الشرع

الزكاة في اللغة النماء والزيادة . . وزكا الشيء يزكو ، طاب ونما . . وهي في لسان الشرع هذا النصيب المفروض في مال الأغنياء للفقراء ، إذا بلغ المال نصاباً ، أي قدراً معلوماً . .

ويطلق على الزكاة في لسان الشرع أيضاً لفظ الصدقة ، لأنها من الصدق ، حيث لا تقبل إلا من مؤمن بالله مصدق بكتاب الله ، وبرسول الله . . ثم هي من الصدق الذي هو وضع الشيء بموضعه ، وهي حيث وضعها المؤمن بموضعها كانت في

أحسن موضع وأعدله ، لانفاق المال ، لأنه من الباقيات الصالحات .

والصدقة أعم من الزكاة ، لأنها شاملة لكل خير يتصدق به المؤمن ، سواء ما كان فرضاً واجباً كالزكاة ، أو تطوعاً زائداً عن الفريضة ممن وجبت عليه الزكاة ، أو إحساناً ممن لم تجب عليه الزكاة . .

وقد فرض الإسلام الزكاة في السنة الثانية من الهجرة . . فقال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وقال رسول الله ﷺ : « بني الإسلام على خمس » وعد الزكاة ركنا من هذه الأركان . .

وإذا كانت الزكاة فرضاً على من يملكون من أموال والنصاب الذي نجب فيه الزكاة ، سواء كان نقداً أو ما يقوم مقام النقد ، من الأنعام ، والزروع ، وعروض التجارة ، ونحو هذا ـ فإن الصدقة والإحسان مطلوبان من كل مسلم ، مالك أو غير مالك ، غني أو فقير . . يقول الرسول الكريم : « على كل مسلم صدقة » قيل : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » قيل : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » قيل : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يأمر بالمعروف » قيل : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر . فإنها صدقة » ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها

صدقة ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة . . والكلمة الطيبة صدقة . . وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

وبهذا السر ، وبتلك السماحة في شريعة الاسلام، يفتح باب الاحسان على مصراعيه ، فسيحاً رحيباً ، يدخله كل من يريد الاحسان وأن يكون في المحسنين ، وبهذا يتبادل المسلمون جميعاً ، أغنياؤ هم وفقراؤ هم ، أسخياؤ هم وبخلاؤ هم ، مواقع الاحسان ، فيمسك كل واحد منهم بطرف أو أكثر من أطراف الاحسان ، فيحسن ويحسن إليه . . وبهذا يتساوى الأغنياء والفقراء والقادمون والعاجزون في هذا المقام . . فمن فاته أن يكون في موكب الاحسان بعد هذا ، فلا كان في الناس أبداً . .

الفقير . . والغني

يقول أبو بكر الخوارزمي : إن الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق . لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات . ولا يستبطئه أخوانه ، ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر في الفطر صدقته ، ولا في النحر أضحيته ، ولا في شهر رمضان مائدته . ولا في الربيع باكورته ، ولا في الخريف فاكهته . ولا في وقت الجباية خراجه ، فإنما هو مسجد يحمل إليه ، ولا يحمل عليه ، يتجنبه الشرطي بالنهار ، ويتوقاه العسس بالليل وفي الأسحار . فهو أما غانم أو ساع .

أما الغني فهو غنيمة كل يد سالبة وصيد كل نفس طالبة ، وطبق موضوع على شارعة النوائب ومنصوب على مدرجة المطالب ، يطمع فيه الأخوان ، ويأخذ منه السلطان ، ويتطرق إليه الحدثان ، ويتحيف ماله النقصان .

* ثورة الفكر الاسلامي :

الأرض . . لمن ؟

كان لتوزيع الغنائم في عهد الرسول ﷺ قاعدة فصلتها الآية القرآنية : « واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن في خمسته وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل » .

وعلى هذا سار أبو بكر الصديق . .

كان خمس ما يغنمه المسلمون يعطي الله والرسول وللفئات التي ذكرت في الآية . . أي أن هذا الخمس كان يوجه للانفاق على مصالح الأمة (لله والرسول) ، ولسد حاجات المحتاجين . .

أما أربعة أخماس الغنائم ، فللمحاربين توزع عليهم عقب كل غزوة . .

حتى إذا إتسمت الفتوح الاسلامية في عهد عمر استولى المسلمون على أرض العراق والشام ومصر ، وهي كلها أرض زراعية خصبة ، وفيها رجال يفلحونها لحسابهم أو لحساب السادة ملاك الأرض وزراعها يعملون بالأرض عبيداً لها . .

وواجه عمر موقفاً صعباً بعد أن فتح الله على المسلمين هذه الأرض . . ماذا يصنع بها . . أيجري فيها حكم الغنائم ، فيوجه خمسها الصالح الأمة أي لبيت المال للانفاق العام ، ويوزع الباقي على الغزاة ، فيخلق طبقة جديدة من ملاك الأرض الكبار تخلف الطبقة التي انهارت من أهل البلاد الأصليين ، ويحدث في الاسلام حدثاً يتعارض مع روح الاسلام . . فيجعل منهم أصحاب قطائع ، وكبار مستغلين ؟!

بدأ الخلاف بعد فتح العراق وشاور عمر أصحابه ، وقد كان هذا هو شأنه دائمًا أن يشاوروا يناظر حتى تنكشف الغمة ويهتدي الجميع إلى الرأي الصواب ويعصم الاسلام من أن يخرق فيه أحد خرقاً . .

وكان من رأى عمر أن يوجه الأرض جميعاً للمنفعة العامة . . وأن تكون الأرض لمن يفلحها على أن يؤدي عنها ضرائب للدولة

توجه للاصلاح ولتأمين الدولة وثغورها والارتفاع بمستوى المعيشة ، ورأى عدد من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب ، رأى عمر . . ورأى آخرون وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عوف أن هذه الأرض غنائم ويجب أن يتبع في تقسيمها ما يتبع في تقسيم الغنائم أي أن يعطوا أربعة أخماسها . . وأغلظوا على عمر وأتهموه بالظلم ، وساءت أخلاقهم في هذا الأمر .

ولكن عمر خطب في الجند بعد ما اشتد الخلاف بين الصحابة : . . « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ، وأني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا ـ فوالله لو كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلّا الحق ـ لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شفيت ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أرضهم وأموالهم وعلومهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها ، وأضع فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين . . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ، ولا بد لها من رجال يلزمونها وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرض ؟!

فقال الناس جميعاً : « نعم ما قلت وما رأيت . إن لم تشحن

هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر » .

وهكذا قرر عمر إبقاء الأرض لمن يفلحها وفرض عليهم الضرائب (الخراج والجزية . .) آلت كلها لمصالح الدولة . . وقد بلغت جباية الكوفة وحدها مائة ألف ألف درهم وجهها عمر كما وجه جباية المدن الأخرى للنفع العام . .

وهكذا وضع عمر نوعاً جديداً من الملكية في ذلك العصر ، حماية لحقوق الأمة كلها وتحقيقاً لمصالح الجميع . . لا لفئة على حساب فئة أو لطبقة على حساب طبقة .

منطلق الانفتاح الفكري

التجربة أكبر دعائم العلم ، وقد تستغرق التجربة الواحدة عشرات السنين . ولقد مرت بأجدادنا تجربة من هذا القبيل عندما فهموا الرسالة على حقيقتها ، وأمنوا سلامتها وانفتحوا بأفكارهم [بعد انتصاراتهم] على حضارات الأغريق والروم والفرس والهند ، فقد منحهم الإسلام حرية الفكر وأطلق العقل من قيود الوثنية ، وحطم أغلال الفلسفة الأغريقية . . عندئذ صاروا هم قادة الأرض علمياً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً .

وآنئذ لم يكن المسلمون مجرد قنطرة عبرت عليها تلك

الحضارات العريقة إلى عصر العلم ، بل صححوا ما فيها من أخطاء وأضافوا إليها الشيء الكثير بدافع من دينهم ، وهذا هو بيت القصيد إذا كنا حقاً ممن يريدون الاستفادة من التجارب التي مرت بنا وبأجدادنا من قبل بدلاً من محاولة اختبار مناهج (أو مبادىء) غريبة عنا نستوردها ويستغرق التحقق من سلامتها عشرات السنين ، وقد قادت الغرب إلى أعقد أنواع . المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية . . !

ونحن نسوق فيما يلي أمثله واضحة جلية لبعض ما صنعه أجدادنا من ألوان العلوم والمعرفة بدافع من القرآن الكريم بعد انفتاحهم على حضارات غيرهم من الأمم ، فما بدلوا العقيدة ، وما غيروا الشعائر ، ولكنهم هضموا كل شيء داخل إطار النهج الاسلامي . ويوم أن نضب فكرهم وتوقفوا عن مسايرة الركب تخلفوا . وهذا هو السبب الرئيسي في تخلف المسلمين بعد تلك النهضة العظمى التي حققوها بقوة دفع القران . ومن هذا المنطلق يكون الاصلاح وأعني به منطلق الانفتاح الفكري على الحضارة الحديثة داخل إطار المنهج الاسلامي ، وما المنهج سوى الدين الذي في كنفه ازدهر العلم في العصور الوسطى .

الحساب

برع المسلمون في الحساب وجالوا وصالوا وعندما نزل القرآن الكريم كانت هناك عدة طرق للحساب والترقيم ، منها الترقيم

الروماني العقيم ، ومنها الحساب الستيني الذى لا يزال يستعمل في قياس الزمن حيث نقول أن الساعه ٦٠ دقيقة والدقيقة ٦٠ ثانية . . وكان هناك الحساب العشري وفيه تستعمل تسعة أرقام فقط هي الأرقام من ١ إلى ٩ . ويلاحظ أن للرقم الواحد قيماً مختلفة تبعاً للخانة التي يشغلها فالرقم ٥ في خانة العشرات هو ٥٠ وفي خانة الألوف هو ٥٠٠٠ وهلم جرا وقد أدخل المسلمون الصفر(زيرو) ليملأ الخانة الخالية من الأرقام ويدل عليها ، كما استخدموا الكسور العشرية وهي أكبر خطوة حقيقية أدت إلى تقدم علوم الرياضة ، وقد تمت كلها بإيحاء من كتاب الله العزيز الذي نبذ الحساب الستيني وأخذ بالحساب العشري . أنظر مثلاً إلى قوله تعالى :

١ ـ (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) .

٢ ـ (في كل سنبلة مائلة حبة) .

٣ ـ (أن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وأن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا) .

٤ ـ (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما أتيناهم) .

٥ ـ (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) .

ولعل هذه الآية الأخيرة مما يقرر مبدأ حساب النسبة المئوية حيث أن المجموع مائة !

والأرقام التي يستعملها الأوروبيون اليوم هي في الواقع أرقام عربية في الأصل وتسمى (أفرنجية) عن طريق الخطأ ، وقد انتقلت إليهم عن طريق أسبانيا !! ولولا ضيق المقام لشرحنا ذلك بالتفصيل .

والمسلمون هم الذين ابتدعوا علم الجبر على يد أمثال الخوارزمي ، ووضعوا أساس حساب (اللوغاريتمات) وأصل هذه الكلمة (الخوارزمي) ترجمها الأوروبيون إلى (لوجارزم) ثم عدنا نحن فنقلناها بإسم اللوغاريتم . في هذا العصر ! وعندما دخل علم الجبر إلى أوروبا كان بمثابة الطلاسم ! .

الفلك

كان من الطبيعي أن يهتم المسلمون بعلم الفلك ، بتوجيه من القرآن الكريم مثل قوله تعالى :

١ ـ (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) .

٢ ـ (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

٣ ـ (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) .

وكان على علماء الفلك حساب الجداول الخاصة بأوقات الصلاة من ارتفاع الشمس نهاراً . والنجوم ليلاً في أي مكان ، وتحديد أوائل الشهور ونحوها . . وهكذا أنشأوا العديد من المراصد في مختلف العواصم . ولا تزال بصمات أصابعهم بادية على قبة السماء ممثلة بأسماء النجوم العربية مثل آخر النهر (أشـرنار) والـذنب (دنب) والجوزاء (بتلجـوز) والثور (تاورس) . .

ومن أوائل علماء الفلك المسلمين ثابت بن قره والبيروني ، وقد كلفهما المأمون بقياس محيط الأرض فعمد ثابت بن قرة إلى قياس المسافة بين كل خطين من خطوط العرض . وكان يقيس خط العرض في أي مكان بميل النجم القطبي فيه . أما البيروني فقد ابتكر طريقة فلكية لا تزال تعرف بإسم (طريقة البيروني) وهي تتلخص في قياس زاوية انحطاط الأفق من على جبل مرتفع يطل على مساحة منبسطة من الأرض .

وانتقلت تلك القياسات الدقيقة إلى أسبانيا والبرتغال ، وعرف المستكشفون من أمثال كولمبس وماجلان أن الأرض كروية وأن قطرها لا يتعدى نحو ٨ آلاف ميل ، وأنهم لذلك يستطيعون الدوران حولها ، إلاّ أن الفضل الأكبر والأساس العلمي في عمل تلك الأسفار انهما يكمنان وراء قياسات علماء الفلك المسلمين ! !

وأعجب من ذلك في هذا المجال أن الفضل الأكبر فيما خرج به

الفلكي العالمي كبرنيق على الناس منذ نحو ٣٠٠ سنة من أن الأرض ليست هي مركز الكون ولكن الشمس هي التي تحتل بؤرة المجموعة الشمسية ، وبذلك غير أفكار البشر ، التي سايرت فلسفة أرسطو أكثر من ألف سنة ، نقول أن الفضل إنما يرجع إلى جداول فلكية خاصة بالفلك الكروي الحديث حسبها نجم الدين المصري قبل ذلك بنحو ٤٠٠ سنة . وقد وجد أن جداول كبرنيق هي ذاتها جداول ذلك الفلكي المصري الذي لا يعرف أغلبنا عنه شيئاً !!

لقد كنا ننقل تراثنا عن المستشرقين !! وقد آن الأوان لنعرف تاريخ أجدادنا العلمي المجيد بأنفسنا ، كما آن الأوان لنعيد (بمنطلق الانفتاح) العلم إلى أحضان أمة الإيمان كما كان في الأصل وفي ذلك خير البشرية جمعاء ، والرسول الكريم يقول :

(الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة) .

والله أعلم . .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

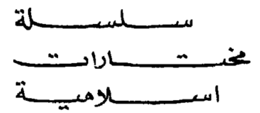
سلسلة مختارات اسلامية

١ - أبو بكر الصديق
٢ - عمر بن الخطاب
٣ - عثمان بن عفان
٤ - علي بن أبي طالب
٥ - رمضانيات (١)
٦ - القابس في البال
٧ - الجيش في الإسلام
٨ - أعياد وتواريخ إسلامية
٩ - أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ - أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ - أدعية وابتهالات
١٢ - كلمات ومواقف خالدة
١٣ - تأملات في الإسلام
١٤ - رمضانيات (٢)
١٥ - معارك إسلامية (١)
١٦ - معارك إسلامية (٢)
١٧ - أحاديث رمضانية
١٨ - قصص إسلامية (١)
١٩ - قصص إسلامية (٢)
٢٠ - الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ - الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ - من قاموس الصائم
٢٥ - من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ - من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ - من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ - ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ - ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ - ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
اسلامية

أَحَادِيث إِسْلَامِيَّة
فِي الأَخْلَاقِ وَالآدَاب

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، واللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »

صدق الله العظيم

أحاديث إسلامية

في الأخلاق والآداب

(وصية نبي كريم)

حكمة الأطباء تعالج بها الأبدان ، وحكمة الأنبياء والحكماء تعالج بها النفوس . والطبيب خبير بأنواع العلل وأعراض الأمراض ، وكلٍّ ما يمت إلى ذلك بسبب . والنبي والحكيم ، خبير كل منهما بعلل النفوس وأدوائها ، وبصير بما يشقيها ويسعدها ، ويصلحها ويفسدها ، فهو يصف لها من الأدوية النفسية ، والأخلاق الكريمة الرضية ، كما يصف الطبيب للعليل ، مختلف العقاقير والأدوية ، وعدد مرات استعمالها ، وعدد قطراتها وحباتها . وكما أن العليل لا تنفعه معرفته بحذق طبيبه ، وأنه نطاسي بارع ، وأن من عالجه شفاه وأبرأه ، ولا تنفعه كذلك معرفته بنوع العلاج وعدد مراته

في يومه وليله ، وعدد حباته إن كان جامدا ، وقطراته إن كان مائعاً . وإنما الذي ينفعه ويفيده هو أن يعرف هذا جيداً ، ثم يعمل بدقة على تناول الدواء كما أمر الطبيب ، وبالمقادير التي أمر بها ، وفي المواقيت التي عينها ، ـ كذلك حكمة النبي ونصيحة الحكيم المصلح ، لا تفيد منها إلاّ إذا أخذت نفسك بمعرفتها ، وبالعمل بها في حدودها التي حدها ، وفي أوقاتها التي عينها . وبذلك ، وبه وحده ، تؤتى الحكمة ثمرتها ، وينتفع بها .

وحكم النبيين والمصلحين ، تملأ الأقطار ، وهي في متناول الناس ، تفيض بها أسفارهم ، وتنطق بها آثارهم ، وهي خالدة باقية ، والنفع بها كذلك خالد باقٍ . ولكن نوازع النفوس ، وخوالج الأهواء ، قد تصدف النفس وتلوي عنانها إلى أهوائها ومشتهياتها ، فكان لزاماً ، أن تُهَزَّ إلى الخير ، وتذكر به ، بين الحين والحين . فإنما مثل النفس كمثل النصل ، إن شحذته وأرهفته كان حديداً ماضياً ، وإن تركته وأهملته صار كلاً كهاماً .

ومن الحكم الخالدة ، التي نذكر بها ، ونقف الناس عليها ، إبتغاء قمع الهوى وكبح جماح النفس ، هذه الوصية الحكيمة ، التي نرجو من كل من سمعها أن يعيها ، وأن يأخذ نفسه بالعمل بها ، لأنها من أسباب الفوز والخير ، ومن صفات

المؤمنين الذين يستمعون القول ، فينتقون أحسنه . وهي لِمُصْلِحِنا العظيم ونبيِّنا الكريم ، محمد بن عبد الله ، عليه صلوات الله .

وكان من قصتها ، أن رجلاً صحبه ، وسار بسيرته ، وعمل بعمله ، وشهد صلاته وعبادته ، وخيراته ومبرّاته . كل ذلك شهده مع الرسول ، وعمله مثل ما عمله الرسول ، وهو يرجو من الله جلّ وعلا ، ما يرجو الرسول . يرجو لعمله النَّجْحَ والقبول . ثم يعرض للرجل سفر طويل . وكما يَعْمِدُ المسافر لأخذ زاده ، يَتَبَلَّغُ به في سفره ، كذلك هو يعمد إلى من كان يبصره الهدى ؛ وينير له السبيل . يعمد إليه ، فيأخذ عنه ما يرشده ويسدده . يأتي الرسول فيقول : يا رسول الله ! إني راحل إلى بلد كذا ، ولا أدري ما ألقى ، وما سيكون لي ، فأوْصِني وصيةً ، يكون لي منها نور ورشد . فيدعو له الرسول ربه ، أن يحفظه ويهوِّن عليه سفره ، ويقيه وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب ، ثم يقول له : يا هذا اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

هذه الكلمات الطيبة ، التي تضمنها قلب النبي الكريم ، وانطلقت بها شفتاه ، قد استفاد منها في وقتها ذلك الرجل ، الذي كان رسول الله قد أوصاه ، ولا يزال يستفيد منها كل من

سمعها ووعاها ، واتَّبع سبيلها ، فكانت كما قال الله (كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حين بإذْنِ رَبِّها) . فالشجرة الطيبة ، لا يزال يستفيد الناس منها فينالون ثمرها ، وينعمون بهوائها وظلها . وها نحن نقف المستمع الكريم ، على هذه الوصية الجليلة ، ففيها للذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فضل كبير وخير كثير .

جمعت هذه الوصية الكريمة أموراً ثلاثة ، بل انتظم في عقد هذا القول النبوي العظيم ، جواهر ثلاث ، الأولى وهي أجَلُّها وأفضلُها ، أن تتقي الله ربك ، الذي خلقك فسوَّاك فعدَّلك ، تفعل ذلك في كل ما تأتي وتذر ، وحيثما كنت في بَرٍّ أو بحر ، وفي بَدْوٍ أو حضر ، وكيفما كنت في رغد وسعة ، وعيشة طيبة رافهة ، أو في ضيق وشدة وعسر وضر . فذلك أيها الإنسان من تمام سعادتك ، فأنت من لُبِّك وقلبك ، وبين نفسك وشهواتك ، في أمر مريج . فشهوتك لمباهج الحياة يقظى ، وهواك في أن تنعم وتنغمس في ملاذِّها قوي شديد ، ولُبُّك وقلبك يحرسان وينظمان ، ولكن قد يضعفان أمام نوازِع الهوى وعواطف النفس ، فلا يستكمل وجودك سعادته ، ولا نفسك علاها وسؤددها ، وراحتها وسكونها ، حتى تجعل على نفسك رقيباً ، وعلى أعمالك حسيباً . ولست بمستطيع أن تجعل بين جنبيك حارساً ، يقوّم أوَدَكَ ، ويقفك حيث الخير والفضيلة والبرّ . ولكنك إذا ذكرت في عملك ربك الذي خلقك وأحسن

إليك ، وبَصَّرك وهداك ، ـ إذا فعلت ذلك وملأْتَ به صدرك ، وجدت في نفسك نوراً يسلك بك الجَدَد ـ (ومن سَلَكَ الجَدَد بالبِرّ أمن العِثار) ـ ويدعوك إلى الهدى ويَدْرَأُ عنك الأذى . فالله بَرٌّ ، يأمر بالبِرّ في كل أمر ، ويكره منك الشَّرَّ والضرر . وهو الذي يجعل لك من كل ضيق فَرَجاً ، ومن كل هَمٍّ مخرجاً .

إن ذكرك ربك يُطَمئِنُ قلبك ، ويهدي نفسك ، ويجعل فيها ثقة كبيرة ، وصبراً عظيماً على النُّوَب والأحداث . وهذا سبيل جليل لتخفيف أعباء الحيـاة ، وتسهيل خـطوبها وتيسيـر شُؤُونها . وليس ذكر الرب ، أن تعقد على الحب مئات التسبيحات ، أو ألوف الكلمات ، بل ذلك تذكُّرُهُ في كل عمل تأتيه أو تذره . فذكر التاجر ربه ، أن يتذكره في عمله ومعاملته ، فيصدق الناس ولا يغشّهم ، وإذا كالهم أو وزنهم ، وفَّاهم حقهم ، ولم يَبْخَسْهم شيئاً . وذِكْرُ العامل رَبَّهُ ، أن يُحْسِنَ عمله ، ويُجَوِّده ، كأنه ربُّ العمل ، وصاحبه يراه ويشهده . . وهكذا كل عمل من أعمال الحياة . إذا ذكرت فيه الله ، حَفَزَك ذلك على أن تُتِمَّهُ وتحسنه وتجوده .

إن الاعتقاد بالرب تعالى ، هو الفِطْرَةُ التي فُطِرَ الناس عليها . وهو سبب في عمران النفس وفَيْضها بالخير والبر . فالنفس المؤمنة بربها ، لا ترى جروحاً إلاّ ضَمَدَتْها ، ولا أكباداً

ظامئة إلّا رَوَّتْها ، ولا فتنة مشتعلة إلّا كانت عليها ، حتى تخمد جمرتها ، وتطفىء جَذْوَتَها . ثم هي لا تحاول أن تغمس يدها في شر أو نكر ، ولا أن تتمضمض بسفهٍ ولا هجر ، بل تحب الخير وتفعل البر . هذه هي النفس الفاضلة . أما النفس التي قيل فيها (قول كالرُّطَب وفعل كالحطب) أو (قول كالعسل وفعل كالأسَل) ـ فليست هي بالنفس التقية المؤمنة ، وإن أدَّعَت التقوى والإيمان ، وحلفت على ذلك الإيمان .

ولنأت الآن إلى الوصية الثانية ، لنفصّلها ونكشف عنها أيضاً . وهي وصية كريمة مثل أختها . لها الفضل الكبير والأثر الجليل ، فيما يصلح النفس وينقّيها . . يقولون أن النفس الانسانية ، كالمرآة الصافية النقية ، تتراءى فيها الأخلاق والفضائل ، كما تتراءى في المرآة أشخاص الأشياء . وإنَّ عمل السوء كالظلمة تَغْشَى النفس ، فتغطّي منها بقدرها ، فإن أتبعت السيئة الحسنة ، كشفت عن نفسك هذه الظلمة ، وأبقيت على نفسك صفاءها وإشراقها . وإن تركت السيئة تتبع السيئة ، تتابعت على النفس الظلمة ، وغدت لا تبصر ضياء الحق ونور الخير . ثم أن السوء ، إذ يفعله المرء أول ما يفعله ، قد يجد طعمه مريراً ، فإذا عاوده ولم ينْقَ منه ، استحلاه وربما تأصَّل في نفسه ، وكان خلوصه منه عَسِراً وشاقّاً . . أصاب رجل من أصحاب رسول الله ذنباً ، وجاء تائباً يقول : يا رسول الله ! أصبتُ ذنباً ، وكأني أحمل في يدي

جبلاً . . أترى أيها المستمع الكريم ، لو عاود السوء الذي أصابه ، ولم يعقبه الندم والتوبة ، أما كان يصغر هذا الجبل الذي يراه ، حتى يصير تلًا ، أو كومة ، ثم لا يصير شيئاً ؟ . . هذا والسيئة كالسوء الذي تؤذي به نفسك ، فإن اتبعتها الحسنة ، وتقدمت إلى أخيك فتحلَّلْتَ منها ، وطلبت عفوه ، استللت من نفسه غيظها ، وكشفت عنها سخطها وحنقها ، ورضي عنك ، وصفح وعفا .

(الأُخوَّة الانسانية)

يَرتبط الإنسان بالانسان ، منذ نشأ في هذا الكون ، وأنْبَثَّ في الوجود . وشاء الله أن يعهد إليه في عمارة الأرض ، الانتفاع بما فيها . ووهبه التمييز ، فانتشر في الأرض ، وانطلق في جنباتها ، وانبعث يتعرَّف موادَّها ، ويعلم خبأها . فشقَّها واستخرج كنوزها ، واعتصر موادها ، فَدَرَّتْ عليه أخلافها ، وآتَتْهُ أُكلَها ، وانقلب من وراء ذلك في خفض من العيش وسعة ، وغدت هذه الحياة لنفسه حلوة محببة ، فصار ينازع فيها غيره ويدفع عنها سواه . ويلغ به حبه لذلك ، وإمتاعه نفسه وهواه ، أن صار يدافع عنها ، حتى أباه وأخاه ، ونشأ ما يسمى تنازع البقاء . . وكان أن بعث الله الأنبياء مبشّرين ومنذرين ، فبذلوا جهوداً مشكورة في سبيل سعادة الإنسان . وكان من أهم

ما دعوا إليه ، وبذلوا الجهود في سبيله (الأُخوَّة الانسانية) التي تتمثل واضحة جلية ، في أقوالهم وأحوالهم وآثارهم . .
وها نحن في حديثنا هذا ، نجلوا للمستمع الكريم ، شيئاً مما يتعلق بهذه المسألة الانسانية من العهد الاسلامي الأول ، وهو أقرب العهود إلينا ، ولعله من أوضحها في هذا آثاراً ، وأكثرها أخباراً .

بُعث محمد عليه السلام في أُمَّةٍ ، كانت الفرقة فيها متجلية بأوضح معانيها ، فلا كلمة تجمع أبناءها ، ولا ملك يسوسهم ، ولا قانون يرعى حقوقهم ، أو يُبقي على أموالهم وأنفسهم . بل كانوا والأمم الأخرى تتخطفهم ، ومن ملكهم سامهم الخَسْف وسوء العذاب ، فكانوا من ذلك في حياة شقية وعيشة ضنك . وماذا تأمل من قوم ، ليس بينهم كلمة مجموعة ، وليست لهم راية مرفوعة ، يسطو بعضهم على بعضٍ ، في جُنْح الليل وفي وضح النهار ، ولا يجد أحدهم حرجاً ، أن يغزو حتى أخاه ، كما قال قائلهم :

وأحياناً على بكرٍ أخينا إذا لم نَجِدْ إلاَّ أخانا

ولا يخفي ما تورثه هذه الفَوْضى من الشقاق والانقسام ، فكانت حكمة الرب الجليل ، أن بعث فيهم رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويُزَكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فجمعِ شملهم ووحَّد كلمتهم . ومن قوله تعالى في هذا : « لو أنفقت

ما في الأرض جميعاً ما ألَّفْتَ بين قلوبهم ، ولكنَّ الله ألَّف بينهم » . وهذا يشهد بصدق ما قدمناه من القول عن فُرْقَة القوم ، كما يشهد بفضل تلك الدعوة الرشيدة ، التي كانت سبباً في جمع شتات القوم ، وإصلاح نفوسهم ، وتنظيم شؤونهم ، وضبط حقوقهم وأموالهم وأنفسهم .

كان مَن أهَمّ هذه التعاليم الرشيدة ، التي جاء بها هذا الدين الحنيف ، كما ذكرنا ، تقرير الأُخُوّة الانسانية بأوسع وأوضح مما جاءت به الشرائع الأخرى . فالله في الكتاب يقول : (يا أيُّها الناسُ إنّا خَلَقْناكُم من ذَكَرٍ وأنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائلَ لِتَعارَفُوا) أي ليتعرَّف بعضكم بعضاً ، فترعون حقوق ذات بَيْنِكُم ، وتتقون ما يقطع صِلاتكم وَقُرُباتكم . ومحمد عليه السلام ، حامل هذه الدعوة ، يقول : (المرءُ أخو المرءِ أحَبَّ أم كَرِهَ) . ويقول : (الناسُ من آدَم وآدَمُ من تراب) ـ أي فكلكم أيها الناس ، أبناءُ رجل واحد ، فلا تَكَبَّروا ولا تَجبَّروا ، فبينكم أُخُوّةٌ ورابطة قوية . ويقول : (لا تَباغَضوا ولا تَحاسَدُوا ولا تَدَابَروا وكونوا عِبادَ الله اخواناً) .

ويقول : (أحِبَّ للناس ما تُحِبُّ لنفسك) . وهذه أمور إذا تبادلها الناس ، اتصلت نفوسهم بعضها ببعض ، اتصالاً كريماً ، وجَنَوْا من ورائها خيراً كثيراً وفضلاً كبيراً . ويقول : (خَيْرُ الناس أنْفَعُهُم للناس . وأفْضَلُ الإسلام إفْشاء

السلام) . وهذه أمور أيضاً إذا انتشرت بين الناس ، غرست في نفوسهم الوُدَّ ، ونشرت بينهم الوئام والسلام . وذلك هو عَوْنُ الانسان لأخيه الانسان ، وهو من أكبر ما يَرْبِطُهُ به ، ويصلُ حبله بحبله ، والتحيات تزرع بين الناس الصِّلات .

كيف أصبحتَ كيف أمْسَيْتَ مِمَّا
يزرع الوُدَّ في قلوب الرجالِ

هؤلاء المهاجرون من أهل مكة ، تضيق عليهم شِعابُها ورِحابُها ، لأنهم اتَّبعوا الحق ، فطاردهم أهلها حتى اضطرُّوهم إلى النُّزوح عنها ، فَنَزَحُوا إلى يَثْرِب ، وكان قد دخل في بعض بيوتها نورُ هذا الحق ، ونَزَحَ من بعدُ إليها حامِلُ هذا النور ، محمد عليه السلام ، فألْفَى هؤلاء النازحين عن بلدهم وأرضهم وأموالهم ، في حالة شِدَّة وضيق ، فَوَجَّهَ إلى هذا عنايته ، وعَقَدَ بينهم وبين اخوانهم من أهل يثرب ، هذه الأُخوَّةَ الانسانية الكريمة ، فصار المَكِّيُّ واليَثْرِبِيُّ أخَوَيْن في كل شيء ، يعملان مشتركَيْن في الحقول والمتاجر ، ويعيشان مشتركَيْن في الأطعمة والأشربة والمنازل .

عُنِيَ الاسلام بِبَثّ هذه الروح ونشرِها ، وبالغ في رفع شأنها وتقديرها حقَّ قدرها . وكان من نتيجة ذلك ، ان اتَّصَلَ الناس بعضهم ببعض اتصالاً وثيقاً ، ونشأ بينهم ما يسمى (الإِيْثار) وهو تقديم المر) وهو تقديم المرء أخاه على نفسه . وقد ذكره

الله من أخلاق المُصْطَفَيْن الأخيار في مثل قوله : (ويُؤْثِرون على أنْفُسِهِم ولَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) . وهو يُعَبِّر بحق عن الايمان الصادق ، الذي أثَّرتْهُ الدَّعْوَة الاسلامية الكريمة في أنفس الناس ، حتى صار بعضهم يصطنع كل أسْلوب وكل طريقة ، لكشف الأذى عن الناس وتَفْريجه . ومن ذلك ما جاء في سِيرة عُثمان بن عَفَّان رضي الله عنه ، من أن رجلاً احتكر بئراً ، وكان يبيع الناسَ الماء ويُغلي ثمنه . وعلمبذلكعثمان ، فجاءه وطلب أن يبيعه البئر ، وهو يَقْصِدُ رضي الله عنه ، أن يُيَسِّر الماء على الناس ، ولا سيما الضعفاء الذين لا يجدون ما يُنْفِقُون . فأبى الرجل . وعاوَدَهُ عثمان ، فأصَرَّ على إبائه . فجاءه أخيراً وطلب أن يبيعه نصف البئر ، ودَفع إليه في ذلك مالاً كثيراً . فرضي . ثم اتفقا على أن يبيع كلٌّ من الشريكين من حصته يوماً على التَّعاقُب . فكان الناس في يوم (عثمان) يَرِدون الماء ، وأكثرُهم يَسْتَقي على نفقة عثمان ، فكانوا لذلك يَمْلأون من الأوْعية ما يُغنيهم عن ورود الماء في يوم الشريك الآخر . . وهكذا قلَّ ورود الناس للبئر في يومه ، فلم يَرَ أخيراً إلَّا أن باع النصف الثاني من البئر لعثمان ، ورَوِيَ الناس ، وتخلصوا من شطط الرجل وَعَنَتِهِ .

هذا بعض ما فعله هذا الرجل الكريم العظيم ، من الرِّفْقِ بالناس والحَدَب عليهم . . وإنَّ مَثَلَ الانسان ، الذي بحق يسمى إنساناً ، مَثَلُ الشجرة الطيبة التي لا تمنع أحداً جَناها ،

ولا تمنع أحداً ظِلَّها ، ولكل عابر سبيل أن يلجأ إليها في وَقْدَة الحَرّ وشِدَّة القَيْظ ، فَتَحْنو بأغصانها وأفنانها عليه ، وتبعث بالنسيم اللطيف المُنْعِش إليه .

ولا يَفُوتني أن أختم حديثي الليلة ، بالقصة التالية ، لِما لها من المساس بحالتنا الحاضرة ، وهي مما اتفق لعثمان أيضاً . فقد وَفَدَتْ قافلة له ، ونزلت المدينة ، والناس في جَدْب وشِدَّة ، وقد غَلَت الأقوات واشتد الجوع . وفي المدينة فريق من التجار ، لَبِسُوا جُلود البشر ، وفي صدورهم قلوبُ الثعالب والذّئاب . وقد هرعوا إلى عثمان ، يريدون شراء الأقوات التي جاءت بها القافلة ، لا ليفيضوها على الناس ، وَيُسدُّوا بها حاجتهم وعَوَزَهم ، بل لِيَقْبِضُوها عنهم ويحتبسوها ، لينالوا من بيعها بعد ذلك الأرباحَ الطائلة . . وعرف عثمان رضي الله عنه ما يُضمرون ، فقال لهم : وكم تُرابحوني عليها ؟ . . فأخذوا يذكرون له المبالغ التي يدفعونها ، ويتبارَوْن في ذلك ، وهو يقول لهم : قد أكسَبَني غيرُكم أكثر منكم . فيقولون : نحن مَن تعرف من تجار المدينة ، ونحن أغناهم وأثْراهم ، فمن الذي أكسبك ؟ فقال : قد أكسبني مَن أحدثكم عنه عشرة أضعاف ما دفعتُ ، فمن منكم يزيد ؟ قالوا : لا أحد ، فمن هو هذا ؟ فقال : ربُّكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وآتاكم من فضله ، وفضلكم بالمال على كثير من خلقه . . فجئتم تريدون أن تزيدوا الناس شِدَّةً وعُسْراً ، على ما هم فيه من الشدة

والعسر ، وبئس ما تفعلون . . وصَرَفهم عثمان رضي الله عنه ، ثم فَرَّق الأقوات في الناس ، فَفَرَّجَ كُرْبَتَهُم وكشف الضّيق عنهم .

(الخلق الحسن)

جاء في حكمة الأوَّلين : « مَن لانَتْ كلمتُهُ وَجَبَتْ محبتُهُ ، ومَن عَذُب لسانه كثر إخوانه » . فعذوبة القول وحسن الخُلُق ، كعذوبة الماء ونقائه . والناس يَهِشُّون للخلق الحسن والقول الحسن ، كما يهشون للماء العذب . . إن الخلق الحسن يجعل صاحبه إلى النفوس حبيباً وإلى القلوب قريباً . وهو خير عضد وساعد ، لكل ما ينشر الذكر ، ويُعلي القَدْر ، ويُسعد المرء ويُغنيه ، وكثيراً ما يدرأ عنه الشرّ ، ويحفظه منه ويقيه ويحميه . فالرفيع إذا بَسَطَ للناس وجهه ، وألانَ لهم قوله ، حَبَّبهم إليه وجمعهم حوله . وإذا كان فوق ذلك ، سَبْطَ الكفّ ، نَفَّاح اليد ، خَيّراً ، نافعاً ، أفرغ الناس أيديهم في يده ، وكانوا عوناً له في الحياة ، وسواعد قوية ، تدفع عنه الخُطوب والمُلِمَّات . . قالوا : المرءُ أسيرُ الاحسان . وليس الاحسان الذي يَعنونه ، مقصوراً على أن تَسُدَّ جَوْعَة الجائع ، أو تكسو العُرْيان ، وإنما هو أيضاً ، أن تلين لأخيك الانسان ، وتحبه وتتحبب إليه . . ولا شك أنَّ الناس ، إذا تلاينوا

تحابُّوا ، ونما بينهم الخير ، ودَرَّتْ عليهم الأرزاق وتهيأت نفوسهم لأحاسن الأخلاق ، وهم في جملتهم كما قال الشاعر :

فـإنَّـمـا الـنـاسُ مـن زُجـاجٍ
إنْ لـم تَـرَفَّـقْ بـه تَـكَـسَّـرْ

فرفقك بأخيك ، يطيب من نفسه ، ويحسن من خلقه ، ويعلمه الرفق والاناة ، وهما خَلَّتان وخلقان رضيان ، فيهما للمتخلق بهما وللناس خير كثير ، وأكثر ما يكسبهما الانسان من الانسان . فلن تجد في الناس أمرأً حسن الخلق لين العريكة ، إلاَّ وجدته حظيّاً عند الناس ، ولا تراه يجلس مجلساً إلاَّ كان فيه محترماً مَوْموقاً .

كلُّ خلق من الأخلاق الفاضلة ، لا يبلغ كماله إلاَّ في الذين رجحت أحلامهم ، وكبرت نفوسهم ، ورحبت صدورهم ، وصاروا قدوة يُهتَدى بهم ويستضاء بنورهم ، وساروا وراء المَثَل الأعلى لكل ذلك ، وهو سيدُنا مصلح الأمة العربية العظيم ، محمد عليه السلام . فهو أحسن الناس خُلُقاً ، وأصدق الناس لهجة ، وأَلْيَنُ الناس عريكةً ، وأكرم الناس عشرة ، وأسخى الناس كَفّاً ، وأطيب الناس نفساً . وقد حملت إلينا شريعته وسيرته ، من هذا الخلق الذي نحن في سبيله ، آثاراً كثاراً ، كلها أمثلة كريمة ودروس عظيمة ، يجدُرُ بكل إنسان أن يأنس

بها ، ويسير على غرارها ومثالها . وها أننا نَعْرِض على المستمع الكريم ، طائفة مما جاء في الكتاب ، من الآيات في الخلق الحسن ، والحثّ عليه ، وفيها العظة والذكرى لأولي الألباب .

جاء في قصة موسى وهارون مع عزيز مصر فرعون ، حين أرسلهما الله لدعوته إلى الحق والهدى : (إذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ . إنَّهُ طَغَى . فَقُولا له قَوْلاً لَيِّناً لعله يتذكر أو يخشى) . وفي ذلك قوله تعالى لموسى : (إذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ . إنَّه طَغى . فَقُلْ هَلْ لك إلى أنْ تَزَكَّى وَأهدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى) . وفي دعوة النّاس إلى هذا الخلق بعضهم إلى بعض : (وَقُلْ لِعبادي يَقُولُوا التي هِيَ أحْسَنُ . إنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بينهم) . وفيه : (وَتَعَاونـوا على البـرِّ والتقـوى ولا تَعَـاوَنـوا على الإثم والعُدْوان) . وفيه أيضاً : (وَقُولُوا للنَّاس حُسْناً) . وفي برِّ الوالِدَيْن : (وَقُلْ لهما قولاً كريماً . وَآخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمة . وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كما رَبَّياني صَغيراً) . وفي محمد عليه السلام : (وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّوا من حَوْلِك) .

هذا بعض ما جاء في آي القرآن ، وهو الذخيرة الكبيرة لكل إنسان ، والمَوْرِد العَذْب السائغ لكل وافد ووارد وراغب وطالب ، في مختلف الأمور وشتى الشؤون . وها اننا نشفع

هذه الآيات ، بشيء مما حملته لنا السيرة المطهرة عن محمد في خلقه العظيم . فقد كان عليه السلام ، لا يتلقى الأمور إلاّ بيسر وسهولة ، ثم يعالجها برفق ولين . ومما جاء من الأمثلة على ذلك ، إن رجلاً دخل المسجد والناس يُصَلُّون ، فلما فرغوا من صلاتهم ، أَلْفَوْهُ في ناحية من المسجد لم يُصَلِّ ، فكادوا يُوقعون به ، لتركه الصلاة وراء الرسول . فذُعر الرجل وارتعد . ورأى ذلك الرسولُ فدعاه ، فجاء وفرائصه ترتعد . فقال له عليه السلام : خَفِّض عليك ، إنما أنا إبن أمرأة من قُرَيْش ، كانت تأكل القَدِيد . . ولكن أخبرنا ، لِمَ قَصَدْتَ عن الصلاة ؟ فقال الرجل : يا رسول الله صليتُ في رَحْلي ، ثم أتيت . . فما زاد رسول الله على أن قال له : يا هذا ، إذا أتيتَ مسجد جماعةٍ ، فَصَلِّها معهم ، فإنها لك نافِلَة . . ورُفع إليه رجل تكلم في صلاته ، وكاد القوم يُوقعون به أيضاً ، فقال لهم الرسول : أرسلوه . ثم نَصَحَ له علَّمه، فرجع الرجل إلى قومه ، يُحدّثهم حديثه ، ويقصُّ عليهم قصته ، ويقول عن محمد عليه السلام : بأبي هو وأمّي ، واللهِ ما نَهَرَني ولا حَقَرني ولا سَبَّني ولا شتمني ، ولكن قال لي ، إنها الصلاة ، ولا يَصْلُحُ فيها شيء من كلام الناس .

ويخرج عليه السلام ، وبرفقته رجلان ، يريدون النُّزْهَةَ . ويجيء وقت طعامهم ، فيعمدون إلى شاةٍ أعَدُّوها لذلك ، فيقول أحدُهم : عليَّ ذَبْحُ الشاة ، ويقول الآخر : وعليَّ

سَلْخُها . فيقول النبي عليه السلام : وعليَّ جَمْعُ الحطب . فيقولان : نحن نَكفيك ذلك يا رسول الله . فيقول : قد علمتُ ، ولكن لا أُحِبُّ أن أتَمَيز عنكما . ويتركهما عليه السلام يُصلحان الشاة ، ويقوم فيجمع الحطب . ثم يَشُبُّون النارَ ويُصلِحون الشاةَ . . هذه نفس رضية كريمة ، وذلك خُلُقٌ حسن عظيم .

ويتمثل خُلُقُهُ عليه السلام في أفضل وأمثل من ذلك ، ـ يتمثل في هذه القصة المُمْتِعَة : يَصحَبُ جابرُ بن عبد الله رسولَ الله في غَزاةٍ . وفي طريقهما وهما قافلان إلى المدينة ، يرى محمد عليه السلام بعير جابر كلَّ وأعيا عن اللحاق بالقافلة ، فيجمع على نفس جابر كَلالَها ونَصَبُها ، وكلالُ بعيرهِ وإعْياؤُهُ . وفوق هذا كله ، هو يُفَكِّر وهو قافل إلى المدينة ، وله فيها تِسْعُ بنات ، تُوُفِّيَتْ عنهنَّ أُمُّهُنَّ وهن صغيرات ، وتزوج أمرأةً كانت تقوم بأمرهنَّ وتُصلح من شَأنِهِنَّ . فهو أيضاً يفكر فيهنَّ جميعهنَّ . . ويجول في نفسه هذا الحديث : ها أنا أعودُ إلى منزلٍ عارٍ ، إلَّا من الأولاد ، ولعلهم جائعو الأكباد ، وفي حاجة وجَهْد . . كل هذا كان يَعْتَلِجُ في نفس جابر ، ومحمد النبيُّ الألمعيُّ يتلو في وجهه كل هذا ، فَيَعْمِدُ عليه السلام ببعيره نحو جابر يريد أن يُهَوِّنَ عليه سفره ، ويكشف عن نفسه هذا الضيق وهذه الغُمَّة . . ويجعل الرسول يحادث جابراً حديثاً حُلْواً مُسَلِّياً ، فَيُسَرِّي عن نفس

جابر . ثم يقول له الرسول بعد حديث : يا جابر ، أتبيعني هذا البعير ؟ . وجابر يعلم أن بعيره غير صالح ، فيقول : يا رسول الله ، إن لك خيراً منه . فيقول : إلّا هو . فبكم تبيعه ، ولك ظَهْرُهُ إلى المدينة ؟ فيرى جابر من رسول الله الجِدَّ ، وتشيع في نفسه مَسَرَّة . فهو يقول في نفسه ، إن ابتاعه محمد عليه السلام ، كان لي في ذلك سَعَةٌ ، وكَسَوْتُ بناتي ، وأصْلَحْتُ من شأنهنَّ ، وهُنَّ الآن يَرْقُبنَ مجيئي وينتظرن وفودي ، وما أحمل لهن مما يُفَرِّحُهُنَّ شيئاً . . ويعاوده الرسول . فيقول له جابر : هو لك يا رسول الله بغير ثمن . ويأبى الرسول إلّا أن يُسَمِّيَ الثمن . ويَتَراضَيان على أوقِيَّتَيْ ذَهَبٍ . . وتَقْدَمُ القافلة إلى المدينة ، ويبدأ رسول الله كعادته ، إذ يقدم من سفر ، يبدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثم ينادي غلاماً له فيقول : هذا جابر بن عبد الله ، له أوقيتا ذهب ، فانطلق ، فَزِنْ له ذلك وارجع . فيذهب الغلام ويرجع وهو يحمل الذهب . فيأخذه جابر وينصرف ، وهو مغتبط مبتهج تطفح نفسه بالسرور . . انه سيحمل الآن إلى بناته وأهله طعاماً وكسوةً وهدايا ، وسينقلب منزله بذلك إلى سرور ومَرَح . . وما هو إلّا أن مَشي قليلاً ، حتى تبعه الغلام ، وهو يقول له : أجِبْ رسول الله . فيغتمُّ جابر ويقول في نفسه : لعل محمداً قد رجع عن شراء البعير . . ولكن النبي عليه السلام يقول له : يا جابر خذ جملك ، ولك ما أخذتَ ، إنما كنتُ لك مُسَلّياً ومعك مازحاً .

فيرجع إلى جابر سرورُهُ وابتهاجه ، وينقلب بالذهب والبعير ، فيُصْلِح من شأن بناته . . ويكون سرورُهنَّ عظيماً .

آدَابِ العِيادَة

قَالَ أَحَدُ ٱلْأُدَبَاء : إذا مرِضَ صَديقُكَ فَعُدْهُ مِرَاراً ، وَحَدِّثْهُ بِحَدِيثٍ يُشَجِّعُهُ وَيُقَوِّيهِ عَلَى مُقَاسَاةِ أَوْجاعِهِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ لَهُ مَا يُزْعِجُهُ وَيَثْقُلُ عَلَيْهِ سَمَاعُهُ . خَوْفاً مِنْ أَنْ تَزِيدَهُ هَمّاً وَقَلَقاً . فَتَكُون عِيادَتُكَ لَهُ وَبَالاً عَلَيْهِ .

وقال آخرُ : يَحْسُنُ بِالمَرْءِ إذا عادَ صَديقَهُ الْعَليلَ أَنْ يُفَرِّجَ كَرْبَهُ . ويَكُونَ لَهُ بِكَلاَمِهِ ٱلْمُسْتَعْذَب أَنْجعَ دَوَاءٍ .

وَقَال بَعْضُ الحُكَمَاءِ : لا تُطِلْ عِيادَتَكَ لِلْمريض إذا شَقَّتْ عَلَيْهِ مُجَالَسَتُكَ لَهُ . ولا تَتَكَلَّمْ مَعَهُ فِي حِينَ يُزْعِجُهُ ٱلْكَلاَمُ . وَقالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ الله . لا تُطِلِ ٱلْجُلُوسَ عِنْدَ المَرِيضِ وٱلْعَلِيلُ يُعَادُ وَٱلصَّحِيحُ يُزَارُ .

وقال سُفْيانُ الثَّورِيُّ : ٱلثُّقلاءُ أشدُّ على المرضى مِنْ أَمْراضِهِم . يَجيئونَ فِي غَيْرِ وَقْتٍ . وَيُطِيلُونَ ٱلْجُلُوسَ .

وقال الشاعر :

عيادة المرء يوم بين يومين
وجلسة لك مثل اللحظِ بالعين
لا تُبرِ منَّ مريضاً في مساءلة
يكفيك من ذاك تسآل بحرفين

لما مرض معاوية عاده أصدقاؤه فلم يطيلوا الجلوس عنده وقالوا له عند الوداع : ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك فأنت تكره أن تستخف بنا فتأمرنا بالقيام . ونحن نكره أن نثقل عليك بطول الجلوس .

التواضع والكبر

قال سعد بن وقاص لابنه : يا بني إياك والكبر . وليكن في ما تستعين به على تركه علمك بالذي منه كنت والذي إليه تصير . وقال أحد الأدباء : من ولد في الفقر أبطره الغنى . ومن ولد في الغنى لم يزده إلا تواضعاً .

وقال أبو العتاهية :

أشد الناس للعلم آدعاء
أقلّهم بما هو فيه علماً

وقيل في منثور الحكم : من أظهر عيب نفسه فقد زكّاها فإذا

قطع أسباب الكبر وحسم مواد العُجْب اعتاض بالكبرياء تواضعاً وبالعجب توددا . وذلك من أوكد أسباب الكرامة . وأقوى مواد النعم . وأبلغ الشفعاء إلى القلوب يعطفها إلى المحبة ويثنيها عن البغض .

وقال الشاعر :

إتضع للناس إن رمت العلى ... واكظم الغيظ ولا تبد الضجر
واجعل المعروف ذخرا إنه ... للفتى أفضل شيء يذخر
واحمل الناس على أخلاقهم ... فبه تملك أعناق البشر

الرئاء

حقيقة الرئاء اختلاف السر والعلانية واختلاف القول والعمل وهو يدل على سخف العقل .

قال سعيد بن عروة : لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وسوء المخبر أحب إلي من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين .

وقال آخر : المتزيّن بما ليس فيه كلابس ثوبي زور . فهو برئائه محروم الأجر مذموم الذكر . لأنه لا يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه . ولا يخفى رئاؤه على الناس فيحمد به .

وقال بعض الفصحاء : المرائي يتبهرج بزي الصلحاء وليس منهم . ويظهر بمظهر الأخيار وهو ضدهم . حتى يستعطف القلوب النافرة ويخدع العقول الواهية .

وقال بعض الأتقياء : كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله فليس من الله في شيء . ولو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس به أنه كتمه فهو من أقبح الرئاء .

وقال بعض الفضلاء : من الناس من يتلون ألواناً ويكون بوجهين ولسانين . فيأتي هؤلاء بوجه . وهؤلاء بوجه . وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً .

وقال التهامي :

ثــوب الـرئــاء يشف عمـا تحتــه
فــإذا اكتسيت بــه فــإنــك عــارٍ

الصدق والكذب

قال علي بن عبيدة : الصدق ربيع القلب وحلية النفس

وثمرة المروءة وشعاع الضمير . والكـذب شعار الخيـانة وتحريف العلم وتسويل أضغاث النفس . وقال بعض الأدباء : الكذب جماع كل شر وأصل كل ذم . لسوء عواقبه وخبث نتائجه . لأنه ينتج النميمة . والنميمة تنتج البغضاء . والبغضاء تؤول إلى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة .

وقالت الحكماء : من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه .

وقال أحد الأدباء : الكذوب متهم وإن صدقت لهجته ووضحت حجته . وقال عمر بن الخطاب : لأن يضعني الصدق وقلما يفعل أحب إليّ من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل .

وقال بعض الفضلاء : الصـدق منجيك وإن خفتـه . والكذب مرديك وإن أمنته .

وقال حكيم : من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق في ما يقوله . وقال آخر : نزّه سمعك عن سماع الكذب كما تنزّه لسانك عن التفوه به .

ذم المداهنة والتمليق

قال بعض الحكماء : الملق ذل والنفاق لؤم . وليس لمن وسم بهما ود مبرور وأثر مشكور .

وقال بعض البلغاء : التمليق خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز . وقالت الحكماء : إن الملق مصايد العقول الواهنة والمداهنة شبكة القلوب الغافلة وهما من ضروب التدليس والتمويه والتضليل والتغرير . وليس في من يكون الملق والمداهنة بعض سجاياه خير يرجى ولاصلاحٌ يؤمل .

وقال علي بن أبي طالب : أعداء الرجل قد يكونون أنفع من إخوانه . لأنهم يهدونه إلى عيوبه فيجتنبها . ويخاف شماتتهم فيضبط نعمته ويتحرز من زوالها بغاية طوقه .

وقال عليٌّ : المرآة التي ينظر الانسان فيها إلى أخلاقه هي الناس . لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم ومساوئه من أعدائه فيهم . وقال آخر : إن المتملقين يجعلون التمليق خديعة ، فإذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة أغروا أربابها وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم .

وقال علي : من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك ذمك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك .

وكان أبو بكر الصديق إذا مدح قال : أللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم . اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون وأغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون .

وقال أحد العقلاء : اعرف الرجل من فعله لا من كلامه

وأعرف محبته من عينه لا من لسانه . وقال أحد الفضلاء : ينبغي للرجل أن يكون مرآة أخيه تريه خيره وشره .

السعاية والغيبة والنميمة

قال بعض الفضلاء : النميمة دناءة والسعاية رداءة . وهما رأس الغدرورأس الشر . فتجنب سبلهما وتحرز من أهلهما .

وقال محمد بن السماك : تجنب القول في أخيك لخلتين . أما الواحدة فلعلك تعيبه بشيء هو فيك . وأما الأخرى فإن يكن الله عافاك مما ابتلاه به كان شكرك الله على العافية تعييراً لأخيك على البلاء .

وقال آخر من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون ومن تتبع مساوىء العباد فقد نحلهم عرضه .

القناعـــة

قالت الحكماء : الغني من استغنى بالله والفقير من افتقر إلى الناس . وقال بعض الصلحاء : سرور الدنيا أن تضع بما رزقت . وغمها أن تغتم لما لم ترزق .

وقال علي : من رضي بما قسم له استراح قلبه وبدنه . وقال الفضيل : من رضي بما قسم الله له بارك له فيه .

وقال سعيد بن أبي وقاص لابنه : يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة . فإنها مال لا ينفد . وإياك والطمع فإنه فقر حاضر . وقال أكثم بن صيفي : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة . وقال بعض الحكماء : من قنع كان غنياً وإن كان مقتراً ومن لم يقنع كان فقيراً وإن كان مكثراً وقال آخر : القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسِر .

الحث على حفظ المال والنهي عن التبذير

قالت الحكماء : التبذير إنفاق المال في غير حق وبذله على وجه لا تقتضيه الحكمة . وقال سعيد بن جبير : التبذير هو أن تنفق الطيب في الخبيث .

وقال معاوية : ما رأيت تبذيراً قط إلاّ وإلى جنبه حق مضيع .

وقال سفيان الثوري . من كان في يده مال فليصلحه . فإنه في زمان إن احتاج إليه فأول ما يبذل فيه دينه .

وقال آخر :

ولم أر مثل الفقر أوضع للفتى
ولم أر مثل المال أرفع للنذل
ولم أر عزاً لأمرىء كعشيرة
ولم أرذ لأمثل نأي عن الأهل

التأني والعجلة والرفق والعنف

التأني هو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب .

قال أحد الحكماء : مع العجلة الندامة ومع التأني السلامة وقال آخر : من تأنى نال ما تمنى .

وقال أحد العلماء : من ركب العجل أدركه الزلل .

وقال آخر : التأني حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة . وقيل : بحسن التأني تسهل المطالب . وقال بعض العقلاء : إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأني فبماذا يدرك .

وقال آخر : العجول مخطىء وإن ملك . والمتأني مصيب وإن هلك . وقال أفلاطون الحكيم : لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده . فإن الناس لا يسألون في كم فرغ . وإنما ينظرن إلى إتقانه وجودته .

الكلام والصمت

قال بعض الحكماء : الزم الصمت إلا عن حق توضحه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها . أو نعمة تذكرها .

وقال بعض البلغاء : احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك . فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب .

وقال علي : احسبوا كلامكم من أعمالكم وأقلوه إلا في الخير . وقال سليمان بن عبد الملك : السكوت عما يعنيك خير من الكلام في ما يضرك . والسكوت عما لا يضرك خير من الكلام في ما لا يعنيك .

وقال الشاعر :

إحفظ لسـانـك أن تقـول فتبتلى
إن البـلاء مـوكـل بـالمـنـطق

المزاح والضحك

قال أحد الأدباء : على العاقل أن يتقي المزح وينزّه نفسه عن وصمة مساوئه . فإنه مخرج إلى القطيعة . ومذهبة للهيبة والبهاء . ومدعاة لتجرو الغوغاء والسفهاء .

وقال الحجاج بن يوسف : المزاح يوغر صدر الصديق وينفر الرفيق . ويبدي السرائر ويظهر المعاير . ويجلب الشتم ويثير الحقد . وقال أحد العقلاء : الضحك كالمزاح يلزم تحاميه والنفور منه . والأحرى بالعاقل أن يبدل الضحك عند الإيناس بالتبسم .

وقال ناصح الدين :

لا تجعل الهزل دأباً فهو منقصة
والجد تعلو به بين الورى القيم
ولا يغرنك من ملك تبسمه
ما سحّت السحب إلا حين تبتسم

وقال آخر : المزاح مجلبة للبغضاء . ومسلبة للبهاء . ومقطعة للإخاء . وقال بعض الحكماء : إياك والمزاح فإنه يذهب ماء الوجه ويحط من المروءة . وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار . ولا لمن وصم به خطر ولا مقدار .

وقيل : المزاح يضع قدر الشريف ويذهب هيبة الجليل .

وقال أحد العقلاء : لا تمازح الصبيان فتهون عليهم . وقال أحد البلغاء : أحذر فلتات المزاح فسقطه الاسترسال لا تقال . وقيل : كثرة الضحك من الرُّعونة .

المشورة

قال بعض البلغاء : ينبغي للعاقل أن يضيف إلى رأيه رأي العقلاء ويجمع إلى عقله عقول الحكماء . فإن الرأي الفذ ربما زل وإن العقل الفرد ربما ضلّ .

وقال عبد الملك بن مروان : لأن أخطىء وقد استشرت أحب إلي من أن أصيب وقد استبددت برأيي من غير مشورة وقالت الحكماء : الخطأ مع الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد .

الانتصاح والاتعاظ

قال ابن عبد ربه : الموعظة ثقيلة على السمع صعبة على النفس بعيدة من القبول . لاعتراضها الشهوة ومضادتها الهوى الذي هو ربيع القلب ومراد الروح ومربع اللهو ومسرح الأماني . إلاّ من وعظه علمه وأرشده قلبه وأحكمته تجربته .

وقالت الحكماء : النصيحة مرة لا يقبلها إلاّ أولو العزم .

وفي منثور الحكم : ودك من نصحك . وقلاك من مشى في هواك .

الاعتدال

وقال بعض الأدباء : أحسن الأعمال أن تأتي بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا نقصان . فهذه الحال هي أوسط الأحوال وأعدلها لأنه لم يكن منك تقصير فتندم ولا إفراط فتعجز . وقال آخر . أكثر الخير في الأوساط .

التنزه عن استماع الكلام القبيح والقول به

قال عمر بن عتبة : نزِّه سمعك عن استماع الخنى كما تنزِّه لسانك عن الكلام به . فإن السامع شريك القائل .

آداب المتعلم وأخلاقه

قالت الحكماء : من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً .

وقال علي بن أبي طالب : لا يستنكف المرء أن يتعلم ما ليس عنده . وإذا سئل أحدكم عمّا لا يعلم فليقل لا أعلم .

الحكم والمواعظ والنصائح

قال الرشيد لمنصور بن عمار : عظني وأوجز . فقال : يا أمير المؤمنين هل أحد أحب إليك من نفسك . قال : لا . قال : إن أردت ألا تسيء إلى من تحب فافعل .

الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي من أي وعاء خرجت . . . لا يطلب الرجل حكمة إلا بحكمة عنده من بلغ أشده لاقى من العيش أشده .

خيار شبّانكم المتشبهون بشيوخكم . وشرار شيوخكم المتشبهون بشبّانكم .

أفضل البرّ الرحمة . ورأس المودة الاسترسال . ورأس العقوق مكاتمة الأدنين . ورأس العقل الإصابة بالظن .

عليكم بثلاث : جالسوا الكبراء وخالطوا الحكماء وسائلوا العلماء . . . من كرمت عليه نفسه هانت عليه دنياه . .

قيل لحكيم : من أبعد الناس سفراً . قال : من كان سفره في ابتغاء الأخ الصالح .

أكرم الشيم أرعاها للذمم .

● إذا سكن الخوف في القلب لا ينطلق اللسان بما لا يعنيه . جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من

أساء إليها . . . إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة .

● وقال إبن المقفع : الاستطالة لسان الجهالة . وكف النفس عنها بما يصدها من الزواجر أسلم . وهو بذي المروءة أجمل .

● الناس لا يقنعهم القول دون الفعل . ويرونه كالصدى إن رد صوتاً لم يجد نفعاً .

أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعاً لك فقد قيل : من أصلح نفسه أرغم أنف أعاديه . ومن أعمل جدّه بلغ كنّه أمانيه . . من عرف معابه فلا يلم من عابه .

وقد قال الشاعر :

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه
ولو بان عيب من أخيه لأبصروا
ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه
لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

ومن تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان .

لا تضيّع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك .

من كان صحيح الرغبة في ثواب الله لم يكن له مسرة إلاّ في طاعته .

لتأمن فجعاتها . . . ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه .

إرضاء الجمهور من المعجز الذي لا يدرك . . إنتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل نفسك هـمّ ما لم يأتك .

ما نقصت ساعة من أمسك إلا ببضعة من نفسك .

فرَّ من الشرف يتبعك الشرف . . لا تختر للمنصب إلا زاهداً فيه غير طالب له .

إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل .

قال أفلاطون : عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم وظاهرة في حسن اختيارهم .

العاقل بخشونة العيش مع العقلاء أسرُّ منه بلين العيش مع السفهاء . . أكبر الأدواء للبدن التلهف على ما لا يدرك ما تزاحمت الظنون على أمر إلَّا كشفته .

قيل لبعضهم : أسأت الظن . قال : إن الدنيا لما امتلأت من المكاره وجب على العاقل أن يملأها من الحذر .

ألهيبة خيبة والفرصة تمر مرّ السحاب .

وقال الحسن : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء .

من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه . ومن أصلح ما بينه وبين

الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن أخلص سريرته أخلص الله علانيته .

قال أكثم بن صيفي : أنت مزر بنفسك إن صحبت من هو دونك .

أدوية الدنيا تقصر عن سمومها ونسميها لا يفي بسمومها .

أفضل ما أذخرت التقوى وأجمل ما لبست الورع وأحسن ما أكسيت الحسنات .

لقد ملكت ، أيّها الملك العظيم ، بسيفك وصولة ملكك وانتظام سياستك أجسام رعيّتك ، فتحرًّ أن تملك قلوبها باحسانك إليها وإنصافك وعدلك فيها .

من ولي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغيّر لها ، ومن ولي ولاية رآها أكبر منه تغيّر لها .

والقلوب لا تبقى لوال لا يعطف إذا استُعْطِف ، ولا يعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يرحم إذا استرحم . من قلّت رحمته واشتدّت سطوته وجب مقته وكثر مبغضوه .

الأمثال السائرة

أمثال القرآن الكريم :

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .
قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان .
أليس الصبح بقريب .
ليس لها من دون الله كاشفة .
لكل نبأ مستقر .
كل نفس بما كسبت رهينة .
ما على الرسول إلا البلاغ .
هل جزاء الاحسان إلّا الاحسان .
كل حزب بما لديهم فرحون .
لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .
لا يستوي الخبيث والطيب .
لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسوءكم .
لست عليهم بمسيطر .
كل يوم هو في شأن ،
من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها .
لمثل هذا فليعمل العاملون .
كل نفس ذائقة الموت » . .

أمثال الحديث الشريف :

إنما الأعمال بالنيات .
من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .
أنزلوا الناس منازلهم .
اليد العليا خير من اليد السفلى .
مطل الغنى ظلم .
يد الله مع الجماعة .
الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق .
من غشّنا فليس منا .
سيد القوم خادمهم .
الحياء شعبة من الايمان .
كل مُيسَّرٌ لما خلق له .
الوحدة خير من جليس السوء .
الندم توبة .
لا يكون المؤمن طعّاناً ولا لعّاناً .
دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .
أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً .
الأعمال بخواتيمها .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أحكام الحج
الى بيت الله الحرام

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

أدعية وابتهالات

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ».

صدق الله العظيم

الدّعاء وآدابهُ

قال الله تعالى : « وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فإنِّي قَرِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .

وقوله تعالى : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذَا دَعَانِ » أي أقبل عبادة من عبدني ؛ فالدعاء بمعنى العبادة ، والإجابة بمعنى القبول .

وقال قوم من خيرة الفضلاء ، إن الله تعالى يجيب كل الدعاء ؛ فإما أن يعجل الإجابة في الدنيا ، وإما أن يكفر عن الداعي ، وإما أن يدخر له في الآخرة ؛ يدل على ذلك قول رسول الله ﷺ : « مَا من مسلم يدعو بدعوة ليست فيها إِثْمٌ ، ولا قطيعة رحِم ؛ إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث . إمَّا أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدَّخر له ثوابها ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها » .

شروط الدعاء

إجابة الدعاء لا بد لها من شروط :

فشرط الداعي : أن يكون موقناً بأنه لا قادر إلا الله تعالى ، وأن الوسائط في قبضته ، ومسخرة بتسخيره . وأن يكون دعاءه بنية وحضور قلب ؛ فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه . وأن يكون متجنباً لأكل الحرام ، وألا يمل من الدعاء .

وشرط المدعو به : أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعا ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : « مَالَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ » ويدخل في الإثم : كل ما يؤثم به من الذنوب . ويدخل في الرحم : جميع حقوق المسلمين ومظالمهم . قال ابن عطاء الله : إن للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتاً ؛ فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء ، وإن وافق أسبابه نجح ، وإن وافق مواقيته فاز ؛ وأركانه : حضور القلب والخشوع ، وأجنحته : الصدق ، وأسبابه : الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومواقيته : لأسحار .

وشرط الدعاء : أن يكون سليما من الخطأ واللحن قال بعضهم :

يُنَـادِى رَبَّـهُ بِـالَّلحْـنِ لَـيْـثٌ
كَـذَاكَ إِذاَ دَعَـاهُ لاَ يُـجَابُ

آداب الدعاء

أن يكون الداعي مستقبل القبلة رافعاً يديه ؛ لما روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ رَبَّكُمْ حَيِي كَرِيمٌ : يَسْتَحْيِ مِنْ عَبْدِهِ إِذاَ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُماَ صِفْراً » .

وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء ؛ لما روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه .

وألا يرفع بصره إلى السماء ؛ لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنِ رَفْعِ أَبْصاَرِهِمْ إِلَى السَّماَءَ عِنْدَ الدُّعَاءِ ، أَوْ لَيَخْطَفَنَّ اللهُ أَبْصاَرَهُمْ » .

وأن يخفض الداعي صوته بالدعاء ؛ لقوله تعالى « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً » .

وعن أبي عبد الرحمن الهمذاني ؛ قال : صليت مع أبي اسحق الغداة فسمع رجلا يجهر في دعائه ؛ فقال له : كن كزكريا إذ نادى ربه نداء خفيا .

وينبغي للداعي ألا يتكلف، وأن يأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع ؛ لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إياكم والسجع في الدعاء ؛ بحسب احدكم أن يقول : « اللّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ

وَمَا قَرَّبَ إليها مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ ، وأعُوذُ بِكَ مِنَ النار وَمَا قَرَّبَ إلَيْها مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ » .

وقيل : ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ، ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق .

وكانوا لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها ؛ كما في آخر سورة البقرة . وهو قوله تعالى « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

وعن سفيان بن عيينة : لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم منَ نفسه ؛ فقد أجاب الله تعالى دعاء شر الخلق إبليس ؛ إذ قال : « رَبِّ أنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » فأجابه تعالى : « إنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ » .

استفتاح الدعاء :

عن سلمة بن الأكوع قال : ما سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستفتتح الدعاء إلا قال « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأعْلَى الوَهَّاب » .

وعن أبي سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة ؛ فليبدأ بالصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛

وينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء ، وأن يكون على رجاء من الإجابة ، ولا يقنط من رحمة الله تعالى لأنه يدعو كريماً !

أوقات الدعاء

وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الاجابة : وذلك وقت السحر ، ووقت الفطر في الصيام، وما بين الأذان والإقامة ، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين في الجمعة ، وعند نزول الغيث ، وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وفي الثلث الأخير من الليل ؛ لما جاء في الحديث « إنَّ في اللَّيْلِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ شَيْئاً إلَّا أعْطَاهُ » وفي حالة السجود ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام « أقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّه وَهُوَ سَاجِدٌ فَأكْثِرُوا الدُّعَاءَ » وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء ، وأوقات الاضطرار ، وحالة السفر والمرض ؛ وجميع ذلك جاءت به الأخبار والآثار .

عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه : دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في مسجد الفتح ثلاثة أيام : يوم الاثنين ويوم الثلاثاء واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين ؛ فعرفت السرور في وجهه . قال جابر : ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة .

ما جاء في الدعاء

وفي بعض الكتب المنزلة « يا عبدي إذا سألت فاسألني فإني غني ، وإذا طلبت النصرة فاطلبها مني فإني قوي ، وإذا أفشيت سرك فأفشه إليّ فإني وفيّ وإذا أقرضت فأقرضني فإني مليّ ، وإذا دعوت فادعني فإني حفي » .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى سَماءِ الدُّنْيَا ـ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الأَخِيرِ ـ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فأَغْفِرَ لَهُ » .

وقال وهب بن منبه : بلغني أن موسى عليه السلام مر برجل قائم يبكي ويتضرع طويلاً ؛ فقال موسى : يا رب أما تستجيب لعبدك ؟! فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ، ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجيب له . قال موسى : يا رب لم ذلك ؟ قال : لأن في بطنه الحرام .

ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا : يا أبا إسحق ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء :

الأول أنكم عرفتم الله تعالى فلم تؤدوا حقه .

الثاني : زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم تركتم سنته .

الثالث : قرأتم القرآن ولم تعملوا به .
الرابع : أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها .
الخامس : قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه .
السادس : قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها .
السابع : قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها .
الثامن : قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له .
التاسع : انتبهتم من نومكم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم .
العاشر : ذفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .

وكان يحيي بن معاذ يقول : من أقر لله بإساءته ، جاد الله عليه بمغفرته ، ومن لم يمن على الله بطاعته ، أوصله إلى جنته ، ومن أخلص لله في دعوته ، منَّ الله عليه بإجابته .

وقال علي رضي الله تعالى عنه : ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء .

أدعية الصالحين

كان من دعاء شريح رحمة الله تعالى : اللهم إني أسألك الجنة بلا عمل عملته وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته .

وكان من دعاء بعض الصالحين ، اللهم إن كنا قد عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك ؛ وهو الاشراك . وإن كنَّا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك ؛ وهو شهادة

أن لا إله إلّا أنت ، وأن رسلك جاءت بالحق من عندك .

ومن دعاء سلام بن مطيع . اللهم إن كنت بلغت أحداً من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية .

وكان من دعاء بعض السلف : اللهم لا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي اللهم لا تكلني إلى نفسي ولا إلى الناس فأضيع !

وقال الأصمعي ، حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت : وهي اللهم إن ذنوبي وإن كثرت وجلت عن الحصر ؛ فإنها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني .

وركب إبراهيم بن أدهم سفينة فهاجت الريح وكثر الموج وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك من هول ما رأوا ونزل بهم ؛ وكان إبراهيم نائماً في كساء ، فاستوى جالسة وقال : أريتنا قدرتك فأرنا عفوك ، فذهب الريح وسكن البحر .

وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه يقول : اللهم إني أكفر بكل ما كفر به محمد وأومن بكل ما آمن به ؛ ثم يضع رأسه وينام .

وسئل أعرابي : أتحسن الدعاء ؟ قال كيف لا ؟! ثم قال اللهم إنك أعطيتنا الاسلام من غير أن نسألك ، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك .

وذكر لعبد السلام بن مطيع : إن الرجل تصيبه البلوى فيدعو

ربه فتبطىء الإجابة ؟ فقال : بلغني أن الله تعالى يقول : كيف أرحمه من شيء به أرحمه ؟!

وقال ابن المسيب : سمعت من يدعو بين القبر والمنبر[1] : اللهم إني أسألك عملا باراً ، ورزقاً داراً ، وعيشاً قاراً ؛ فدعوت به فما وجدت إلا خيراً .

وقال سفيان الثوري : سمعت أعرابياً يقول : اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيداً فقربه ، وإن كان قريباً فيسره ، وإن كان قليلا فكثره ، وإن كان كثيراً فبارك لي فيه .

وسمع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه رجلا يدعو ـ وهو متعلق بأستار الكعبة ـ يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يبرمه إلحاح الملحين ؛ أذقني برد عفوك ؛ وحلاوة مغفرتك ! فقال له علي : والذي نفسي بيده لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك !

ومن دعائه كرم الله تعالى وجهه :

اللهم صن وجهي باليسار ، ولا تبدل جاهي بالاقتار ؛ فأسترزق طامعاً رزقك من غيرك ، وأستعطف شرار خلقك وابتلي بحمد من أعطاني ، وأفتتن بذم من منعني ؛ وأنت من وراء ذلك كله ولي الاجابة والمنع !

عن عبد الله بن أبان الثقفي رضي الله تعالى عنه ، قال : وجهني الحجاج ابن يوسف في طلب أنس بن مالك ـ فخفت أن يتوارى عني ـ فأتيت بخيلي ورجلي (بركباني ومشاتي) فاذا هو جالس على باب داره ، مادّاً رجليه ؛ فقلت له : أجب الأمير فقال : أي الأمراء تعني ؟ فقلت : أبو محمد الحجاج . فقال : هذا قد أذله الله ما أرأني أعزه ؛ لأن العزيز من عز بطاعة الله ، والذليل من ذل بمعصية الله ، وأميرك هذا قد بغى وطغى واعتدى ؛ وخالف كتاب الله وسنة لرسوله ، والله لينتقمن الله منه ! فقلت له : أقصر عن الكلام وأجب الأمير . فقام معنا ـ وهو دائم السخط ـ حتى حضر بين يدي الحجاج ، فقال له : أنت أنس بن مالك ؟ قال : نعم . قال : أنت الذي تدعو علينا وتسبنا ؟ قال : نعم . قال : وما سبب ذلك ؟ قال لأنك عاص لربك ، مخالف لسنة نبيك ، مفسد في الأرض ، باغ على عباد الله ؛ تعز أعداء الله وتذل أولياءه . فقال له الحجاج : أتدري ما أريد أن أفعل بك الآن ؟ قال : أريد أن أقتلك شر قتلة ! قال أنس : لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله ! قال الحجاج : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأن رسول الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علّمني دعاء وقال : « من دعا به في كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل » وقد دعوت به في صباحي هذا . فقال الحجاج : علمنيه . فقال : معاذ الله أن أعلمه لأحد ما دمت أنت في الحياة . فقال الحجاج خلواً سبيله ، فقال الحاجب : أيها

الأمير لنا في طلبه كذا وكذا يوماً حتى أخذناه فكيف نخلي سبيله ؟! قال : والله لقد رأيت كأن على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواهما .

ثم أن أنساً رضى الله تعالى عنه ـ لما حضرته الوفاة ـ عرف : اخوانه الدعاء ؛ وهو بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله خير الأسماء ؛باسم الله لا يضر مع اسمه أذى ، باسم الله الكافي ، باسم الله المعافى ، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، باسم الله على نفسي وديني ، باسم الله على أهلي ومالي ، باسم الله على كل شيء أعطانيه ربي ؛ الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، أعوذ بالله مما أخاف وأحذر ؛ الله بي لا أشرك به شيئاً ؛ بنعز جارك ، وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ، ولا إله غيرك ؛ اللهم أني أعوذ بك من شر كل جبار عنيد ، وشيطان مريد ، ومن شر قضاء السوء ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربي على سراط مستقيم .

دعاء مأثور

عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلّم ـ حين آذاه قومه ، وشجوا رأسه الشريف ، وأسالوا دمه الطاهر الزكي ـ رفع رأسه الى السماء مناجياً ربه ؛ « اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ

وَأَنْتَ رَبِّي ، إلى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلى بَعِيضٍ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إلى قَوِيٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلا أُبَالِي ، وَلَكِنْ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي ؛ أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؛ مِنْ أَنْ يَحُلَّ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ ؛ فَلَكَ العُتْبَى[١] حَتَّى تَرْضَى ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ لَنَا إِلاَّ بِكَ يَا رَبَّ العَالَمِين !».

أدعية الناس لبعضهم :-

دعا رجل لآخر فقال له : سرك الله بما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك !

ودعا أعرابي لآخر فقال : رحب واديك ، وعز ناديك ، ولا ألم بك ألم ، ولا طاف بك عدم ، وسلمك الله ولا أسلمك[٢] .

ودعا أعرابي لعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه فقال : لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار ، وتناسخت الظلم والأنوار !

وقال بعضهم وكان من دعاء السلف رضي الله عنهم : اللهم إني أعوذ بك من ذلك الفقر وبطر الغنى .

من أدعية النبي
صلى الله عليه وسلم

اللهم اسالك التوفيق لحابك من الاعمال وحسن الظن بك ، وصدق التوكل عليك . .

من دعاء النبي عليه السلام .

اللهم اني اسألك الثبات في الامر والعزيمة في الرشد واسألك شكر نعمتك ، وأسالك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم أنك انت علام الغيوب .

من دعاء
الرسول عليه السلام

اللهم اجعلني شكوراً واجعلني صبوراً ، واجعلني في عيني صغيراً وفي أعين الناس كبيراً . .

اللهم أني أسألك من الخير كله ، عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم .

اللهم عافني بقدرتك ، وادخلني في رحمتك ، وأفض أجلي في طاعتك ، واختم لي بخير عملي واجعل ثوابي الجنة . .

من دعاء النبي عليه السلام

اللهم أني أسألك رحمة من عندي ، تهدي بها قلبي ، وتجمع بها شملي ، وتلم بها شعثي ، وترد بها الفتن عني ، وتحفظ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي ، وتبيض بها وجهي ، وتلهمني بها رشدي ، وتعصمني من كل سوء .

من دعاء النبي عليه السلام

اللهم أني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة في الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، ولساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغرك لما تعلم ، انك أنت علام الغيوب .

(من دعاء النبي عليه السلام)

أدعية قرآنية

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويطمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك العزيز الحكيم » .
من دعاء ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، في البيت العتيق

« رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنى ان نعبد الاصنام رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم . ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس

تهوى اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ».
من دعاء ابراهيم لولده اسماعيل ، عليهما السلام ، في البيت العتيق .

« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصالحين » .

[من دعاء يوسف عليه السلام
وقد تحققت رؤ ياه]

« رب اني أعوذ بك ان اسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ».
من دعاء نوح عليه السلام
بعد غرق ابنه في الطوفان .

رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم الحساب
القرآن الكريم

« ربي أوزعني ان اشكر نعمتك التي أنعمت علي ، وعلى والدي ، وأن اعمل صالحا ترضاه ، وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين ».

(قرآن كريم)

« ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه : ان الله لا يخلف الميعاد » .

(من دعاء الراسخين في العلم)

« ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » .

من دعاء ابراهيم عليه السلام

« رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائي الا فرارا * واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا » .

من دعاء نوح عليه السلام

« ربي اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً » .

من دعاء زكريا
عليه السلام

« ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم » .

(من دعاء الذين جاءوا من بعد المهاجرين والانصار)

« رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين » .

من دعاء زكريا
عليه السلام

ادعية السلف
الصالح

ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد .

(من دعاء الراسخين في العلم)

عن « سعد بن ابي وقاص » رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا هذه الكلمات كما تعلم الكتابة :

« اللهم اني اعوذ بك من البخل ،
وأعوذ بك من الجبن ،
وأعوذ بك أن نرد الى ارذل العمر ،
وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » .

اللهم انا نعود بك ان نفتقر في غناك ، أو أن نضل في هداك ، او ان نضطهد والامر لك .

اللهم انا نعوذ بك أن نذهب عن قولك ، أو نفتتن عن دينك ، او نتابع اهواءنا دون الهدى الذي جاء من عندك .

من دعاء الامام علي

اللهم انك دعوتنا الى الانقياد او الدوام بين يديك ، واناعن ذلك عاجزون ، الا ان تقدرنا وضعفاء الا ان تقوينا .

اللهم انك قد دبرت كل شيء قبل وجود كل شيء ، وقد علمنا انه لن يكون الا ما تريد ، وليس هذا العلم نافعا لنا الا ان تريد ، فردنا بخيرك ، وارفع شأننا بفضلك . . واقصدنا بعنايتك ، وحفنا برعايتك ، وحفنا برعايتك . انك على كل شيء قدير . .

من دعاء ابن عطاء الله

اللهم انا اليك محتاجون فاعطنا وعن الطاعة عاجزون فاقدرنا ، وهب لنا قدرة على طاعتك ، وعجزا عن معصيتك ، واستسلاما لربوبيتك ، وصبرا على احكام ألوهيتك ، وعزا بالانتساب اليك ، وراحة في قلوبنا بالتوكل عليك . .

اللهم اجعلنا من المختارين لك ولا تجعلنا من المختارين عليك ، ومن المفوضين لك . لامن المعترضين عليك .

من دعاء ابن عطاء الله

اللهم ارحم غربتي في الدنيا ، ومصرعي عند الموت ، ووحدتي في القبر ، ومقامي بين يديك .

(من دعاء عطاء السلمى)

اللهم اني أسألك ايمانا لا يرتد ، ونعيما لا ينفد ، وقرة عين لا

تنقطع ، ومرافقة نبيك صلى الله عليه وسلم في اعلى جنات الخلد . .

من دعاء

عبد الله بن مسعود

اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واجعلنا في كنفك الذي لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا . . لا نهلك وانت رجاؤنا .

من دعاء ابراهيم بن ادهم

هو الله لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر النور الهادي البديع القادر القاهر .

اللهم انك انت الله الاله الاكرم الأزلى السرمدي الذي لا يحول وتدهش منه العقول . اللهم اجب بفضلك دعوتي واقض حاجتي واكشف عن بصيرتي ، احتجبت بنور الله وبنور عرش الله وبكل اسم الله من عدوي وعدو الله .

وختمت على نفسي وعلى اهلي وعلى كل شيء اعطانيه ربي بخاتم الله المنيع الذي ختم به السماوات والارض . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

من دعاء عبد القادر

الجيلاني

اللهم انا عبيدك بنو عبيدك بنو امائك ، نواصينا بيدك ، ماضٍ فينا حكمك ، عدل فينا قضاؤك . اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم اهلك وخاصتك يا أرحم الراحمين . .

اللهم انا نسألك من الخير كله عاجله وآجلة ما علمنا منه وما لم نعلم ، ونعوذ بك من الشر كله عاجلة وآجلة ما علمنا منه وما لم نعلم ، ونسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وعبادك الصالحون .

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات واصلح ذات بينهم وألّف بين قلوبهم واجعل في قلوبهم الايمان والحكمة ، وأوزعهم ان يشكروا نعمتك التي انعمت عليهم وان يوفوا بعهدك الذي عاهدتهم عليه واهدهم سبل السلام واخرجهم من الظلمات الى النور . .

ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم . .

من دعا الفقيه
ابن نيميه

كان جابر بن زيد يوصى فيقول : اذا جئت يوم الجمعة فقف على باب المسجد وقل :

اللهم اجعلني اليوم اوجه من توجه اليك ، واقرب من تقرب اليك ، وانجح من دعاك وطلب منك .

اللهم اني اسألك علما نافعا وعملا متقبلا وايمانا صريحا ويقينا صحيحا . اعوذ بالله من اكل الحرام اعوذ بالله من ظلم الضعفاء والايتام . اعوذ بالله من ارتكاب الكبائر والآثام .

اعوذ بالله من سخط الملك العلام .

اعوذ بالله من عدم التوفيق لحسن العمل .

اعوذ بالله من الركون الى طول الامل .

اعوذ بالله من تمزيق الاعمار في مخالفة الابرار .

وأستعينه على تطهير القلوب من طوالع الارتياب وجنايات الاغتياب فانه داء قد اعيا دواؤه وتعذر شفاؤه وعم بلاؤه .

اللهم انا نستعين بك على تطهير ضمائرنا من حب الدنيا فان حب الدنيا رأس كل خطيئة واصل كل بلية .

اعوذ بالله من نية تعقب وزرا .
أعوذ بالله من عدم التوفيق .
أعوذ بالله من عزيمة تجلب شراً .
أعوذ بالله من ترك التحقيق .
أعوذ بالله من ترك السعة والرجوع إلى الضيق .

من دعاء ابن الجوزي

الحمد لله الذي جعل لنا نصيبا مما جعل للسيدة مريم ابنة عمران عليها السلام .

اللهم احسن لي الختام ومتعني بالنظر الى وجهك الكريم . الهي ، ما أرافك وما الطفك بعبادك .

الهي وسيدي ومولاي . متعتني وفرحتني برضاك عني . فلا تسبب لي سببا يحجبني عنك . اللهم يا من علا فاقتدر وملك فقهر . اجبر من امتك ما انكسر . اللهم احجب عنا انظار الظالمين .

من دعاء السيدة نفيسة

دعا اعرابي عند الكعبة فقال : اللهم ان لك علي حقوقا فتصدق بها علي ، وللناس عندي تبعات فتحملها عني ، وقد اوجبت لكل ضيف قرى . . وانا ضيفك فاجعل قراي الليلة الجنة .

وقال آخر : اللهم اليك خرجت وما عندك طلبت ، فلا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي ، اللهم وان كنت لم ترحم نصبي وتعبي فلا تحرمني اجر المصاب على مصيبته .

اللهم أني أسألك بعليم قديم كريم مكنون أسمائك وبرفيع بديع منيع سلطانك ان تقيدنا بقيود السلامة عن الوقوع في معصيتك . اللهم ذهلت العقول وحارت الاوهام وقصرت

الظنون عن أدراك كنه ما ظهر من عجائب قدرتك . فعاملنا بما انت أهله ولا تعاملنا بما نحن أأهله . انك أهل العفو وأهل المغفرة يا أرحم الراحمين .

من دعاء
الامام الرفاعي

اللهم أني ذاهب عن نفسي متصل بذكر ربي قائم بأداء حقوقه ناظر اليه بقلبي .

الهي . . احرقت قلبي انوار هيبتك وصفيت شربي من كأس ودك فان تكلمت فيك يا الهي وان نطقت فمنك يا الهي وان تحركت فبأمرك يا الهي وان سكنت فمعك يا الهي فأنا فبك،ولك ومعك .

من دعاء الجنيد

اللهم صل على من منه انشقت الاسرار وانفلقت انوار ، وبه ارتقت الحقائق وتنزلت العلوم فأعجزت الخلائق ، فرياض الملكوت بزهور جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض انواره متدفقة . اللهم انه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الاعظم القائم بين يديك .

اللهم عرفني به معرفة اسلم بها من موارد الجهل وأرد بها موارد الفضل ، واحملني على سبيله .

يا أول يا ظاهر يا باطن اسمع ندائي بمنك وكرمك بما سمعت به عبدك زكريا وانصرني بك لك . وايدني بك لك وحل بيني وبين غيرك .

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

من دعاء ابن عميش

دعاء الشاعر في رمضان

يا رب

في كل حين . . من فؤادي والنهي لك ، يا كريم ، الحمد . والاعظام امنت . . انك . . خالق . . ومقدِر .

وبكل حال . . في الورى . . علام هذاك شعري . من شعوري . صفة .

ولانت . . انت . الوحي . والالهام وان في القلم . الشقاء . نلتها .

لكن . . في القلم . الشقاء . . والالهام وان في القلم . السعادة . . نلتها .

لكن في القلم . الشقاء . اسام لماذا اردت . . فانني . لا اشتكى

هذا صراع . . لست فيه . الام انت الملاذ . . وليس غيرك . مالك في ملكه . . نصب الحياة . . تقام اياك . اعبد . . انت وحدك قبلتي .

ورضاك عني . . عدة وحسام ارحم هواني في الحياة . . وذلتي لا تتركني . . في الحياة . . اضام .

السيد حشيش

مقالات صوفية

** الرجل المتمكن هو الذي لو نصب له سنان على اعلى شاهق جبل في الارض ، وهبت عليه الرياح الثمان . . ما غيرته .

** الزهد أساس الاحوال المرضية ، وهـو اول قدم القاصدين الى الله والراضين عن الله والمتوكلين على الله ، فمن لم يحكم اساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده .

** الانس بالله ، لا يكون الا لعبد قد كملت طهارته ، وصفا ذكره ، واستوحش من كل ما يشغله عن الله .

** الصدقة افضل من العبادات البدنية والنوافل .

** اخوك هو الذي يحل لك اكل ماله بغير اذنه ، وهو الذي تسكن نفسك اليه ، ويستريح قلبك فيه .

** اذا تعلم احدكم شيئا من الخير ، فليعلمه الناس . . يثمر له الخير .

** المشاهدة حضور بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين ، وحقائق حق اليقين .

** لو تكلم الرجل في الذات والصفات . . كان سكوته افضل .

** اذا اصلح القلب صار مهبط الوحي والاسرار والانوار والملائكة ، واذا فسد صار مهبط الظلم والشياطين .

** اللهم اجعلنا ممن فرشوا على بابك للفرط ذلهم نواعم الخدود ونكسوارؤ وسهم من الخجل وجباههم للسجود ، ببركة صاحب اللواء المحمود . . آمين . .

: : منذ عرفت أن ذم الناس افراط ، ومدحهم افراط ، كرهت مذمتهم .

: : لولا اخشى أن تكون بدعة . . لامرت : اني اذا مت ان اقيد في الأغلال ، فادفع الى ربي مغلولا كما يدفع العبد الآبق الى مولاه !

: : لم يبق من روح الدنيا الا ثلاثة : لقاء الاخوان ، والتهجد بالقرآن ، وبيت خال يذكر الله فيه .

: : ما بقى لاحد رفيق يساعده على عمل الآخرة . . انما هم يفسدون على المرء قلبه .

: : اني أكره ان يأتيني احد من اخواني في منزلي ، خشية ألّا أقوم له بواجب حقه . .

: : تقرأون قوله تعالى :

« وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون » . . اسألوا انفسكم : كم اليوم في كل مدينة يفسد ولا يصلح ؟

: : أدركنا الصحابة ، وهم لا يعيب بعضهم على بعض في الملابس من أعلى وأدنى ، فكان صاحب الصوف لا يعيب على صاحب الخز ولا صاحب الخز يعيب على صاحب الصوف .

: : من الاخوان من يكون محبا لك وهو بعيد ، ويمنعه من لقائك الشغل الذي هو فيه .

: : لولا ان يقول الناس : جن مالك ، للبست المسوح ، ووضعت الرماد فوق رأسي بين الناس .

: : اللهم لا تدخل بيت مالك ابن دينار من الدنيا شيئا ! !

: : كيف يكون زاهدا من لا ورع له ؟ . . تورع عما ليس لك ، ثم ازهد فيما حولك .

من لم ينتفع بأفعال شيخة . . لم ينتفع بأقواله .

: : اجتنبوا صحبة ثلاثة اصناف : العلماء الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين الذين يتعبدون قبل ان يتعلموا فروض دينهم .

: : لبس الصوف من غير اماته النفس جهاله ، وترك المكاسب مع الحاجة اليها كسل ، والكسل مع وجود الاستغناء عنه كلفة ، والصبر على العزلة علامة وجود الطريق ، والتعبد مع تضييع العياد جهل .

: : لا يكون الرجل حليما حتى يلحظ النساء بعين الشفقة . . لا بعين الشهوة .

: : كم بين من يريد حضور الوليمة للوليمة ، وبين من يريد حضور الوليمة ليلتقي بالحبيب في الوليمة ؟

: : مثل الاولياء مثل الصيادين . . يصطادون العباد من أفواه الشياطين ، ولو لم يصد الولى طول عمره الا واحدا لكان قد أوتى خيرا كثيرا .

: : جميع الدنيا من اولها الى اخرها لا تساوي غم ساعة . . فكيف تغتم طول عمرك فيها مع قلة نصيبك منها ؟

: : لو أن رجلا في علم أبي عباس ، وهو راغب في الدنيا ، لنهيب الناس عن مجالسته ، فانه لا ينصحك من خان نفسه !

: : طلب الزهد هربا من مشقة الاعمال الشاقة بطاله !!

: : اياك ان تكون للمعرفة مدعيا ، او للزهد محترفا ، وفر من كل شيء الى ربك .

: : أدركنا العلماء وهم ينفقون المال في تحصيل العلم ، والعلماء اليوم ينفقون العلم في تحصيل المال !

: : من علامة سخط الله تعالى على عبده خوفة من الفقر .

: من القلوب قلوب تستغفر قبل ان تذنب ، فتثاب قبل ان تطيع .

: : من لم يفتش عن الرغيفين من الحلال لا يفلح في طريق الله عز وجل .

: : ما شبعت من الطعام قط الا عصيت ، او هممت بمعصية !

: : ان الله تعالى لم يمنع اعداءه المحبة بخلا ، وانما صان اولياءه الذين اطاعوه ، ان يجمع بينهم وبين اعدائه الذين عصوه .

: : العارف لا يدوم على حزن . . ولا يدوم على سرور .

: : من نظر في عيوب الناس . . عمى عن عيب نفسه !

** ليس بعاقل من طلب الانصاف لنفسه من غيره ، ولم ينصف غيره من نفسه !

** التصوف هو تدريب النفس على العبودية ، وردها لاحكام الربوبية ، ومن ادعى فتح عين قلبه وهو يتصنع بعبادة الله تعالى ، او يطمع فيما في ايدي خلق الله تعالى فهو كاذب .

** لا كبيرة عندنا اكبر من اثنتين : حب الدنيا بالايثار ، والمقام على الجهل بالرضا . . لان حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والمقام على الجهل أصل كل معصية .

** أربع لا ينفع معهم علم : حب الدنيا ونسيان الآخرة وخوف الفقر وخوف الناس .

** من النفاق التظاهر بفعل السنة ، والله يعلم منه غير ذلك ، ومن الشرك بالله اتخاذ الأولياء الشفعاء دون الله . . قال الله تعالى : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون » ؟

** لا يوصف العبد بأنه ترك المعاصي : الا اذا كانت لا تخطر له على بال ، فان حقيقة الهجر نسيان المهجور .

** أشقى الناس من يحب ان يعامله الناس بكل ما يريد ، وهو لا يجد من نفسه بعض ما يريد .

** اذا عارض كشفك الكتاب والسنة ، فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف فان الله قد ضمن العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في الكشف ولا الالهام ولا المشاهدة .

** ارجع عن منازعة ربك تكن موحدا : واعمل بالشرع تكن سنيا واجمع بينهما تكن محققا .

** من دعا الى الله تعالى ، بغير ما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم فهو بدعى .

** ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ، وانما هو بالصبر على الاوامر واليقين في الهداية .

* انني اعرف طريقا يؤدي الى الجنة قصدا . . هو أن تشتغل بالعبادة وتقبل عليها حتى لا يكون لك فيها فضل .

* من قام بين يدي الله في الظلام . . نشرت له يوم القيامة الاعلام .

* آه على نعمة ليس لله فيها تبعة ، ولا لمخلوق فيها منة .

* لا يقوى على ترك الشهوات ، الا من ترك الشبهات .

* تصفية العمل من الآفات . . اشد من العمل .

* التوكل على الله . . هو الانخلاع من الحول والقوة .

* رأس الاعمال الرضا عن الله وعمود الدين الورع ، ومخ العبادة الجوع .

* ضبط اللسان حصن حصين .

* من شكر الله جرى في ميدان الزيادة .

* من علامة المعرفة بالله : القيام بحقوق الله ، وإيثاره على النفس فيما امكنت فيه القدرة .

* وددت أن احزان الخلق كلهم علي .

* أربع من أخلاق الابدال ، استقصاء الورع ، وتصحيح الارادة وسلامة الصدر للخلق ، والنصيحة لهم . .

* من أدعي باطن علم يبطله ظاهر حكم فهو غالط .

* من أطاع من فوقه اطاعة من دونه .

* اللهم ان عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب .

** عليك بالعمل واياك وشقشقة اللسان بـالكلام في الطريق ، دون التخلق باخلاق اهلها .

** الله خصم كل من شهر نفسه بطريقنا ولم يقم بحقها واستهزأ بنا . . من خان لاكان ، ومن لم يتعظ بكلامنا فلا يمشي في ركابنا . .

** من لم يكن منشرحا منحقفا نظيفا عفيفا شريفا ، فليس من اولادي ولو كان ابني من صلبي ، وكل من كان من المريدين ملازما للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة

والزهد والورع وقلة الطمع فهو ولدي وان كان من اقصى البلاد .

** ما كل من وقف يعرف لذة الوقوف ، ولا كل من خدم يعرف آداب الخدمة .

** لا يكمل (الصوفي) حتى يكون محبا لجميع الناس مشفقا عليهم ساترا لعوراتهم ، فان ادعى الكمال وهو على خلاف ما ذكرناه فهو كاذب .

** الشريعة اصل والحقيقة فرع ، فالشريعة جامعة بكل علم مشروع ، والحقيقة جامعة لكل علم خفى ، وجميع المقامات مندرجة فيهما .

** يأمريدي : اجمع همة العزم وقوة شدة الحزام ، لتعرف الطريق بالادراك ، لا بالوصف .

** ولد القلب خير من ولد الصلب ، فولد الصلب له ارث الظاهر من الميراث ، وولد القلب له ارث الباطن من السر .

** من احدث في طريق القوم فليس منا ولا فينا ، قال الله تعالى : « وماأتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

** مادام : أنا وانت . . فلا حب انما الحب التمازج واختلاط الارواح بالاجساد .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠١

سلسلة مختارات اسلامية

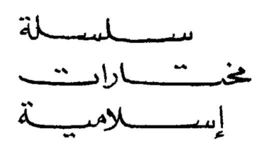
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

الإسلام وشهر الصوم

(١)

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

الإسلام وشهر الصوم

(١)

دار الفكر اللبناني



الأسباب التشريعية للصوم أربعة

ـ أ ـ

١ ـ تزكية الجسم ونقاهته ، فإن الانسان نوعاً تبقى في معدته الفضلات المتعقدة وربما تصل إلى مرتبة التعفن ، كما أن الأجزاء الباطنة العاملة على هضم الطعام وتصفيته ، وتوزيعه قد يعروها علل وإرهاق . فبالامساك عن الطعام والشراب هذه المدة . وفراغ المعدة منها تشتغل بتلك الفضلات فتأتي عليها وتعدمها ، وترتاح تلك الأجزاء العاملة مما يعدها لاستئناف عملها بنشاط بعد الفراغ من الصوم ـ وقد تكلم العلماء والأطباء حول هذا ، وأجمعوا على أن الصوم ضروري للبدن وقد قال أهل البيت (ع) عن جدهم (ص) : لكل شيء زكوة وزكوة الأجساد الصيام كما ضرب صلى الله عليه وآله كلمته المشهورة مثلاً يروى ويقال : صوموا تصحوا وقال (ص) : المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء ، وقد قال بهذه المناسبة كلمة إذا طبقها الانسان سلم

جسمه من كثير من الأمراض ان لم نقل من جميعها عدا مرض الموت : لا تجلس على الطعام إلّا وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه وبهذا المضمون أيضاً ورد : اجعله أثلاثاً ثلثاً لبطنك وثلثاً لنفسك ـ بفتح الفاء ـ وثلثاً للماء .

ولما لم يكن في الدين الاسلامي بجميع أحكامه ونظمه حكم ضرري أو حرجي وكان الغرض الأقصى من الصوم خدمة الانسان صحياً وروحياً ـ كان المريض أو من تقدم به السن إلى مرحلة الشيخوخة ممن يضرهم الصوم أو يكون به حرج أو مشقة تتجاوز المعتاد غالباً في سعة من الصوم ـ بل الصوم في حقه غير مشروع بمعنى أنه لو صام لا يقبل صومه ، ـ وكذا المسافر ـ فإن الصوم في حقه حرج نوعاً ، لبعده عن أهله ، وفقده أسباب الراحة والاستقرار . قال سبحانه : ﴿ وإن كنتم مرضى ، أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ﴾ .

ورب قائل : إذا كانت العلة في سقوط الصوم عن المسافر ، فقدان أسباب الراحة والاستقرار ، فلم لا يجوز صومه . إذا تيسرت له الأسباب كاملة في حال السفر ولا سيما في زماننا هذا ـ ويجاب : بأن هذا حكمة لا علة ، والحكمة لا يلزم اطرادها ، وقد لوحظ النوع أي الغالب من الناس في أقطار الأرض ـ لا الأشخاص ، والمسافر نوعاً يفقد هذه الأسباب ،

ولهذا كان الحكم عاماً لكل مسافر ـ ، ومثله عيناً تحديد المسافة بالكيلومتراً البالغة ثمانية وأربعين كيلومتراً تقريباً امتدادية أو ملفقة ، عند الامامية ، اعتماداً على ما صح لديهم عن أهل البيت عليهم السلام فكل من قطعها بأي واسطة كانت ـ كان مسافراً وعند أخواننا أهل السنة بمقدار يزيد على ذلك ـ فلا يقال : بأن هذا التحديد كان في زمان انحصرت وسائل النقل فيه بالحيوانات ، أما اليوم وقد تطور الحال واختصرت المسافات الشاسعة بقليل من الوقت ، فينبغي أن يلحظ التحديد بوسائل النقل .

ويجاب : بأن الحكم المذكور لوحظ به أيضاً نوع الناس ، والغالب ينحصر وسائل انتقالهم بغير الطائرات والسيارات وأمثالها ـ على أن المشرع تعالى شأنه المحدد للمسافة بهذه المساحة كان عالماً بما يحدث في المستقبل من هذه الوسائل الحديثة السريعة ومع ذلك لم يخبر ولم يقيد فنستكشف أنه تعالى أراد الاطلاق في سائر الأحوال ، والعبد متقيد بأمر مولاه « وكثيراً ما يتشدق الكثير من المتفلسفين بالاعتراض إرسالاً للكلام على عواهنه دون أن يعتمدوا على هدى أو بينة ، ولو كانوا يريدون العلم ، لسألوا أهله عنه .

ـ ب ـ

أن يشعر الغني حيث يجوع ويظمأ بألم الفقير الجائع الظامىء فيبعثه هذا الشعور لمؤاساته ، والرأفة به والإشفاق عليه ـ لأن

الانسان نوعاً لا يتألم لألم رجل يئن من جرح في جسمه ، أو مرض في أحد أعضائه إلّا إذا كان مصاباً بهذا الجرح وذلك المرض .

« إنما فرض الله الصيام ليستوي به الغني والفقير لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه ، فأراد الله تعالى أن يسوي بين خلقه ، وأن يذيق الغني مس الجوع والألم ليرق على الضعيف ، ويرحم الجائع » . وقد ورد في هذا المضمون روايات كثيرة وفي بعضها :

ليعرف أي الأغنياء ، مبلغ ذلك على أهل الفقر والمسكنة في الدنيا ، فيؤدوا إليهم ما افترضه الله لهم في أموالهم .

وكم في هذا التشريع من مصالح جليلة ومنافع عامة لو استجاب الأغنياء لها ، وحضعوا لحكم الله عز وجل ، وأنعشوا الطبقة البائسة بإخراج الحق الواجب لهم في أموالهم عدا المستحب منه ـ وأقلها أثراً زوال ما في نفس الفقير من حزازة وحقد على الغني وشعوره بأن له جميلاً عليه بسد خلته وانتعاشه بقضاء حاجته مما يبعثه لشكره واحترامه وتقديره ـ وهل ما يحدث في العالم من تذمر العمال ، وضجة الطبقات البائسة مما أدى ويؤدي إلى الثورات المتواصلة واختلال حبل الأمن ـ إلّا من استئثار الأغنياء بحقوق الفقراء ، واحتقارهم لهم وتكبرهم عليهم ، وأرجو أن يكون في قلوب قرّاء هذه الرسالة ـ متسع لهذه النصائح ، وتجارب لصداها إن شاء الله .

- ج -

أن يذكر الصائم بجوعه وظمئه جوعه وظمأه يوم الموقف الأعظم يوم العرض على الله عز وجل ـ ذلك اليوم الذي عناه الله بقوله : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ . ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ﴾ . ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ .

وأن يستكين الصائم بذلك ويخشع ـ لأن النفس إذا جاعت وظمئت انكسرت واستكانت وذلت وصغرت ـ خشوعاً يكون واعظاً له في العاجل ، ودليلاً له في الآجل ، ورائظاً له على أداء ما كلفه الله به ، وقد جاء عن الامام أبي الحسن الرضا عليه السلام : إنما أمروا بالصوم لكي يعرفوا ألم الجوع والعطش فيستدلوا على فقر الآخرة ، وليكون الصائم خاشعاً ذليلاً مستكيناً مأجوراً صابراً ، فيستوجب الثواب مع ما فيه من الإمساك عن الشهوات الحديث .

مضافاً إلى ما فيه من ترويض النفس ، وتهذيباً ، وكبح جماحها عن الاسراع لكل ما تميل إليه وهل تحل قوة الارادة والرجولة الكاملة وضبط الأعصاب في مقام الأحراج وإهاجة

كوامن الغضب والتماسك أمام التيارات الجارفة ـ إلا من هذه المرونة وهذه الرياضة ، ـ وأراد الله عز وجل لعبده أن لا تستحكم فيه عادة مشينة ولاّ يستبد به هوى مضل ، وأن يكون لعقله السلطة الأخيرة الدافعة إلى العمل حيث يكون راجحاً ، والرادعة عنه حيث يكون مرجوحاً .

ـ د ـ

ذكرى نزول القرآن الكريم على سيد الأنبياء ، محمد بن عبد الله (ص) ذلك الدستور الالهي المشتمل على كل ما يحتاجه الانسان في هذه الحياة إلى يوم القيامة الصالح له على اختلاف تطوراته العمرانية والكونية واتساع آفاقه العقلية ، بضميمة ما جاء به رسول الله (ص) من تفصيل لمجمله ، وتأويل لمتشابهه وشرح لكلياته ، لأن هذا كله مما صح عنه (ص) قرآن موحى به كما قال عز شأنه : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى ﴾ .

وقد أجمع المسلمون على أنه نزل في هذا الشهر العظيم كما قال الله عز وجل : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم ﴾ ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ . بمعنى أنه نزل جملة في هذه الليلة إلى اللوح المحفوظ ثم نزل نجوماً

نجوماً على رسول الله (ص) بواسطة جبرائيل عليه السلام بمناسبات شتى متتابعة إلى أن تكامل يوم الغدير الأعظم حيث استجاب رسول الله إلى ربه بنصب بن عمه علي عليه السلام علماً للأمة ، وخليفة من بعده عليها بهذه الآية : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ .

وأعظم بها ذكرى لم يسعد أهل الأرض منذ دحاها الله عز وجل بمثلها أبداً ، ذكرى دستور إلهي ضمن لهم سعادتهم في الدنيا إن مشوا على هداه ، وفي الآخرة إن فارقوا الدنيا مستضيئين بنوره ذكرى تلزم أهل القرآن بأن يحتلفوا بتكريمه وتقديسه ثلاثين يوماً ، يتدبرون آياته فرادى ومجتمعين آناء الليل وأطراف النهار ، معرضين عن كل شيء يشغلهم عنه إلّا ما يعود إلى نظام معاشهم باعتدال لا إفراط فيه ، وقد ورد : إن أفضل الأعمال في هذا الشهر قراءة القرآن وختمه وإهداء ثوابه لمن لهم على القارىء حق من الأموات .

معنى الصوم

الصوم لغة مطلق الامساك عن كل شيء بحسبه يقال : صام عن العمل إن أمسك عنه وكذا عن الكلام ومنه قوله تعالى حكاية عن الصديقة مريم (ع) : ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ .

وشرعاً ، الامساك في وقت خاص ـ منذ مطلع الفجر الصادق إلى أول الليل الذي هو عبارة عن غياب الشمس عن الأفق الذي يعيشر فيه الصائم ، ودخولها في أفق آخر . وعلامة ذلك ارتفاع الحمرة المشرقية إلى قمة الفلك ـ إذ أن هذه الحمرة من آثار الشمس فارتفاعها دليل على غيابها كما أن بقاءها دليل على عدم غيابها أما اخواننا أهل السنة وفقنا الله وإياهم ، فإنهم يرون دخول الليل بمجرد سقوط القرص ، ولو أنهم احتاطوا بالصبر عشر دقائق فقط لما ظهر هذا الاختلاف بصورة تدعو إلى النقد اللاذع من الغير ـ مضافاً إلى انه يضمن امتثال الواجب بصورة جازمة ـ الامساك عن أمور خاصة تبلغ العشرة . . وهي على سبيل الاجمال الأكل . الشرب مطلقاً . الجماع قبلاً أو دبراً فاعلاً أو مفعولاً به حياً كان المفعول به أو ميتاً حتى البهيمة فإن الفاعل يبطل صومه . الكذب على الله أو على رسله أو على خلفائهم الشرعيين . رمس تمام الرأس بالماء بمعنى أن المفطّر رمس تمام الرأس سواء رمس الجسد معه أم لا . إيصال الغبار الغليظ إلى الجوف عمداً ومنه الدخان الحاصل من التبغ أو التنباك . تعمد البقاء على الجنابة حتى مطلع الفجر . تعمد القيء أي الاستفراغ . الاحتقان بالمائع أي إيصال المائع إلى الجوف بطريق الحقنة .

شرائط الصوم

يشـ ـط في صحة الصوم : ١ ـ الايمان . فلا يصح من غير

المؤمن وأن كان مكلفاً به ويعاقب على تركه باعتبار تركه للايمان بالله ورسوله مع القدرة عليه بالبحث والاستعلام ، وهذا سارٍ في سائر الواجبات الاسلامية .

ب ـ العقل : فلا يصح من المجنون إطباقاً أو ادوارياً .

ج ـ البلوغ : فلا يصح من غيره إلاّ إذا كان مميزاً فيصح منه وإن كان غير مكلف به بلحاظ الثواب المترتب على صومه العائد عليه أو على أبويه .

د ـ النية : وهي قصد الامساك عن المفطرات الشرعية تفصيلاً أو إجمالاً من أول النهار إلى آخره ـ . وليكون أول جزء من النهار عن نية لا بد من سبقها عليه ، ويكفي في تحققها تبييتها عند النوم بحيث يطلع الفجر عليه ناوياً ، وكما تشترط في صحة الصوم ابتداء تشترط استدامةً بمعنى أن لا يقع أحد أجزاء النهار عن غير نية ـ كما إذا قصد المفطر أثناء النهار ثم عدم عنه لمانع خارجي أو مانع نفسي وبقي صائماً فإن صومه يبطل لأن جزء من النهار وقع من غير نية .

مبطلاته

تتلخص بما يلي :

أ ـ استعمال الأمور العشرة التي قصد الامساك عنها عن عمد والتفات وبحكمه إذا كان استعمالها عن جهل بالحكم فإن

الجاهل بالحكم كالعامد أما إذا استعملها عن سهو أو نسيان أو عن إكراه وإلجاء فلا يضر .

ب ـ الحدث الطارىء على المرأة من حيض أو نفاس .

ج ـ الجنون الطارىء ويحكمه الاغماء المودي بالشعور .

ـ مسوغات الافطار ـ

تنحصر باثنين :

« أ » ـ المرض الذي ينشأ من الصوم زيادته أو إبطاؤ ه ويكفي في مسوغيته الخوف العقلائي الحاصل من قول الطبيب الثقة البصير ، أو من التجربة فضلاً عن العلم .

« ب » ـ السفر الذي هو عبارة عن قطع المسافة المحدودة بالمساحة المشار إليها سابقاً من وطنه الذي اتخذه مقراً دائماً له أو من محل إقامته أي المكان الذي نوى الاقامة فيه عشرة أيام ، إلى مكان آخر ، شريطة أن لا يكون سفر معصية ، كما إذا سافر ليقدم دعوى كاذبة على غيره أو يشهد الزور عليه . أو يتآمر على إيذائه واغتياله أو ليحضر حفلة خلاعة ومجون وما إلى ذلك من غايات حرمها الاسلام ـ فإن الإفطار لا يسوغ له ، لأن منّة وفضل وليس المسافر لمعصية محلاً للمنة والفضل .

وبحكم المقيم في وطنه في وجوب الصوم وإتمام الصلوة ـ من كان السفر مهنة له ، كسائق السيارة العمومية ـ أو اتخذ عملاً من لوازمه السفر كما إذا ضمن بستاناً لم يقدر على بيع ثمرة والاستفادة منه إلا بالسفر في ما دون العشرة أيام كما أن من المنة والتوسعة على المسافر الذي يحرص على ثواب الصوم ـ انه لو رجع إلى وطنه قبل الزوال ولم يكن قد تناول المفطر ينوي الصوم منذ وصوله ويحسب له صوم يوم كامل ـ كما يحسب له لو سافر بعد الزوال ـ وللسفر أحكام مدونة في مظانها فليراجعها من أرادها ولو في الرسائل العملية ـ إذ لم أقصد من هذا الحديث سوى التنبيه والذكرى .

الصائمون

في الاسلام ثلاثة :

« أ »

العامة ـ أي النوع الغالب الذين يفهمون من الصوم مجرد الإمساك عن المفطرات المذكورة آنفاً المعبر عنه بصوم البطون ، دون أن يشعروا جوارحهم الأخرى بالصوم ، وكل ما فهموه في هذا الشهر أنهم جاعوا وظمئوا في النهار ، وقد يستعيضون عما فاتهم في الليل ، ولا سيما أهل الترف والثراء بأضعافه إجادة ودسومة وتفنناً ـ وهؤلاء إن لم يحرصوا على حلّية ما يتناولونه في

الافطار والسحر من أدام وشراب « لا قيمة لصومهم ، لأنهم يعصون الله في ما يريدون أن يصوموا عنه » وقد عني هؤلاء رسول (ص) بقوله : رب صائم ليس من صومه إلا الجوع والعطش .

فإن أقل ما يفرض على الصائم أن تكون لقمته التي يقيم بها أوده ، ويسد بها خلته ، والتي يتحول منها دمه ، وينبض به قلبه ـ أن تكون اللقمة حلالاً ؟؟ وإذا وضعنا الناس معظم الناس تحت المجهر ـ لا نجد إلا القليل القليل ـ « وقليل من عبادي الشكور » . لأن أموالهم أن سلمت من الربا وقد كتب على آكله ومستحله ـ أنه من أهل النار لقوله تعالى : ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ـ أي ومن عاد إلى استعمال الربا ولم يتب منه ـ . وعلى نفس المال المشتمل عليه بالمحق لقوله تعالى ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ . ـ لا تسلم من اشتمالها على السرقة والغصب ، ـ قد لا تسلم من كونها مجهولة المالك كرواتب الموظفين الذين لا يرجعون بحكمها إلى من وجب عليهم تقليده وأمثالهم ممن يستفيدون من مال الدولة وهو مال مجتمع من جهات عديدة لا يقرها الاسلام ـ أو كونها ثمناً لحرام كالمسكر بأقسامه أو مختلطة به ، وإن سلمت من هذا كله ـ لا تسلم من اشتمالها على الحقوق الشرعية كالزكوة والمظالم والخمس وقد اعتبر الله عز وجل هذه الحقوق بعد ثبوتها في المال ديوناً للفقراء متعلقة في نفس الأعيان لا يجوز للمالك أن

يتصرف بها قبل أن يخرج الحق منها ، أو يفرزه عنها بانياً على إيصاله لأهله .

وأين الصادقون في إدعائهم الايمان من الأغنياء من التجار وقد قال رسول الله (ص) : التاجر فاجر ما لم يتفقه وقال من اتجر ولم يتفقه . فقد ارتطم في الربا ثم ارتطم ، أم في المهاجرين المتنافسين على بناء القصور المتهالكين على الشهوات دون أن يعرفوا ما عليهم مما لهم على هدى القرآن والسنة عن طريق من يجب عليهم تقليده ـ أم في الزعماء الانتهازيين الذين يبررون أي واسطة توصلهم إلى مطامعهم .

أغفلوا عن قوله تعالى : ﴿ والذين يبخلون بما آتهم الله من فضله سيطوقون ما بخلوا يوم القيامة ﴾ . وعن قول الصادق عن جده صلى الله عليه وآله : ما من عبد منع من زكوة ما له شيئاً إلاّ جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً به في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ . من الحساب وهو قول الله عز وجل : ﴿ سيطوقون ما بخلوا يوم القيمة ﴾ . وقوله : (لا يحل لرجل ثبت لنا في ماله الخمس ـ أن يتصرف فيه قبل أن يؤدي لنا منه الخمس) .

« ب »

الخواص ـ وهم الطبقة الوسطى الذين يضيفون إلى صوم بطونهم عن الحرام ـ صوم جوارحهم عنه فتصوم ألسنتهم عن

الكذب والنميمة والزور والبهتان والحسد والسباب والغيبة وما إلى ذلك مما يصدر عن اللسان ـ لأن ارتكاب هذه يحبط أجر الصائم أي تذهب بأجره فكيف بما هو أعظم منها مما ذكرناه ، وتصوم أعينهم عن النظر إلى ما حرم الله عليه النظر إليه كالنظر إلى الأجنبيات اللواتي لسن من محارمهم استجابة لقوله تعالى :

قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم «فلا يرتادون أماكن اللهو والمجون أو غيرها مما لا نعرف أسماءها مما قد شاع بين أهل الغش والفجور ـ وتصوم سماعهم عن الاستماع إلى سباب المؤمنين وغيبتهم ، وقول الفحشاء والزور ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللهو معرضون ﴾ . وتصوم فروجهم عن غشيان من لا تحل لهم من النساء لقوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ الخ . وتصوم أيديهم عن استعمالها في إيذاء المؤمنين وضربهم وسرقة أموالهم أو في اللعب بالورق وأمثاله من أنواع القمار ، وتصوم أرجلهم عن استعمالها بالسعي إلى إشاعة المنكر والتعاون مع أهله ، وترويج الضلال والدعاية إلى الظالمين أعداء الله المتجاهرين بعصيانه .

ليس الصيام من الطعام والشراب فقط ، ولكن إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك وبطنك وفرجك واحفظ يدك وفرجك واكثر السكوت إلاّ من خير وأرفق بخادمك .

وقال رسول الله (ﷺ) لجابر بن عبد الله : يا جابر هذا شهر

رمضان من صام نهاره وقام ورداً من ليله وعف بطنه وفرجه وكف لسانه خرج من الذنوب كخروجه من الشهر ، فقال جابر يا رسول الله ما أحسن هذا الحديث فقال رسول الله : يا جابر ما أشد هذه الشروط .

ويضيفون إلى صوم بطونهم وجوارحهم ما يزكي هذا الصوم من تفقد للبؤساء ورحمة للفقراء وإعانة للمنكوبين ، وجبر لقلوب اليتامى بما يبذلونه بسخاء من أموالهم أو يؤثرونهم به على أنفسهم .

وقد ترتفع نفوس البعض من هذا القسم ، وتتعالى هممهم ، فيترقبون دخول الليل ليتخذوه ساتراً لأعمالهم التي لا يحبون أن يعرف بها إلا الله عز وجل سعياً في قضاء حاجة مؤمن أو إبقاء على بيوت عزيزة مستورة ، أو صوناً لوجه كريم عن إراقة شيء من مائه للئيم ـ إقتداء بسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم . وقد كان لا يتناول طعام الإفطار إلا بعد أن يتفقد بيوت المدينة كلها ويفرغ من تأمين أهل العوز فيها بإيثاره البعض منهم على نفسه وأهله ، وتوزيع البعض على أصحابه القادرين .

هؤلاء هم الصائمون حقاً الذين اتخذوا من صوم هذا الشهر ومما يزكيه ـ ما يستدفعون به البلاء في الدنيا ويؤَمِّنون به مستقبلهم في الآخرة .

« ج »

الربانيون ـ الذين تعالت بهذا الشهر نفوسهم وأشـرقت بالاسلام بصائرهـم فأضافوا إلى صوم بطونهم وجوارحهم صوم قلوبهم ـ فأشغلوها في التفكير في الله عز وجل وآياته وتدبر ما يتلونه من كتابه وفي ما يعود على أمتهم بالخير والاصلاح فلا يكاد يدخل في خلدهم أن يعصوا الله ، أو يؤذوا عباده وهؤلاء هم عباد الرحمن حقاً الذين وصفهم بكتابه بما وصفهم به « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، انها ساءت مستقراً ومقاما الآيات » ، ـ وقوله تعالى : والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً . سبحانك فقنا عذاب النار وأولئك هم المقربون الذين يستدفع بوجودهم البلاء وتستنزل الرحمة وتستمطر السماء .

أقسام الصوم

ينقسم الصوم باعتبار ما ورد فيه آيات وروايات ، إلى أربعة أقسام : محرم ، وواجب ، ومكروه ، ومستحب .

المحرم منه تسعة :

الأول ـ صوم يومي العيدين الفطر والأضحى ، حيث يثبت الهلال لأن الله عز وجل أرادهما مظهراً من مظاهر التراحم والتعاطف ، وتبادل التهاني والزيارات بين المسلمين بل بينهم وبين غيرهم أيضاً في مجتمعاتهم وبيوتهم وهذا لا يكمل مع الصوم ، مضافاً إلى أنه ـ بالنسبة إلى عيد الفطر ـ إيذان بانتهاء الصوم الواجب على عامة المكلفين ـ ولهذا ورد النهي عنه ـ فصومه مضافاً إلا انه مخالفة لله عز وجل بدعة ، والبدعة إدخال شيء في الدين لم يكن منه .

الثاني ـ صوم أيام التشريق بمنى خاصة ، وعلّل : بأن القوم زوّار الله فهم في ضيافته ولا ينبغي للضيف أن يصوم عند من زاره وأضافه ، وفي الحديث عن الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام : بعث رسول الله (ﷺ) بديل بن ورق الخزاعي على جمل أوراق أيام منى فقال : تنادي في الناس ألا لا تصوموا في هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب .

الثالث ـ صوم اليوم الثلثين من شعبان حيث يشك بأن منه أو من رمضان ـ بنيَّة الفرض وانه من رمضان ـ وإنما كان حراماً بهذه النية لأنه يرجع إلى التشريع دون استناد إلى حجة مثبتة والصوم عبادة ، والعبادة لا تصح إلا بداعي امتثال الأمر المتعلق بها ـ نعم

لو صامه برجاء المطلوبية ، أو نواه قضاء عما في ذمته ، أو استحباباً وتبين انه من رمضان يصح صومه ويحسب من رمضان ـ أما وجه الصحة فلأنه أتى به بداعي الأمر الوجوبي المحتمل أو بداعي الأمر القضائي أو الاستجابي وهذا الداعي كاف في الصحة ـ وأما وجه احتسابه من رمضان فلأنه لا يقع في رمضان غيره وحيث لا يصح غيره ـ تعـيّن أن يكون منه مضافاً إلى النص الصريح بذلك .

الرابع ـ صوم نذر المعصية بأن ينذر المكلف . لله علي نذر إن قتل زيد أو نهب عمرو مثلاً لأصومن يوماً أو يومين ـ وهذا محرم لأن فيه شماتة ولؤماً وهو مبغوض لله عز وجل ولا يطاع الله من حيث يعصى وبتعبير آخر أن الصوم بهذا الداعي مبغوض لله عز وجل والنذر لم يكسبه أمراً لعدم انعقاده إذ يعتبر في انعقاده وصحته الرجحان .

الخامس والسادس ـ صوم الصمت بأن يلتزم بالسكوت وعدم الكلام يوماً أو يومين وصوم الوصال بأن يلتزم بصوم يومين فـأكثر دون أن يتخللهـا إفطار في الليـل ـ وكلاهمـا غـير مشروع عندنا ـ فإن قيل : أن صوم الصمت موجود في الشرائع السابقة وقد حكى الله عز وجل قضية مريم العذراء قبيل ولادتها للمسيح عيسى عليه السلام ، وتخلصها من جواب القوم والحديث معهم ـ بالتجائها إلى نذر الصمت بقوله في القرآن

الكريم : ﴿ إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ وقضية زكريا حين بشره يحيى حين طلب منه عز وجل أن يجعل له آية ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث أيام سويا ﴾ .

السابع ـ صوم المرأة استحباباً مع نهي زوجها لها ـ لأن فيه مزاحمة لحق الزوج ومخالفة له ، وطاعة المرأة لزوجها أفضل عند الله من صومها ـ أما إذا كان الصوم واجباً فلا حق للزوج عليها فيه لأن حق الله مقدم على حقه .

الثامن ـ الصوم في السفر فإن الله عز وجل الذي فرض الصوم على عباده أسقطه في السفر عنهم ولا يمكن أن يتقرب العبد إلى ربه بشيء نهى عنه ـ إلا في موارد سبعة يصح الصوم فيها للمسافر :

١ ـ لو نذر الصوم في السفر .

٢ ـ صوم الثلاثة أيام بدل الهدي في الحج لمن كان عليه هدي ولم يقدمه .

٣ ـ صوم الثمانية عشر يوماً بدل البدنة ، لمن وجبت عليه حيث يفيض من عرفات قبل الغروب .

٤ ـ صوم كثير السفر وهو الذي يكون السفر مهنة له كسائق السيارة أو البحارة الذين يعيشون في البحر مسافرين دائماً وسائق الطيارة أو يتخذ عملاً من لوازمه السفر كما إذا تاجر في شيء

يتوقف عمله المثمر فيه على السفر كما إذا ضمن بستاناً وتوقف بيع ثمره على أن يسافر في كل أسبوع لمكان يستغرق المسافة الشرعية مدة من الزمن .

٥ ـ المسافر الذي ينوي الاقامة عشرة أيام في مكان خاص .

٦ ـ المسافر المتردد بين الاقامة وعدمها إلى ثلاثين يوماً فإن عليه أن يصوم في المكان المتردد فيه بعد الثلاثين .

٧ ـ المسافر سفر معصية كما إذا سافر ليشهد الزور أو ليسرق مثلاً . فإن الصوم واجب لأن إسقاط الصوم منة ـ ولا منة على المسافر للمعصية .

٨ ـ من موارد تحريم الصوم المريض الذي يخشى زيادة المرض من صومه فإن صومه حرام لأن الله عز وجل يريد بعباده اليسر لا العسر .

وللواجب من الصوم عشرة

الأول ـ صوم شهر رمضان .

الثاني ـ صوم شهرين متتابعين في كفارة الظهار والظهار ـ هو أن يقول الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي . فإذا قالها ، حرم عليه الدنو منها حتى يكفر ـ بعتق رقبة مؤمنة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين .

الثالث ـ صوم شهرين متتابعين على من يفطر عمداً في شهر رمضان مخيراً بينه وبين التعتق وإطعام ستين مسكيناً ـ أما إذا أفطر على حرام فإن عليه أن يجمع بين الخصال الثلاثة .

الرابع ـ صوم شهرين متتابعين على من قتل مؤمناً خطأ بعد العجز عن عتق رقبة والدية لأهله قال الله تعالى : في سورة النساء الآية ٩١ : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدَّقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

الخامس ـ صوم ثلاثة أيام في كفارة اليمين بعد العجز عن الكفارة قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتم ﴾ .

السادس ـ صوم ثلاثة أيام على من اضطر إلى حلق رأسه إما لمرض استدعى الحلق أو لأذى من الهوام وذلك قبل أن يبلغ الهدي محلَّه أي قبل مجيء وقت ذبح الهدي أو نحره ووقته عندنا يوم العاشر من ذي الحجة بعد نزوله إلى منى ورمي الجمرات ، وإذا حلق قبل هذا الوقت فعليه الفدية : إما بصيام ثلاثة أيام أو بصدقة أي بإطعام ستة مساكين أو عشرة ، أو بنسك أي بذبح

شاة ، والنسك جمع نسيكة وهي الذبيحة لقوله تعالى في سورة البقرة ٩١ : ﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محلّه ، فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ .

السابع ـ صوم عشرة أيام على من لم يقدر على الهدي في حج التمتع لقوله تعالى : ﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾ .

الثامن ـ الصوم على الحاج الذي يقتل صيداً متعمداً وهو محرم حيث يختار الصيام لقوله تعالى في سورة المائدة الآية ٩٤ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياماً ﴾ . ومعنى ذلك : إن من قتل صيداً وهو محرم سواء كان إحرامه للحج أو للعمرة فكفارة واحدة من ثلاثة :

١ ـ أن يذبح من النعم ما يشابه الصيد في الخلقة ، فإن كان الصيد من النعام فيذبح جملاً ، وإن كان من حمر الوحش فيذبح بقرة وإن كان ضبياً فيذبح شاة ـ وقيل ما يماثل الصيد في القيمة ويشتري بثمنه من النعم ليذبح هدايا يبلغ الكعبة كناية عن الذبح بمكة .

٢ ـ أن يقوّم ما يعادل الصيد من النعم ويشتري به طعاماً يعطى للمساكين .

٣ ـ أن يقدّر الطعام المشتري به أصوعاً ويصوم يوماً عن كل صاع .

التاسع ـ صوم النذر حيث يكون متعلقة راجحاً .

العاشر ـ صوم الاعتكاف ـ فإن من لوازم الاعتكاف لمن التزم به بنذر وشبهه . الصوم ثلاثة أيام إذ لا اعتكاف بدون الصوم ، والاعتكاف عبارة عن الإلتزام بالمكث في مكان شريف كمسجد الكوفة مثلاً ثلاثة أيام بلياليها صائم النهار دائباً على الدعاء والابتهال إلى الله عز وجل لا يغادره أثناءها إلا لحاجة ضرورية لا يمكن قضاؤها في المسجد ، وهو موضوع عبادي من أراد الوقوف على ما يعتبر فيه من شروط وموانع فليراجعه في مظانه من كتب الفقه .

والمكروه من الصوم خمسة

الأول ـ الصوم يوم عرفة لمن خاف أن يضعفه عن الدعاء فيه فإنه يوم تضرع وابتهال وثناء على الله عز وجل ودعاء وإلحاح واستغاثة وتوسل ، ولهذا يستحب أن يستعمل المؤمن كل شيء يتقوى به على الدعاء .

الثاني ـ صوم اليوم المحتمل كونه عيداً كما إذا ادعى الرؤ ية جماعة لا يثبت شرعاً العيد بشهادتهم وحصل الظن بصدقهم فذلك اليوم أصبح مشكوكاً هل هو أول يوم من شوال أو آخر يوم من رمضان ففراراً من الأثر الوضعي المترتب على صوم يوم العيد يسافر المؤمن ليتخلص بإفطاره في السفر من ذلك الأثر ومن احتمال كونه واجب الصوم .

الثالث ـ صوم الضيف استحباباً بدون إذن مضيفه ، فإن في صيام الضيف في بيت من أضافه أذية له ، وإدخال السرور على المضيف المؤمن بالأكل عنده أفضل من الصوم ، إلا أن يكون المضيف بخيلاً وشحيحاً يعد صوم ضيفه مزجاً له وتنفيساً عن كربته .

الرابع ـ صوم الإمرأة إستحباباً بدون أمر زوجها ـ أما مع نهية لها ومزاحمة الصوم لحقه فإنه يكون حراماً كما مر .

الخامس ـ صوم الولد بدون إذن والده أما مع نهيه له فقد يكون حراماً لأن طاعة الوالدين أفضل من الصوم استحباباً .

والمستحب

أما المستحب من الصوم فكثير لا حصر له إذا استثنيت الأقسام الثلاثة ولم يكن مزاحماً لحقوق أخرى واجبة على المؤمن

كخدمة من تجب نفقته عليه من عياله وأولاده وأبويه ، ولم يحصل الضرر منه صحياً ـ وإلا لكان حراماً أو مكروهاً باعتبار كثرة المفسدة المزاحمة لتلك الحقوق وقلتها ، وبتعبير واضح ، يستحب الصوم للمتمكن القادر الغير المزاحم بحقوق واجبة مستحبة يلزم من الصوم ضياعها أو التهاون بها .

والمؤكد منه صوم ثلاثة أيام من كل شهر أول خميس منه وآخر خميس وأول أربعاء من العشر الثاني ، ويوم الغدير وهو الثامن عشر من ذي الحجة يوم إكمال الدين وإتمام النعمة بتعيين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة بعد النبي (ﷺ) . ويوم مولد النبي صلى الله عليه وآله وهو السابع عشر من ربيع الأول عند الشيعة واليوم الثاني عشر عند السنة ، ويوم مبعثه الشريف وهو السابع والعشرون من رجب ويوم دحو الأرض وهو الخامس والعشرون من ذي الحجة ، وتمام رجب وتمام شعبان .

وقد ورد في ثواب صوم هذه الأيام أخبار كثيرة من أرادها فليراجعها في مظانها وأقل ما ورد فيها : أن نوم الصائم فيها عبادة ونفسه وصمته تسبيح ، وعمله متقبّل ، ودعاءه مستجاب وخلوق فمه أطيب من رائحة المسك ، وتدعو له الملائكة حتى يفطر ، وله فرحتان فرحة عند إفطاره بالمغفرة ، وفرحة حين يلقى الله تعالى بدخول الجنة .

عيد الفطر وصلاته

هو يوم ندب الله المسلمين عامة أن يجتمعوا في صبيحة اليوم الأول من شهر شوال بعد انقضاء شهره تعالى ، فيؤدون صلوات العيد مجتمعين - بعد التفاتهم للطبقات البائسة فيهم ، وإنعاشها بزكوة الفطرة وغيرها مما وسع الله عليهم به ، ثم يتبادلون فيها بعدها المصافحة ، متسامحين ، متراحمين ، متناسين كل ما بينهم في الماضي من هنات وتبعات ، متنافسين في مجالات العفو والصفح عمن أساء إليهم ، وشكر من أحسن إليهم - ليتخذوا منها وسيلة إلى الله عز وجل الرؤوف بعباده الرحيم بهم ليغفر لهم ما تقدم من ذنبهم ويفوزوا بجائزته تعالى لهم ، عازمين على استئناف حياة جديدة هانئة في بيوتهم ومجتمعاتهم وأماكن أعمالهم ، فيذهب رب البيت لبيته فيهب لعائلته كل حق له عليها ، لتهب له كل حق لها عليه - ، ثم ينعطف على أرحامه وجيرانه ثم أهل بلده فيتبادلون هذه الهبات الكريمة ، -

ثم يرتفع العاقل منهم إلى مستوى الأماثل الأوفياء ، فيتفقد أمواته الأقرب منهم فالأقرب بصلاة قُربيّة . تزيد في حسناتهم إن كانوا من المحسنين ، وتخفف من سيئاتهم إن كانوا من المسيئين ، . أو تذهب بما بقي منها - ليقينه بأن عمل المسلم لم ينقطع بالموت إذا كان له في حياته عمل له أثر أو دائم الأثر من ولد

صالح أو رحم صالح أو صديق صالح ، مستمداً هذا اليقيم من نبيّه سيد الرسل (ﷺ) القائل : إذا مات إبن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، ولدٍ صالح . أو صدقة جارية ، أو ورق علم ينتفع به ـ ومن قول الله عز وجل أصدق القائلين : ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ .

وكم من البون الشاسع والفرق الواضح بين هؤلاء الذين يقصرون كل همهم على أن يكونوا من الفالحين بزكـوتهم وصلواتهم ، وينظرون إلى العيد وسيلة إلى إكمال عملهم وأخذ أجرهم ، وبين من ينظرونه وسيلة إلى اللعب واللهو والإنطلاق في اختيار المأكولات والمشروبات ، ثم في مجالات التنافس في الملبوسات ، وارتياد الأماكن الموبوءة بالفساد والميوعة ـ ليفتحوا للشيطان بابه من جديد .

لهذا فعلى المسلم إذا أصبح يوم الفطر أن يقصر همه على ما يعدُّه لاستلام جائزته ، فيغتسل امتثالاً لأمر الله واستنانا بسنة محمد بن عبد الله (ﷺ) ، ويلبس أنظف ثيابه ثم يتوجه بخشوع بعد إعطاء زكوة الفطرة إلى حيث يجتمع أهل بلده في مكان واسع تحت السماء ، أو في بيت الله الجامع للبلد فيؤدي الصلواة جماعة متأملاً بما يسمعه من الامام في القنوت وغيره ثم يستمع للخطبة ، وإن لم يتيسر له يؤديها منفرداً ـ وصلواة العيد ركعتان

بتسع قنوتات بالدعاء المأثور يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد سورة الشمس ويكبر خمس تكبيرات يقنت بعد كل تكبيرة ، ثم يركع بعد الخامسة ويسجد ثم يقوم فيقرأ في الثانية بعد الحمد سورة الغاشية ، ثم يكبر أربع تكبيرات ، يقنت بعد كل تكبيرة ثم يركع بعد الرابعة ويسجد ويتشهد ـ وإن لم يحسن سورة الشمس والغاشية فليقرأ أي سورة من السور التي يحفظها كما أنه إن لم يحسن القنوت بالمأثور فليقنت بما يحفظه من دعاء .

سلسلة مختارات اسلامية

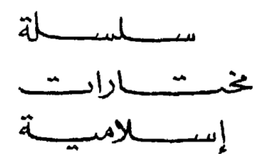
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

الإسلام وشهر الصوم

(٢)

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

الإسْلَام
وَشَهْر الصّوم
٢

دار الفكر اللبناني



خطبة النبي صلى الله عليه وآله
في شهر رمضان

انه قد أقبلَ إليكم شهر الله بالبركة ، والرحمة والمغفرة ، شهر هو عند الله أفضل الشهور ، وأيامه أفضل الأيام ، ولياليه أفضل الليالي ، وساعاته أفضل الساعات ، هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله جُـعلتم فيه من أهل كرامة الله ، أنفاسكم فيه تسبيح ، ونومكم فيه عبادة ، وعملكم فيه مقبول ، ودعاؤكم فيه مستجاب ـ فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة ، وقلوب طاهرة ، أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه .

فإن الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم ، واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه ، وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم ووقروا كباركم وارحموا صغاركم ، وصلوا أرحامكم ، واحفظوا ألسنتكم ، وغضوا عما لا يحل النظر إليه أبصاركم ، وعما لا يحل الاستماع إليه

أسماعكم ، وتحننوا على أيتام الناس يتنحن على أيتامكم ، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم ، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم ، فإنها أفضل الساعات ـ ينظر الله فيها إلى عباده ، يجيبهم إذا ناجوه ، ويعطيهم إذا سألوه ، ويستجيب لهم إذا دعوه .

أيها الناس ـ إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ، ففكوها باستغفاركم ـ وظهوركم ثقيلة بأوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم ، واعلموا أن الله أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين وأن لا يروّعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين .

أيها الناس ، من فطّر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق نسمة ومغفرة لما مضى من ذنوبه ـ فقيل يا رسول الله : ليس كلنا نقدر على ذلك فقال : اتقوا الله ولو بشربة من ماء .

أيها الناس ، من حسَّن منكم في هذا الشهر خُلقه كان له جوازاً على الصراط يوم تزل فيه الأقدام ، ومن خفّف في هذا الشهر عما ما ملكت يمينه خفف الله عليه حسابه ، ومن كف فيه شره كف الله عنه غضبه يوم يلقاه ، ومن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه ، ومن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه ، ومن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه ، ومن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار ، ومن أدى فيه فرضاً كان له

ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور ، ومن أكثر فيه الصلاة عليّ ثقَّل الله ميزانه يوم تخف الموازين ، ومن تلى فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور .

أيها الناس ـ : إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عليكم وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم ، والشياطين مغلولة فاسألوا ربكم أن لا يسلطها عليكم .

قال علي رضي الله عنه بعض الخطبة : فقمت فقلت : يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر فقال عليه الصلاة والسلام : يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله » .

شهر رمضان

مظهر من مظاهر الرحمة على الفقراء والأغنياء

إن أحد الأسباب لتشريع الصوم هو أن يحسّ الغني بألم الجوع والعطش ، ليشعر بألم الفقير ، فينبعث بهذا الدافع المشترك بينهما إلى مؤاساته وتفقده ـ لأن الانسان لا يشعر بألم غيره ، ويقف

عند شكواه وضجره ، إلّا إذا أصيب بمرضه وابتلي بألمه ـ فإذا مررت بإنسان يضجر من وجع عينيه ، أو يصرخ من ألم في ضرسه ، أو يئن من حـمّـى حلت به ، وكنت قد منيت به يوماً من الأيام ، تقف عنده راحماً له شفوقاً عليه ثم تجدد شكرك لله عز وجل ، إذ لم يبتلك كما ابتلاه ، وشفاك مما دهاه ، وإذا علمت بقلة ذات يده قلة تعجزه عن مراجعة الطبيب وشراء الدواء ، تعينه بما يسد عوزه ، وقد تؤثره على نفسك ، وإن لم تخدمه مباشرة تتحرى خدمته تسبيباً فتكون واسطة له عند من يقدر .

وقد أراد الله عز وجل أن يلمس الغني القادر ألم الفقير ، ويبتليه بألمه ، ليقف عنده إذا رآه ، أو يتفقده إن لم يره فيسد عوزه وينبري لمواساته مما وسع الله به عليه وشمله به من عنايته ولطفه ، لتكون الحجة عليه أتم وأكمل ـ فإن من الناس من يتصامم عن استماع الموعظة بالكلام ، ويتجافى عن الإتعاظ بالمنطق السديد الحكيم ، ولا يرتعد ويتأثر إلا حيث تخزه بخاصرته وتدميه .

ولما كان تعالى شأنه وعظمت آلاؤه يعلم شح العبد بماله ، ومزيد حرصه عليه ورغبته الملحة في الزيادة ـ وعده ومن أوفى بعهده ووعده من الله عز وجل ـ بالتعويض عما ينفقه على الفقير بأضعافه في الدنيا والجزاء الأوفى له في الآخرة . بقوله تعالى : ﴿ والذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع

عليم ﴾ وقوله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم) . أي فيضاعفه له في الدنيا وله أجر كريم في الآخرة .

وحاشا لله عز وجل أن يخلف وعده لمن بذل في سبيله . وابتغاء مرضاته وأقرضه قرضاً حسناً بما يدفعه للفقير في شهره هذا ـ شريطة أن يكون هذا العطاء خالصاً لله تعالى دون أن يتبعه ما يحبطه ويودى بأجره من المن على الفقير والأذى له بالتباهي به ، والاعلان له حيث لا يترتب عليه سوى حب الظهور أو الكشف لحال الفقير كما قال عز وجل : ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ﴾ .

وقد جعل الله عز وجل حكم من يُتبع عطاءه بالمن والأذى حكم من ينفق رياء أو ينفق غير مؤمن بالله واليوم الآخر وشبّه هذا العطاء بتراب على صخر ، والمن بالعطاء بالمطر الغزير النازل على ذلك التراب نزولاً لا يغادر له أثراً ، بذلك الأسلوب المتعالي المعجز قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صداقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم

الكافرين ﴾ ـ كما ضرب مثلاً لمن ينفق أمواله مخلصاً دون أن يتبع ما أنفق بالمن والأذى ببستان في محل مرتفع مكشوف معرَّض للغيث يتعاهده دائماً عند الحاجة ويبقى شجره مطرداً في نموه وازدهاره دون أن يطرأ عليه ما يوقف هذا الإطراد فيتضاعف ثمره عدداً وازدهاراً ـ بقوله عز من قائل : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾ .

وليس شيء أسر للمسلم الميسور من شوره على بيت كريم خال إلا من التجمل والتعفف لأنه أمنيته وأنشودته ، وربما كان الكثير من الفقراء يوطنون أنفسهم على الاستدانة أثناء السنة ويطلبون من الدائن تأجيل دينه إلى شهر الله لما يعلمونه بحكم العادة من تيسر سبل الوفاء بما يدفع إليهم علانية وسراً ـ وليس سرور الفقير بقضاء حاجته وسد خلته بأكثر من سرور الغني المؤمن بتوفيقه وسعادته سعادة في دنياه ببركة تظهر في ماله وذريته وعافيته ـ وفي آخرته بمغفرة من الله له وصلوات منه عليه .

وكم من المسلمين سعداء ارتفعت بهم هممهم فحرصوا على أن تبقى أعمالهم الخيِّرة مستمرة حتى بعد موتهم . بوقف قسم من أملاكهم لينفق ريعها على الفقراء في هذا الشهر العظيم .

ويؤيد هذا ما ورد في تفسير قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا

ينفقون قل العفو ﴾ . من أن المراد بالعفو المال الخالص الذي ليس فيه شائبة دين أو ظلم وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وفي أموالكم حق للسائل والمحروم ﴾ ـ أن أولئك المؤمنين بعد تصفية أموالهم من الحق الشرعي ـ يفرضون فيه قسماً خاصاً في كل يوم أو أسبوع أو شهر للسائل والمحروم .

الصدقة وأثرها

الصدقة : عبارة عن المال الحلال الذي يدفع للمحتاج لا لرغبة فيه ولا لرهبة منه . ولا لأنه حق مفروض له كالنفقة المفروضة للزوجة أو للولد أو للوالدين . بل يدفع استحباباً لوجه الله عز وجل برجاء مثوبته والتقرب إليه .

وتتفاوت المثوبة عليها بتفاوت مواردها . فالرحم أي من شده إليك أواصر النسب والسبب أولى من غيره لقوله (ﷺ) : لا صدقة وذو رحم محتاج ، وتتأكد إذا كان الرحم كاشحاً أي مبغضاً حسوداً ـ بقصد صلته واستمالته لقوله (ﷺ) وقد سئل أي الصدقة أفضل ؟ : على ذي الرحم الكاشح .

والمؤمن التقي أولى من غير التقي ، والعالم العامل أولى من الجميع ، وترتفع المثوبة قدراً إذا كان في وجوده إنعاش للدين وترويج له ، وإحياء للسنة ، وإماتة للبدعة ، وقد جاء في الحديث : إن الصدقة على العالم العامل ـ إذا كان كذلك ـ بمئة ألف .

ويكاد العاقل يشرف على القطع بثوابها وتفاوت هذا الثواب أيضاً ، إذا كان يؤمن بالله عز وجل وقدرته وسعة ملكه ، وبأن الحياة هبة منه تعالى وتأمينها رحمة منه وفضل ، ويؤمن بالحياة بعد الموت ليجازى كلٌ بما عمل ، المحسن في الدنيا على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، بقطع النظر عما ورد من أخبار متواترة في فضلها وسعة هذا الفضل وتحديده لأن العطاء لوجه الله ، أو في سبيل الله عطاء لله في الحقيقة وإكرام إنسان لله وفي الله إكرام لله ـ كمن يعطي ولد لأجل ولده ، ويكرم إنساناً لأجل صديقه فيرجع هذا العطاء وذاك الإكرام مآلاً إلى الوالد والصديق .

وقد عرف في تاريخ الكرماء من بني البشر الكثير الذين يكادون أن ينسوا أنفسهم في سبيل مبادلة من أسدى لهم معروفاً وابدائهم بمكرمة أو دفع مظلمة ـ فكيف بمن لا تنقص خزائنه ، ولا يبيد ملكه ، ولا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً العلي القدير مالك السماوات والأرضين جلت عظمته وتعالى شأنه .

وما الصدقة إلا متجر من أعظم المتاجر غاية وأضمنها ربحاً ، وأعودها على الانسان نفعاً ، ندب الله عز وجل إليها امتحاناً لهم ، ورحمة بهم ، واستهدافاً إلى غاية إنسانية لا يدرك مداها إلا من تكفل بالتعويض عليها ، وعلاج من أسرع العلاجات تأثيراً وأرجاها قمعاً للداء ، ودفعاً للبلاء .

الصدقة تدفع البلاء .
الصدقة يداوي بها المريض.
ويستنزل الرزق بالصدقة.
وتدفع بها ميتة السوء.
وتحفظ بها الذرية.
ويطول بها العمر.
ويربيها الله عز وجل لصاحبها في الآخرة.

قال الله سبحانه : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله واسع عليم ﴾ وعن علي (ع) قال : قال النبي (ﷺ) تصدقوا ولو بشق تمرة واتقوا النار ولو بشق تمرة فإن الله يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يجعلها له مثل جبل أحد .

تنبيه يشتمل على أمور خمسة

ـ أ ـ

عرف ان الصدقة يبطل أثرها المنُّ بها قال الله تعالى : ﴿ ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ وقال الصادق عليه السلام قال رسول الله (ﷺ) : من أسدى إلى المؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل الله صدقته . وقال : لا يدخل الجنة ثلاثة : العاق لوالديه ، والمدمن للخمر ، والمنان بالخير إذا عمله .

- ب -

انها لا تتحقق إلّا بالمال الحلال ، فلو تصدق بالمال الحرام أو المخلوط به لا تصح بل ربما يعاقب الدافع لتصرفه بمال غيره . سئل الامام الصادق (ع) عن سبب نزول هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه حتى تغمضوا فيه . واعلموا أن الله غني حميد ﴾ آية ٢٦٦ من سورة البقرة .

متعلق الصدقة الفقير الذي لا يملك مؤونة سنته لا بالفعل ولا بالقوة ، ويتفاوت الصدقة عليه أثراً بتفاوت حاجته وضرورته وسعة عياله وقلتهم ، أما مع العلم بحاله فواضح وأما مع الشك فيكفي ظاهر الحال ، والتعرض للسؤال ، فمن دفع له معتمداً على هذا الظاهر ترتب على دفعه الأثر وإن كان في الواقع غير فقير ـ سوى أن الأثر الوضعي العاجل لا يترتب إلا على الواقع ولذا يكره رد السائل لاحتمال أن يكون صادقاً ، وإذا كان في الواقع صادقاً وردّه يلحقه الأذى من رده كما يلحقه النفع في إعطائه ـ وفي الحديث : لو صدق السائل لهلك المسؤول . مضافاً إلى أن السائل قد يكون ملكاً يرسله الله إلى الغني مختبراً ، ليتبين شكره أو كفره .

وفي دعاء سفانة ابنة حاتم الطائي لرسول الله (ﷺ) وقد

جيء بها مسبية في جملة من قومها بعد أن عرفها رسول الله (ﷺ) ، وأعطاها ما أغناها به من الغنائم كرامة لأبيها . قالت مستأذنة له في الدعاء : أصاب الله ببرك مواقعه . ولا جعل لك إلى لئيم حاجة . ولا سلب نعمة عن عزيز قوم إلا وجعلك سبباً لردها عليه .

في دعائها هذا دليل على أن العرب بفطرتهم يعرفون قيمة الأثر الوضعي من إصابة البر موقعه . كما أن في أمر النبي (ﷺ) أصحابه بأن يؤمنوا على دعائها دليلاً على أن دعاء الفقير المحتاج بعد إنعاشه بقضاء حاجته لا يرد أبداً .

ـ د ـ

والصدقة سراً أفضل منها علانية إلا إذا ترتب على الإعلان ، بها أثر آخر من الاقتداء وأمثاله ، والاعتبار يساعد على ذلك لأن التكتم بها أدعى للاخلاص . وأبعد عن مظنة الرياء ، وأجبر لقلب الفقير . وقد جاء في الحديث عن علي بن الحسين . صدقة الليل تطفىء غضب الرب ـ وقد كان القادة من أهل البيت وأصحاب الرسول عليهم السلام تتجلى فيهم هذه الظاهرة ولا سيما في شهر رمضان فقد كان الإمام علي (ع) يعول بخمسمئة بيت في المدينة والكوفة وكان الأغلب منهم لا يعرفون من يعولهم إلّا بعد فقده صلوات الله عليه ، وقد مر ليلة على امرأة ذات أيتام فناولها ما هو مرسوم لها ليلياً . وإذا بها تخاطبه جزاك الله خيراً يا

عبد الله وحكم بيني وبين علي بن أبي طالب قال : وما فعل عليٌّ معكم قالت : قتل زوجي بين يديه في صفين وترك لي أيتاماً ليس لهم من يعولهم . وإلى الآن لم يتفقدنا ، فلما كان الصباح جاءها بشيء زائد من اللحم والدقيق فطرق الباب قائلاً : أنا الذي جئتك البارحة عندي شيء للأطفال . ففتحت الباب وقالت : أدخل يا عبد الله . عليك بالأطفال فسكتهم حتى أعجن لهم فإني بالعجين أبصر منك فلما انتهت قالت : يا عبد الله قم وأسجر التنور فقام فأسجره فلما ارتفع لهب النار وأحس بحرارتها جعل يبكي ويقول : ذق يا علي هذا جزاء من ضيع الأيامي والأيتام، وإذا بامرأة من الخارج تدخل فتعرفه فهتفت بربة البيت : ويحك ما صنعت هذا الامام علي بن أبي طالب ، فوقعت الإمرأة على قدميه رافعة صوتها : المعذرة إلى الله وإليك فقال : المعذرة إلى الله وإليك مما قصرت في حقكم ـ أجل وقد برزت هذه السجية في حفيده علي بن الحسين زين العابدين فقد أثَّر الجراب في ظهره مما كان يحمله للفقراء ليلاً ، والحديث عن الامام علي وأبنائه والطبقة الفاضلة من المسلمين من هذه الجهة يحتاج إلى كتاب خاص ، وحسبنا التنبيه ففيه للأحرار كفاية .

ولما كان الاسلام ديناً حيوياً اجتماعياً لا يريد لمن اعتنقه إلا العزة والكرامة كما قال الله عز وجل : ﴿ العزة لله ورسوله والمؤمنين ﴾ ندبه للعمل في الاتجاه الذي تميل إليه نفسه ويقدر عليه ، وكره له الكسل والبطالة أسوة بالنموذج الأعلى من

المسلمين أنبياء الله وأوليائه ، فقد كانوا لا يستنكفون عن العمل ويعدون اللقمة التي يحصلون عليها بكد أيمانهم من أفضل ما يحصلون عليه في حياتهم .

لما كان الاسلام كذلك كان أكره شيء في نظره التعرض للسؤال من غير ضرورة ملحّة لأنه ذل وتعرض للفقر ، ولذا قال النبي (ﷺ) لعلي : يا علي (لأن أدخل يدي في فم التنّين إلى المرفق أحبُّ إليَّ من أن أسأل من لم يكن ثم كان) وقال لأبي ذر : يا أبا ذر إياك والسؤال فإنه ذل حاضر وفقر تتعجله ، وفيه حساب طويل يوم القيامة ، ولا يسأل إلاّ في ثلاثة في دم مفضع أي في دية لا يقدر عليها وفقر مدقع وغُرم مثقل ، أي في دين استغرق كل ما يملك .

التوبة والمغفرة

التوبة عبارة عن الندم على فعل المعصية مقروناً بالعزم على ترك العود إليها ، وهذا المعنى لا يتحقق إلا بعد فرض تركها فعلاً كما هو واضح وهي من فعل العبد ـ أما المغفرة أي قبول التوبة فمن شؤون المولى عز شأنه . وكما أن التوبة على قسمين خاصة إذا كانت عن معصية خاصة دون غيرها بلحاظ تخفيف الجرم لأن لكل جريمة قصاصها وغرمها ـ وعلمة . إذا كانت عن سائر المعاصي المرتكبة ـ كذلك المغفرة .

والمأمور به عقلاً التوبة بالمعنى الثاني لأن العقل بعد إطلاعه على إحسان المولى عز شأنه إلى العبد وافتقار العبد إليه في كل شيء ، يلزمه بوجوب شكره وتجنب سخطه مطلقاً ، والسرعة في التراجع عن الخطأ المرتكب . لأنه أقل مراتب الشكر والاعتراف بالجميل ، ويتأكد حكم العقل إذا أطلع على الضرر المترتب على الخطأ وانه لا طريق للنجاة إلا الانابة إلى المولى والانقطاع إليه ـ ويزيده تأكيداً وإلزاماً بوجوب الفور جهله بـأجله ، واحتمال انقطاعه في كل لحظة .

والأوامر الشرعية الواردة في وجوب التوبة قرآناً وسنة ، ليست إلا أوامر إرشادية إلى حكم العقل ومقرّرة له ، والأمر الارشادي أمر تفضل ورحمة كأمر الطبيب المريض باستعمال الدواء النافع وتركه الشيء الضار .

وإن من أعظم النعم علينا أن ربنا سبحانه كريم وسع كرمه المذنبين ، ورحيم وسعت رحمته كل شيء ، فتح باب مغفرته على مصراعيه لكل عبد منيب صادق في توبته ، ودعاه إليه دعوة رحيم كريم : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك جميعاً ﴾ .

فهل من الإنصاف أن تتصامم عن دعوة ربك وتتجاهل إرشاداته لاهياً سادراً في لهوك ولعبك ، وأنت متجاهر في الايمان

به ، والاحتياج إليه لا تملك لنفسك نفعاً إلا عن طريقه ، ولا تدفع عنها ضراً إذا لم تستعن به ، وليس عندك ضمانة في الحياة ولا مؤمن من الموت المرتقب نزوله بك في كل وقت من أوقاتك ، ولا سيما في شهره عز وجل هذا الذي اعتبره شهر كرامة وضيافة ، وتوبة وإنابة ، ضاعف فيه ثواب المحسنين ، كما ضاعف فيه عقاب المتمردين .

وإن الجهل ليس عيباً بل الرضا به ، والخطأ ليس بجريمة بل الإصرار عليه بعد وضوحه والتعلل بالأماني والآمال وسيلة النوكي والبلهاء .

والصائم يبتغي من صيامه وطاعته أن يحصل على الضمانه الكبرى بعد انصرافه من صلاته يوم العيد . الفوز برضاه عز وجل والعتق من سخطه وغضبه بحيث لو فاجأه الموت بعدها يفاجئه متحللاً من كل ذنب نظيف الثوب من كل عيب .

وإذا كان من ينبغي اندراجه في سلك الموظفين عند الحكومة لا يقبل طلبه إلا أن يرفقه بسجل عدلي أبيض تاريخاً وسلوكاً وسيرة فإن لم يكن ، فلا بد من أن يستأنف حياته من جديد مقلعاً عن الماضي مجهزاً بشفاعة رجل وجيه عند الحكومة يأخذه على عاتقه . ـ فالصائم يقبل طلبه بدون أن يثبت بياض ماضيه أو يحتاج إلى شفاعة أحد ـ بل بعزمه على استئناف حياة جديدة

وآصرة قويمة تشده إليه عز وجل شريطة أن يتحلل من تبعات الماضي الناشئة من ترك الواجب أو فعل الحرام .

فالمهم إذن بيان تلك التبعات ـ والتبعات إما للمخلوق ـ وإما للخالق ـ فالذي للمخلوق تارة تكون مادية ، وأخرى أدبية ـ فالمادية هي كل ما يثبت في ذمة العبد شرعاً لغيره ، سواء كان من دين ، أو استقراض ، أو سرقة ، أو من ناقل غير شرعي كالمال الذي يحصل عن طريق القمار ، أو الربا أو من بيع ما لا يجوز بيعه ، كالخمر والميتة ولحم الخنزير والنجس أو من بيع اللحوم المعلّبة المستوردة من بلاد غير المسلمين ، ولا وسيلة شرعية تثبت تذكيتها ، فالمال الحاصل من هذا كله ، عوضاً ، أو غيره يبقى على ملك مالكه الأول الذي انتقلت منه ـ أو كان المال الثابت في الذمة عن طريقه عز وجل ، وهو المال الذي فرضه سبحانه في مال العبد لغيره في بعض الأحوال ، كالزكاة والأخماس والكفارات ، وسائر الغرامات المالية ، فإنها بعد ثبوتها تعتبر ديناً كسائر الديون ـ والتحلّل منها لا يكون إلا بإيصالها لمالكها إذا كان معلوماً ـ وإلا فبمراجعة الحاكم الشرعي ليهديه سواء السبيل .

والأدبية ـ هي كل ظلامة ثبتت عليك من غيبة أو سباب أو نميمة أو بهتان وما إلى ذلك ـ والتحلل منها لا يكون إلا بإسقاط ذلك الغير حقه عن اختيار ورضى ، فإن لم يمكن التحلل منه إما

لأنه ميت أو غائب بحكمه ، أو لسبب آخر ـ فحسبك أن تستغفر له ، وتدعو له في مظان الاجابة .

والتي للخالق تارة تكون من قبيل الحقوق كالعبادات التي اشتغلت ذمة العبد بها من صلاة أو صوم أو حج ولم يؤدها في وقتها وقد فرض الله قضاءها ـ فالتحلل منها لا يكون إلا بالشروع في قضائها بالنحو الذي يستطيعه ـ وأخرى من قبيل الحدود والقصاص كالحدود المفروضة على الزاني من الجلد أو الرجم ، وعلى شارب الخمر من الجلد ، والسارق من القطع ، والقاتل عمداً من القتل أو الدية باختيار صاحب الدم ، والقاتل خطأ من الدية فحسب وغيرها من أنواع القصاص والحدود المدونة في باب الحدود والديات ـ فالتحلل منها لا يكون إلا بتوطين النفس على تحمل ذلك الحد وتلك الدية .

وربَّ سائل

إذا كان التائب في الوقت الذي يرجع فيه إلى الله عز وجل عاجزاً عن التحلل من تلك التبعات فما يصنع . « ألم يأمره الله بالتوبة » ألم يجعل الله عز وجل اليأس من كرمه ، والقنوط من رحمته من الكبائر .

ويجاب ، بأنه إذا فرض عجزه واقعاً عن التحلل من تبعة ما وقع فيه ، وعلم الله منه صدق النية أنه لو كان قادراً لبذل ما

يفرض عليه ، يغفر الله له بلا ريب ، ويستحيل أن لا يقبله مع دعوته إليه وهو أكرم الأكرمين ـ أما إذا كان قادراً ولم يفعل فلا يعد تائباً .

وخلاصة ما يقال في ذلك أن الله عز وجل جعل لكل إنسان السلطة الكاملة على أمواله في حياته وجعل له الحرية الكاملة في أن يخرج التبعات المالية كلها من أصل التركة ، وجعل له بعد إخراجها السلطة على ثلث الباقي من أمواله ليصرفه في باقي شؤونه الخاصة والعامة بعد وفاته من عبادات وغير عبادات من سائر وجوه البر والخير ـ كما أن له أن يقتصر على إخراج الثلث فقط من المجموع إذا كان يسع التبعات كلها المالية وغير المالية ، ـ وإن كانت التركة كلها لا تسع الجميع ، فيقدم التبعات المالية ، فإن فضل شيء فله ثلثه يصرفه في الأهم فالأهم ، وإن استغرقت الديون التركة يصبح فقيراً وحسبه عذراً عند الله عز وجل فقره .

وإذا خشي مفاجأة الموت وعدم المهلة ، فعليه أن يوصي ويعهد في وصيته إلى من يأتمنه على تنفيذها بالنحو المشار إليه ـ أما في هذه الأيام فحيث أن الوسيلة مفقودة إلا عن طريق القوة ، فلا بد أن يجعلها قانونية ليكون للوصي مجال للتنفيذ إذا وقف الوارث في طريقه ، وعرقلوا سيره .

وإن لم يتحلل منها في حياته ولم يوص بها بعد وفاته وفاجأه

الموت فيستكشف أنه مات غير تائب ويكون مرتهناً بها حيث يموت على الاسلام ، فإن قيض الله له صالحاً من ولد تقي أو صديق وفيّ ، يحفظه بعد موته بأدائها عنه ، فك رهنه ، والتحق بصفوف المتحررين ـ وإلا بقي مع المرتهنين بذنوبهم .

أما الوارث فإن كان عالماً بما على مورثه من تبعات ، فيجب عليه أن يخرج التبعات المادية كلها من أصل التركة لإناطة الإرث بإخراجها كما قال الله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ . ـ والمتحصل من الآية . أن عملية توزيع التركة على الوارث وإعطاء كلّ نصيبه المفروض له ـ لا تصح إلا من بعد إخراج ما أوصى به ومن بعد إخراج الدين ـ أما غيرها من التبعات العبادية والأدبية فلا يجب عليه وهو بالخيار إن شاء أدى وإن شاء لم يؤد ـ إلا ما فات الموروث من العبادات الصلاة والصوم في مرض الموت ، فعلى الأكبر من ولده أن يؤديه عنه في مقابل الحبوة .

وإن لم يكن الوارث عالماً بما على مورثه من تبعات مادية ، فليس عليه مؤاخذة ولا عقاب ويكون له المهنى وعلى الموروث الوزر ، يلحقه الحكم الوضعي اللاحق لمن أكل مال الغير أو مالاً مخلوطاً بمال الغير وهو جاهل به (كالشارب للسم جاهلاً به ، يتضرر صحياً به ولا يعاقب من قبل المولى عليه ، ـ ومن هذا يتضح أن المتهاون بوفاء ما عليه من الديون وبإخراج الحقوق

الشرعية المفروضة في ماله ، مضافاً إلى تهاونه بنفسه ، وتعرضه لسخط الله عز وجل ـ يعرّض ورّاثه للهلاك إن كانوا عالمين وتهاونوا مثله ، أو للضرر مادياً وصحياً واجتماعياً إن كانوا جاهلين .

أما ما كان من سنخ الحدود القصاص المترتب على الجرائم المذكورة آنفاً ، فحيث أن إقامتها منوطة بوجـود السلطان العادل ، أو نائبه الحاكم الشرعي المجتهد النافذ حكمه ـ فعلى التائب الصادق في توبته أن يقدم نفسه للسلطان أو نائبه ليقيم الحد عليه ـ وأن تعذر إقامة الحد لعدم وجود السلطان العادل ، أو لعدم نفوذ حكم المجتهد كما في زماننا غالباً فحسب التائب أن يعلم الله منه صدق النية أنه لو كان موجوداً لقدّم نفسه .

ورب سائل مستهجن ـ يقول : « أيمكن تكليف الانسان بتقديم نفسه للجلد أو الرجم أو القتل ، وهل هو إلا تكليف بغير المقدور ، ومحال على الله أن يكلف الانسان بما لا يقدر عليه .

ويجاب : بأن الله فرض القصاص في الدنيا لعلمه ، سبحانه بأن الحياة الهانئة والسلام والأمن وإشاعة الخير بين المواطنين ، واستدفاع الضرر والأذى ـ لا تحصل إلا بالقصاص وإقامة الحدود كما قال الله عز وجل : ﴿ ولكم في الحياة قصاص يا أولى الألباب ﴾ . ـ وفرضه على التائب وإناطة قبول توبته به ، . ليعلم المجرم القادم على الجريمة . أنه قادم على هلاك نفسه في

الدنيا والآخرة ، . والذي يعلم بخطر المسؤولية بعد الموت . يهون عليه أن يتحمل هذا العقاب الموقت المحدود في الدنيا في سبيل خلاصه من العقاب الدائم يوم القيامة .

وكثيراً ما يحدثنا التاريخ عن جماعة وقعوا في الجرائم من زنا أو شرب خمر . ثم جاؤوا إلى النبي (ﷺ) وبعض خلفائه طائعين ـ ليقيم عليهم الحد وهم يقولون : طهرنا يا رسول الله في الدنيا قبل الآخرة ـ كما أن القرآن الكريم يحدثنا بأن الله عز وجل أناط قبول توبته عن قوم موسى حين وقعوا في المعصية ـ بأن يقتل بعضهم بعضاً ولم يزل القتل فيهم من هجوم بعضهم على بعض حتى أمرهم بالكف قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ ٥٤ سورة البقرة ـ والحكمة بذلك ما ذكرناه .

فنلخص من ذلك . أن التوبة بالمعنى الثاني الذي ذكرناه لا تتحقق إلا بعد إعداد هذه المقدمات كلها من ترك المعصية ، والعزم على ترك العود إليها ، والتحلل من تبعات الماضي للمخلوق كانت أم للخالق مادية أو أدبية أو من الحدود والقصاص .

زكاة الفطور

وهي لغة النمو والزيادة ـ وشرعاً عبارة عن وجوب دفع مقدار

خاص من المال للفقير يوم العيد . والمصحح لتسمية هذا المقدار زكوة ، باعتبار ما له من الأثر الوضعي في نمو المال والبدن وحفظه من الطوارىء والموت . ووجه نسبته للفطرة وتسميته بها إما بمعنى الخلقة أي زكوة البدن ، أو بمعنى الدين أي زكوة الاسلام والدين ، أو بمعنى الإفطار لكون وجوبها يوم الفطر .

وحكمتها إنعاش الفقير في هذا اليوم ومساواته لغيره من الطبقات في مأكله ومشربه بل وملبسه ، لأنها لو دفعت مقدماً بعنوان القرض يستطيع أن يشتري بها شيئاً من الملبوس ـ ولو أن المسلمين الواجب عليهم إخراج هذا المال في كل بلد ـ حصروه في فقرائهم ـ لما كان فيها فرق بين الطبقات في هذا اليوم .

وكم في هذا الواجب الديني من حكمة اجتماعية وإنسانية تظهر حين يتلافى عوز الفقير مع أهله وأولاده ، فيخرجون مع الناس دون أن يشعروا بهوان أو حرمان ، ويرى الغني نفسه مرتاح الضمير ، مشرق الأسارير حين يتقدم الفقير مجبور القلب فيسلم عليه ويدعو له ، ـ وتنعكس الآية إذا رأى الفقراء والعمال أنفسهم محرومين مهانين والأغنياء معرضين متكبرين تستبد بهم العزة والكبرياء ، فتشتعل الضغائن في قلوبهم لتدفعهم يوماً ما ـ إلى الموقف الايجابي متنمرين مستميتين برفع أصواتهم تارة ، والمطالبة بحقوقهم أخرى وبالثورة الدموية ثالثة التي قد تنسف قصور الأغنياء ، وتبعثر أموالهم وتشتت أولادهم وتقدمهم أخيراً حطباً لجهنم .

والاسلام دين السماحة والرحمة ، دين التعاطف والمساواة. يتحرّى بكل تشريعاته إشاعة هذه الأخلاق بين الناس ، فيرفع من شأن الغني بسمو نفسه ورحمة قلبه وتواضعه وإيثاره بالقليل لغيره على عائلته ، ويرفع من شأن الفقير بسد عوزه ودفع ضروراته مادياً ، وإشعاره بالإعتزاز بدينه وتقواه ، ومساواته للغني في سائر الحقوق والواجبات الدينية والاجتماعية معنوياً . فتشرق الحياة بين المواطنين أمناً وطمأنينة وتبادلاً في العواطف وتقارباً بين القلوب .

يشترط في من تجب عليه أن يكون مكلفاً عاملاً حراً غنياً وقت وجوبها . وعدم وجوبها على العيد ولا على الفقير الذي لا يملك مؤ ونة سنته له ولعياله لا فعلاً ولا بالقوة أي أن عمله التدريجي الذي يعيش منه يقصر عن نفقاته الضرورية المتعارفة ، نعم يستحب له إخراجها ولو بأن يدير مقدارها على أفراد عائلته ثم يعطيها آخر الأمر لفقير من غير عائلته .

ويجب على الغني أن يدفعها مضافاً إلى نفسه عن كل من هو داخل في عيلولته عرفاً ليلة العيد حتى الضيف الذي يدخل منزله بعنوان الضيافة ـ صبيحة العيد قبل الذهاب إلى الصلاة ويبقى وقتها إلى الزوال مبتدئاً بالأهم فالأهم الفقير من أرحامه ثم من بلده ثم البعيد عنها إن لم يكن فيها ولا يجوز تأخيرها إلا إذا عيَّنها في شيء خاص ليدفعها لفقير معين من أرحامه أو غيرهم لم يكن موجوداً وتبقى ديناً في ذمته إن تركها عصياناً .

والفطرة صاع شرعي من الطعام المتداول استعماله كالحنطة وأمثالها ، وهو في عيار الاسلامبول المتعارف حقتان وثلاثة أرباع الأوقية ومثقالان إلا ربع ، ومن أخرج كيلوين وثلاثة أواق إسلامبول تبرأ ذمته يقيناً ويخير المكلف بين دفعها طعاماً أو ثمنه نقداً ، وأقل ما يعطي الفقير فطرة واحدة أي صاعاً كاملاً من طعام أو ثمنه ويجوز إعطاؤه أكثر من فطرة إلى المئة فصاعداً ما دام مستحقاً .

عيد الأضحى

وهو يوم العاشر من ذي الحجة الحرام يوم عظم قدره عند الله عز وجل ـ لأنه يوم يكمل القاصد لبيته الحرام فيه مناسكه في منى . من رمي الجمار وتقديم القربان أي الأضحية صحيحة سالمة والحلق والتقصير ، ثم يذهب إلى مكة فيطوف طواف الحاج ويسعى بين الصفا والمروة ثم يطوف طواف النساء ويرجع إلى منى فيقيم فيها أيام التشريق العاشر والحادي عشر والثاني عشر إلى ما بعد الظهر .

ولله سبحانه لحظات كريمة رحيمة لعباده المطوّفين في بيته ، الخاشعين في موقفهم في ذلك الصعيد الواسع ، عرفات ـ ما بين ظهر اليوم التاسع إلى الغروب ، المزدلفين ليلة العاشر إلى المشعر الحرام ثم بعد صلاة الصبح إلى منى يبتغون في كل ذلك أداء ما

فرضه الله عليهم . وشمولهم بلحظاته سبحانه الرحيم ، ليرجعوا بعدها وقد صهرتهم هذه الشعائر المقدسة العظيمة في بوتقتها الاسلامية العليا . مطهّرين . صافية نفوسهم ، نقيّة ضمائرهم ، بعيدة هممهم ، يشعرون بالاعتزاز بنعم الله عليهم أن وفّقهم وقبلهم وغفر لهم ذنوبهم .

وقد ندب الله عز وجل عباده المسلمين في كل بلد إسلامي . ممن لم يسعدوا بحج بيته ، وإقامة شعائره هناك ـ أن يتشبهوا بأولئك السعداء في عملهم . فيزحفون من بيوتهم منذ طلوع الشمس مغتسلين وقد لبسوا ثياباً نظيفة من الوسخ الظاهري ، والوسخ المعنوي الحرام ، بمعنى أنها لم تكن مغصوبة أو مسروقة أو لم يكن ثمنها مغصوباً أو مسروقاً أو محقوقاً للفقراء ـ كما يزحف الحاج من المشعر الحرام في ذلك الوقت إلى (منى) مئتزراً بثوبي إحرامه الشبيه بالكفن وقد تحرّى جهده أن لا يكون فيه ولا في ثمنه أقل شائبة من الحرام ، ويتحرّى كل منهم صلة أرحامه والفقراء من بلده قدر طاقته لتتناثر بذلك عنه ذنوبه وسيئاته ـ كما يذهب الحاج فور وصوله إلى ـ منى ـ ليرمي الجمار أو الشيطان ـ كناية عن البواعث والدوافع لارتكاب الخطايا والذنوب ، ويقدم الأضحية عنه وعن أولاده ومن إليه بقصد الامتثال لأمر الله عز وجل والأستنان بسنة محمد بن عبد الله (ﷺ) ، فيتصدق بثلثها على جيرانه وبالثلث الثاني على الفقراء ويمسك الباقي لأهله ـ كما يذهب الحاج فيقدم قربانه وأضحيته ثم يذهب إلى الصلاة

فيؤديها جماعة مع مسلمي أهل بلدة بخشوع وإخلاص ، وينعطف بعدها إلى أفراد الجماعة وغيرهم فيتبادلون المصافحة والمسامحة والتزاور

أجل تدبهم الله عز وجل ليشملهم برحمته وعطفه ولا سيما إذا كانوا ممن أقعدهم عن الحج الفقر أو العجز أو غيرهما من الموانع العرفية ـ وليست هذه الواجبات العامة والاجتماعية إلا لطفاً من الله بعباده وهو اللطيف ورحمة لهم وهو الرحيم ليعرضهم لكل ما يرفع مستواهم الانساني تصفية للنفوس ، واندفاعاً في مجالات البر ، وتواضعاً لله عز وجل ولعباده ، وارتفاعاً عن الحيوانات الضارة ، والذئاب المفترسة ، والكلاب المتهاوشة إذ لا يميز الانسان عنها إلا أن يعيش بعقله لا بهواه ، وبإنسانيته لا حيوانيته .

ملاحظة

ورد في فصل الأضحية من الأخبار عن رسول الله (ﷺ) انه قال : « الأضحية واجبة على من وجد (أي يمكن من صغير أو كبير وهي الهدى والاسلام) » . وقد سأله رجل عن الأضحى فقال : هو واجب على كل مسلم إلا من لم يجد فقال له السائل : فما ترى في العيال قال : إن شئت فعلت وإن شئت لم تفعل فأما

أنت فلا تدعه ، وعن محمد بن بابويه عليه الرحمة فيما ذكره عن أم سلمة رضي الله عنها : أنها جاءت إلى النبي (ﷺ) فقالت : يا رسول الله يحضر الأضحى وليس عندي ثمن الأضحية فأستقرض وأضحي قال فاستقرضي فإنه دين مقضي . وعن أبي جعفر بن بابويه في كتاب (من لا يحضره الفقيه) قال : وكان رسول الله يضحي بكبشين يذبح واحداً بيده ويقول : اللهم هذا عني وعمن لم يضحّ من أهل بيتي ويذبح الآخر ويقول : اللهم هذا عني وعن من لم يضحّ من أمتي .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

سلسلة مختارات إسلامية

التربية والتعليم في العصور الإسلامية

(١)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

التربية والتعليم
في
العصور والإسلام
١

دار الفكر اللبناني



التربية والتعليم في العصور الاسلامية

- ١ -

لا يتفق جميع الباحثين والمربين ، على تعريف واحد للتربية ، ولكنهم يكادون يجمعون، على أنها تشمل أشياء أخرى ، غير المباحث التي تعلم في المدارس والجامعات . فمن معانيها الكثيرة ، حسن السلوك ، والتفكير الصحيح ، والحصول على معرفة كافية بالناس والأشياء ، وحفظ الجسم بصورة قوية سليمة . ويمكن أن تلخص ذلك في جملة قصيرة يقصد بالتربية اجمالاً ، إعداد الانسان للحياة ، إعداداً يتناول بدنه وعقله وروحه .

تعريفات

أما تعريف التعليم ، فأسهل من تعريف التربية ، وذلك لأن التعليم في كل العصور ، له علاقة بالمعلم والمتعلم والعلم ، ومكان ذلك ، وهو المدرسة ، ووسائله وهي الكتب والبرامج . فالتعليم هو أن يوصل المعلم المعرفة إلى المتعلم ، بالصورة المناسبة ، في الوقت المناسب ، والمكان المناسب ، وقد يختلف

نوع العلم ، والمعلم ، والمتعلم ، والمدرسة ، والكتاب ، ولكن الغاية واحدة ، وهي الحصول على المعرفة .

وعلى هذا ، يكون معنى التربية أوسع من معنى التعليم ، ولكنه لا يستغني بالواحد منهما عن الآخر . فالتعليم يمكن اعتباره من وسائل التربية ، ولكن قد توجد التربية بلا تعليم . أي أن التربية أوسع نطاقاً من التعليم . فالبدوي الجاهلي الأمي ، كان له نصيب من التربية دون التعليم ، بينما العربي المسلم القارىء الكاتب ، في صدر الاسلام ، كان له مثل نصيب البدوي من التربية ، ونصيب كاف من التعليم . وللتدليل على ذلك أذكر وضعاً لغوياً طريفاً ، نشأ دون أن نلاحظه في استعمال كلمة (المعلم) و (المربّـي) فالأولى نطلقها على المعلم العادي ، والثانية أي المربي ، لا نطلقها إلاّ على المعلم الكبير ، الذي نال قسطاً كافياً من التربية والتعليم .

وكلمة التربية حديثة الوضع في لغتنا بهذا المعنى ، ولهذا نجد المؤلفين والباحثين في هذا العصر ، لا يستغنون بها عن أختها ، فمعظمهم يقولون (التربية والتعليم) عندما يريدون الاشارة إلى مجموع ما تدل هاتان الكلمتان عليه ، لأن (التربية) فيها معنى الثقافة ، بينما التعليم فيه معنى إيصال المعرفة وتلقيها . والأمران معاً يؤديان معنى لفظة (Education) ، أما الوزارة أو الادارة ، التي تشرف على شؤون التربية والتعليم ، فقد أطلق عليها

الأتراك لفظة (المعارف) . وسارت جميع البلاد العربية على هذا النحو . ولو تـدبرنـا المقصود من كلمـة التربيـة والتعليم (Education) كما شرحته سابقاً ، لوجدنا أن كلمة (المعارف) لا تكفي للدلالة عليه ، بل ربما كانت لا تكفي لوصف المصلحة القائمة على ذلك وصفاً تاماً . ولكن الناس درجـوا على استعمالها ، وصارت مألوفة لديهم .

التعليم في القديم

عرفت مصطلحات البحث ، وبقي علي الآن أن أحدد لبحث نفسه . وسأحاول أن أبحث بعض نواحي التربية والتعليم في تاريخ الاسلام . ولست أدعي الاحاطة ، ولا الوصول إلى نتائج حاسمة ، فذلك غير ممكن ، ولكني سأكتفي بذكر حقائق تاريخية ، أفسرها كما يتراءى لي ، وأحلل بعض الأفكار ، وأزنها بميزان العقل والبحث العلمي . وقد اخترت أن أبدأ بحثي من ظهور الاسلام ، لأن طلب العلم بدأ ونما وتطور ، منذ ظهور الاسلام . ولكني أقول إن ظهور المدارس المنظمة ، لم يكن إلاّ في العصور المتأخرة ، والبحث في التربية والتعليم قبل القرن العاشر للميلاد ، هو في الحقيقة ، بحث في طلب العلم ومادته ، وشؤون العلماء والمتعلمين وآرائهم ، لا في نظام للتربية معروف ، أو مدارس لها برامجها ومناهجها ، تديرها

الدولة ، وتشرف عليها المؤسسات الأميرية ، وتكون دائرة خاصة من دوائر الحكومة .

التعليـــم

فطلب العلم إذاً ، كان حرّاً ، لا تشرف عليه الدولة . فلم تكن للمعارف وزارة أو ديوان ، كديوان الجيش أو ديوان الخراج . ولكن ذلك ، لم يقلل من شأن العلم في نظر الدولة والناس إجمالاً . ولعمري أن هذا شرف للعرب غير قليل ، إذ بلغوا درجةً عاليةً في جميع نواحي العلم والمعرفة ، دون أن تقودهم إلى ذلك سلطة الملك . . صحيح أن التاريخ ، قد ذكر كثيراً من الخلفاء والعظماء ، الذين شجعوا العلم ، ودفعوا للعلماء المال ، وأنشأوا دور الكتب العامة ، أو فتحوا المعاهد للبحث والدرس ، ولكن ذلك لم يكن سياسة عامة ، بل كان يتوقف على رغبة الخليفة أو العظيم نفسه ، وعلى سخاء يده ، وعلى ظروف زمنه ، فبعضهم كان يفعل ذلك ، رغبة في نصرة مذهب على آخر ، وبعضهم كان يفعله ، إعلاء لشأن ملكه وإسم عشيرته ، وبعضهم كان يفعله لوجه الله .

العلم الديني والدنيوي

فالمقصود من درس التربية والتعليم في تاريخ الاسلام ، هو إذاً درس حركة طلب العلم الديني والدنيوي ، التي ابتدأت

بالبعثة النبوية . ولكني سأجعل البحث على مراحل ، تتناول المرحلة الأولى ، صدر الاسلام إلى نهاية الدور الأموي . وتتناول المرحلة الثانية ، الدور العباسي إلى نهاية القرن العاشر للميلاد . وتتناول المرحلة الثالثة الدور العباسي الأخير ، إلى ظهور الأتراك العثمانيين . وسأحاول أن أحصر بحثي ، ضمن نطاق التعريفات السابقة ، للتربية والتعليم والمعارف ، وطلب العلم . وسأقتصر على بعض الحركات الفكرية في تاريخ الاسلام ، فأجعل كلَّ حركة ، تمثل الدور الذي ظهرت فيه .

الأسس التربوية قبل الاسلام

قد فرغت الآن من تعريف المصطلحات ، وتحديد البحث ، وسأمهد لكلامي ، عن (التربية والتعليم في صدر الاسلام) بكلمة قصيرة ، عن أسس التربية والتعليم قبل ظهور الاسلام . وقد تستغرب مني هذه الجرأة ، حين أقول بوجود التربية والتعليم قبل الاسلام . والحقيقة أن لا غرابة في الأمر ، إذا رجعنا إلى التعريف الذي وضعته للتربية فيما سبق . فالتربية في الجاهلية الأخيرة ، أي القرن الذي سبق ظهور الاسلام ، كانت في الدرجة الأولى ، نتيجة مران وتثقيف يتناول جميع وجوه الحياة . يتعلم فيها العربي بالقدوة تارة ، وبالتلقين تارة أخرى .

ويذهب بعضهم إلى القول ، بوجود المدارس عند الحضر من العرب في الجاهلية ، ويشيرون إلى وجود بعض الآثار التي تدل على ذلك . . ربما لا يخلو هذا من مبالغة ، لكن النقوش التي وجدها الباحثون ، تدل على وجود الكتابة ، كما تدل آلات الزراعة والعمارة على وجود علم وحساب ، وكما يدل الشعر الذي وصلنا ، على نفوس عالية وعقول مرهفة ، وكما تدل أخبار الحروب والأيام ، على بطولة وشدة . . فالحياة في الجاهلية ، (حياة الحضر وحياة البدو) ، كانت تخضع لبعض نظم في التربية والتعليم ، تساعد على إعداد الرجال والنساء للحياة ، وهذا كله من مطالب التربية .

أما التعليم فلا أستطيع أن أؤكد وجود المدارس ، ولكني أستطيع القول بوجود من يعلم ومن يتعلم ، وكان ذلك بالطبع مقصوراً على أمور أولية ، أساسها القراءة والكتابة وشيء من الحساب ، وأخبار الماضين ، ورواية الشعر ، والقصص . والظاهر أن ذلك كان يتم بطريقة بسيطة ، قائمة على طرفين (الذي يتعلم والذي يعَلِّم) ، ولا أقول التلميذ والمعلم ، لئلا ينصرف الذهن إلى المدرسة .

التعليم في الحضر

وقد جاءنا في أخبار الجاهلية ، شيءٌ عن أهل الكتاب ،

وعملهم كمعلمين لبعض العرب ، ولكنهم كانوا عادة يسكنون المدن ، وتأثيرهم في هذه الناحية يكاد يكون محصوراً في الحضر لا في البدو . وقد جاءنا أيضاً خبر الحنفاء ، الذين ظهروا قبل الاسلام ، فبعضهم كان يعرف القراءة والكتابة . وجاءنا أيضاً أن بعض التجار والزعماء ، كانوا يقرأون ويكتبون ، وهذا يفسر وجود بعض الكتّاب عند ظهور الاسلام ، ومنهم عمر وعليٌّ ومعاوية .

لكنه لا يجوز أن يحسب هذا ، دليلاً على وجود المدارس ، وانتشار والمعلمين والمتعلمين في الجاهلية . فوجود المدارس أمر يحتاج إلى إثبات ، مع أن فُشُوَّ الأمِّـيَّة فشوّاً فاحشاً في البادية ، أمر يكاد يكون الإجماع عليه تاماً . أما وجود بعض القادرين على القراءة والكتابة بين الحضر وبين بعض البدو ، فأمر لا يمكن نكرانه . هذا مع العلم بأن التربية الجاهلية ، كانت قوية في نواحيها المختلفة . فالعربي في الجاهلية كان قوياً في ذهنه ، قوياً في روحه ، قوياً في بدنه ، مع إفراطٍ سببه حياة البداوة ودواعيها . فلما جاء الاسلام وضع حدوداً لهذا كله ، ووجهه في وجهة الخير ، وبدأ عهد جديد في حياة العرب ، فيه تربية يعاونها تعليم ، وفيه تعليم أساسه تربية . وهذا التعاون بين التربية العربية ، والتعليم الاسلامي ، هو موضوع الفقرة التالية .

- ٢ -

الدين والأخلاق

ستتناول هنا ، بحث بعض مظاهر التربية والتعليم ، من ظهور الاسلام ، إلى انتهاء عهد بني أمية . وسيكون كلامنا ضمن النطاق الذي حددناه قبلاً ، وبحسب التعاريف التي وضعت لمصطلحات البحث . فالتربية هي إعداد الانسان للحياة إعداداً ، يتناول الجسم والعقل والروح . والتعليم هو أن يوصل المعلم المعرفة إلى المتعلم .

يتكوّن أساس تاريخ العرب من ثلاثة عناصر وهي : الدين الاسلامي ، والأخلاق العربية ، والمدنية الاسلامية العربية ، التي نشأت بالنقل والترجمة والإبداع . والبحث في التربية والتعليم ، في العصور الاسلامية ، له صلة وثيقة بنشوء الاسلام وانتشاره ، وبالأخلاق العربية ، وبالمدنية الاسلامية العربية في أدوارها المختلفة . فكانت التربية ، وكان التعليم ، يخضعان في أصولها ، وأساليبها ، وأغراضها ، لهذه العناصر الثلاثة . فالدين الاسلامي ، كان الباعث الرئيسي للتعليم في تاريخ العرب ، كما كانت الأخلاق العربية ، الأساس المتين للتربية ، وكما كانت المدنية الاسلامية العربية ، المادة الفيّاضة لهذه التربية ، وذلك التعليم .

الأساس الصحيح للتربية

جاء الاسلام ، فرفع شأن العلم ، وحثَّ على مكارم الأخلاق ، وشرع نظافة البدن وقوته . وهذه الأمور الثلاثة كما لا يخفي ، هي أساس كل نظام صحيح للتربية والتعليم . ولكني أرى ، أن أثر الاسلام في عهده الأول ، كان في ناحية التربية أولاً ، والتعليم ثانياً . والدليل على هذا ، أن انشاء المدارس جاء متأخراً ، وأن حركة تعليم القراءة والكتابة ، لم تكن عامة ، مع أن الرسول والخلفاء والأمراء وسواد الناس أيضاً ، كانوا لا يستبدلون بسموِّ الخلق وشدَّة التقوى ، والرجولة الكاملة شيئاً . فالتربية عندهم ، تجيء قبل التعليم في الأهمية .

نذكر كتب التاريخ ، أنه كان في العرب بضعة نفرٍ ، يعرفون القراءة والكتابة . ويفهم من صيغة هذا الخبر ، ومن القرائن الأخرى ، أن ذلك كان يعد من المؤهلات النادرة . وتذكر هذه الكتب أيضاً ، أن النبي (صلعم) ، جعل بدل فداء الذين يعرفون القراءة والكتابة من أسرى قريش ، تعليم عدد من المسلمين الأوَّلين ، القراءة والكتابة . وتدل هذه الرواية التاريخية ، على أمرين ، أولها : فشوُّ الأمية بين المسلمين الأولين ، وعدم وجود من يعلمهم ، وثانيهما : اهتمام النبي (صلعم) ، بالقراءة والكتابة . ولا عجب في ذلك ، فالقرآن الكريم ، فيه آيات بليغة في الحثّ على طلب العلم .

جاء في التنزيل الحكيم : « يَرْفَعِ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُم والَّذينَ أُوتوا العِلْمَ دَرَجاتٍ » . وقال تعالى : « شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ والملائِكَةُ وأُولُو العِلْمِ قائِماً بِالقِسْط » . ففي الآية الأولى ، قُرِنَ بالإيمان بالله ، وفي الآية الأخرى ، جاء ذكره اللمِ بعد الله سبحانه وتعالى والملائكة . وهذا كله رفع لشأن العلم والعلماء .

وجاء من ذلك في الحديث الشريف : « العلماء ورَثَـةُ الأنبياء » . وقال (صلعم) : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك به طريقاً من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » . وقال (صلعم) : « من عرف نفسه عرف ربَّه » . ولا يخفي أن صفة (العلم) هي من الصفات التي يتصف بها الخالق سبحانه ، في القرآن الكريم . وكما لا يخفي أن (العلم) هو أهمُّ الصفات التي أجمع المؤرخون على إطلاقها ، على سيدنا عليٍّ ، أقرب المقرَّبين إلى النبي (صلعم) .

مبدأ العلم

كان مبدأ طلب العلم قراءة القرآن الكريم ، وحفظ آياته ، وفهم معانيه . وهذا في رأيي ، هو مبدأ التعليم ، وتوجيه جديد للتربية في تاريخ العرب . وأثبت ذلك بالرجوع إلى حقيقتين

تاريخيّتين ، الأولى تدوين القرآن ونشره ، والثانية عمل القرّاء ـ حفظة القرآن الكريم ـ في نشر العلم والتعليم . وإني آعد القرّاء ، أول المعلمين في تاريخ الاسلام ، لأنهم كانوا يعلمون الناس قراءة القرآن أو استظهاره . إن الخلفاء الراشدين ، يرسلون إلى الأمصار المفتوحة ، يعلمون الناس القرآن الكريم . بالتلقين والحفظ أولاً ، ثم بهما مع الكتابة ثانياً . وأقدم نصٍّ يشير إلى ما فعله عمر ، (رضي الله عنه) ، في السنة السابعة عشرة للهجرة . لكنه لم يثبت أنّ كل قارىء منهم كان كاتباً أيضاً ، إذ كان القارىء في الحقيقة حافظاً قبل كل شيء . أما مقدرته على الكتابة ، فشيء محمود إذا كان حاصلاً ، ولكن عدم حصوله ، لم يمنع القارىء من التلاوة والحفظ .

أول المعلمين وأول المدارس

وعلى هذا فتدوين القرآن الكريم ، يعد من أهم الأعمال الدينية والعلمية ، في تاريخ الاسلام ، لأن استشهاد كثير من القراء في الحروب ، ترك مجالاً للاختلاف في الرواية ، فكتب القرآن الكريم ، في زمن عثمان (رضي الله عنه) وأرسلت منه النسخ إلى الأمصار . وكان هذا مبدأ حركة طلب العلم ، والاهتمام بالكتابة .

نرى أن القرَّاء أول المعلمين ، ونرى كذلك أن الجوامع أول المدارس ، في تاريخ الاسلام ، فكان القرَّاء يتلون القرآن ، على الراغبين في العلم ، في المكان المخصص للصلاة ، ويعلمون القراءة والكتابة لمن شاء ، في أي مكان آخر أي إنه ربما يصح إطلاق إسم المدرسة ، على كل بيت أو مكان يجتمع فيه الذي يتعلم ، والذي يعلم لهذا الغرض . ولكن تعليم القرآن ، أو تعليم القراءة والكتابة أو غير ذلك ، من الحساب أو الشعر أو القصص ، كان يتم دون نظام معروف . والظاهر أن التعليم ، كان مجّاناً لوجه الله ، في أوائل صدر الاسلام ، ولا نجد رواية عن الأجور والتكسب ، إلا في الأدوار التي جاءت بعد ذلك .

التعاليم والعادات

فالتعليم في زمن الرسول (صلعم) ، والخلفاء الراشدين ، (رضي الله عنهم) كان إذاً يتناول ناحيتين ، الأولى : حفظ القرآن الكريم وتلاوته وفهم معانيه ، والثانية : القراءة والكتابة ومبادىء الحساب والشعر والقصص . أما التربية ، فكانت خاضعة لتعاليم الاسلام من جهة ، ولعادات العرب من جهة أخرى . وأساسها : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمروءة وضبط النفس والكرم ، والعفو عند المقدرة . . كان يمكن أن يتعلم المسلم العربي ، القرآن الكريم ، والقراءة

والكتابة ، في الجامع أو في البيت ، ولكن تربيته كانت تعتمد على القدوة والمحاكاة ، ـ القدوة برسول الله (صلعم) ، ومحاكاة خلفائه وأصحابه . وإذا قيس نظام التربية والتعليم بنتائجه ، جاز لنا أن نقول ، إنّ المبادىء البسيطة ، التي سادت عصر الخلفاء الراشدين في هذا الباب ، نشأ عنها خير النتائج . . . صحيح أنها لم تنتج العلماء الكبار ، ولكنها أنتجت الرجال الكبار .

تعلم النطق الصحيح

ونرى في الانتقال إلى العهد الأموي ، شيئاً من التقدم في ناحية التعليم ، ولكن نلحظ شيئاً من الاضطراب في التربية . وتذكر المصادر ، أن خلفاء بني أمية كانوا يهتمون اهتماماً خاصّاً ، بتربية أبنائهم وتعليمهم . فمثلاً كانوا يرسلون الصبي إلى الصحراء ، ليتعلم النطق بالعربية الصحيحة ، وليتعود حياة الشدة والقوة . وكانوا يعينون (المؤدب) ، ليقوم على تعليم الصبي ، القرآن الكريم ، والقراءة والكتابة ، والحساب والقصص والشعر . ويجد الباحث في كتب الأدب والتاريخ كلمة (كتّاب) ، ويرجع بها مؤلفو هذه الكتب ، إلى أوائل القرن الثامن للميلاد ، أي المدة الأخيرة لبني أمية . ويذكرون كذلك ما يدلّ على ظهور المعلم المحترف ، والمعلم المتكسّب .

الكتاب والمؤدب

ونجد ما يدل على أن أبناء الخاصة ، كانوا ينالون قسطاً لا بأس به من التعليم ، مع شيء من التهذيب والتربية ، يتناول النواحي الثلاث في الحياة - (الناحية الروحية والعقلية والبدنية) . ونجد أيضاً ، ما يدل على أن الناس إجمالاً ، كانوا يعنون بتعليم أبنائهم ، وتهذيبهم ، وتربيتهم ، عناية كافية . فوجود (الكتّاب) و (المؤدِّب) ، وذكر الأجرة ، يدل على أمرين ، الأول رغبة الناس في التعلم ، واستعدادهم لدفع المال في هذا السبيل ، والثاني ظهور الرغبة في طلب العلم الدنيوي ، ابتغاء لمنافع دنيوية ، لا إبتغاء لوجه الله فقط . وفي هذا ، ما يدل على إتساع نطاق التعليم ، في عهد بني أمية ، عما كان عليه في زمن الرسول والخلفاء . وذلك طبيعي ، أولاً لأن حياة العرب في خارج الجزيرة ، كانت حياة مدنيةٍ تتطلب القراءة والكتابة ، وثانياً لأن بني أمية ناصروا السيادة العربية دون السيادة الاسلامية ، فكان لا بد لهم من الالتفات إلى الدنيا ، أكثر من الالتفات إلى الدين .

- ٣ -

تقدم واضطراب

أشرنا إلى نقطة طريفة ، وهي التقدم الدي يلاحظه الباحث في التعليم ، والاضطراب الذي يصادفه في التربية ، كما كانا في

عهد بني أمية . وسيكون همّنا أن نشير إلى موطن ذلك التقدم ، وهذا الاضطراب . فمن مظاهر التقدم في التعليم ، وضع قواعد الخط العربي ، واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة ، وظهور طبقة من الناس ، اتخذت (تعليم الصبيان) عملاً لها . ومن مظاهر الاضطراب في التربية ، سياسة بني أمية ، في إيثار العنصرية العربية ، وما نشأ عن ذلك من فرق سياسية ودينية ، مختلفة في مُثُلِها وغاياتها ، وما دخل على العرب من آراء ، جاءتهم عن طريق الروم والعجم .

الخط العربي

إن نشوء الخط العربي ، أمرٌ غامض في التاريخ ، لكن الشائع عند كتّابهم ، أن الخط الذي عرف في الحجاز ، قبل ظهور الاسلام ، منقول عن أهل الحيرة والأنبار ، ويرجع بأصله إلى الخط المسند . ومن هذا الخط الحجازي ، نشأ الخط الكوفي بعد الاسلام ، وهو يمتاز عن الحجازي ، بتجويد شكله وهندسة حروفه . ومن هنا كان الخط الحجازي يستعمل في الكتابة العادية ، والكوفي في الكتابة الزخرفية .

وأشهر الذين كتبوا في صدر الاسلام أربعة ، وهم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد

الرحمن بن الحارث بن هشام . وهم الذين كتبوا المصاحف لعثمان (رضي الله عنه) . وكانت الكتابة بلا إعجام (أي تنقيط) ولا شكل ، إلى أن وضع أبو الأسود الدؤليّ ، العلامات للشكل ، وإلى أن وضعت بأمر الحجاج نقط الإعجام . .

والشائع أن ذلك تم في خلافة عبد الملك بن مروان . ولا عجب أن يكون للحجاج يد في ذلك ، فقد اشتغل بتعليم الصبيان ، ورأى صعوبة عدم التنقيط ، للمعلم والمتعلم على السواء ، كما لا عجب أن يكون لأبي الأسود الدؤلي ، يد في وضع الشكل ، لما هذا من علاقة بالنحو .

ضبط الكلام

وجاء بعد تحسين الكتابة (الخطّ) ، ضبط الكلام العربي ، بوضع القواعد له . والمعروف أن أبا الأسود الدؤليّ بدأ ذلك ، ويقال إنه تعلمه من عليّ (رضي الله عنه) ، وكان ذلك بالبصرة ، ثم ظهر مثله في الكوفة . وحركة درس قواعد اللغة هذه ، هي أصل المذهبين المشهورين في النحو ، مذهب البصريين ، ومذهب الكوفيين .

إنّ ضبط الخط العربي ، ووضع القواعد للّغة العربية ، يعد

في نظري من أهم الخطوات الكبرى ، في تقدم التعليم في تاريخ الاسلام . فهذا سهَّل مهمة المعلم والمتعلم ، ونشط حركة التدوين ، وأعان ما تم من نقل وتأليف . ولا يخفي أن وجود الكتابة ، هو أساس كل نظام للتعليم ، بخلاف التربية التي لا ضرورة لازمةً للكتابة فيها .

العربية لغة الدواوين

أما اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، فهو أيضاً من أهم الخطوات الكبرى ، في تقدم التعليم في هذا الدور . . جاء العرب إلى الشام والعراق ومصر ، فأبقوا الناس على ما هم عليه . وبلغ بهم التسامح ، أن جعلوا سجلات دولتهم ، بأيدي كتَّاب من الروم والكلدان والقبط ، يكتبونها بلغة البلد ، وبحسب ما تعوده في زمن سادتهم السابقين . واستمر العرب على هذه السياسة ، إلى زمن عبد الملك بن مروان ، فأمر أن تكون لغة دواوين الدولة ، باللغة العربية دون سواها . ونرى لهذا التغيير سببين ، الأول تنفيذ سياسة بني أمية ، وهي إعلاء شأن العرب بإعلاء شأن لغتهم ، والثاني إتساع نطاق الدولة ، واتخاذها صورة مدنية ، لا غنى فيها عن الكتابة بلغة الملك .

ليس من الهين إلقاء القول جزافاً ، ولكن لو تقدم هذا

القرار ، باتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، لتقدم ضبط الخط العربي ، ووضع قواعد اللغة ، ولتقدمت أيضاً حركة التدوين ، ولتقدمت أيضاً نهضة الترجمة والتأليف . أي كان بالامكان ، أن يطول عمر الثقافة العربية والمدنية الاسلامية ، وأن تنشأ المدارس ، وتقوم حركة التأديب والتعليم ، مباشرة بعد ظهور الاسلام ، أو حالاً عند خروج العرب من الجزيرة . . من هذا تظهر الأهمية الكبرى ، التي نعلقها من وجهة التربية والتعليم ، على إتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، في دولة بني أمية .

التعليم

أما المظهر الثالث من مظاهر التقدم ، فهو وجود طبقة من (معلمي الصبيان) . وذهب بعض الباحثين ، إلى أن معظم المعلمين في صدر الاسلام ، كانوا من الموالي . ويقولون إنَّ سبب ذلك ، اشتغال العرب بالحرب ونشر الاسلام ، واحتقارهم المهن والحرف . ولا نتردد أبداً في رد هذا الرأي ، ففيه مخالفة للحقائق التاريخية من جهة ، وفيه تفسير خاطىء لها من جهة أخرى .

لا ننكر أن بعض الخاصَّة من الخلفاء والأمراء في الشام ، قد اتخذوا مؤدِّبين لأولادهم . ولا ننكر أن عدداً من الذين اشتغلوا بتعليم الصبيان في صدر الاسلام ، كانوا من الموالي من غير

العرب ، وبعضهم كانوا من النصارى أو اليهود العرب . ولكن عمل هؤلاء ، كان يقتصر على الناحية المدنية ، أي تعليم القراءة والكتابة والحساب ، وقليل من الشعر والأخبار .

التربيــة

أما التربية والتثقيف والتهذيب ، فكانت كلها موكولة إلى القرّاء ، ـ قرّاء القرآن الكريم . . وهذه هي الناحية الدينية للتربية والتعليم في هذا الصدر . وهذا التمييز بين الطبقتين من المشتغلين بالتعليم والتهذيب ، يفسر التضارب بين آراء المؤلفين الكبار في قيمة المعلم .

فالنوادر التي يذكرها الجاحظ عن المعلمين ، لا يمكن أن تكون موجهة لأناس كانوا يعلمون القرآن الكريم . وأقرب إلى الصواب والمنطق ، أن نقول ، إن الناسٍ كانوا يتجرّأون بمثل ذلك على المعلمين ، من الموالي وأهل الكتّاب ، دون غيرهم .

وتذكر كتب الأدب والتاريخ ، أسماء رجال كبار ، اشتغلوا بتعليم الصبيان ، منهم القائد الكبير الحجّاج بن يوسف ، والكاتب الشهير عبد الحميد الكاتب ، والروايـة القارىء أبو عمرو بن العلاء . فهذه الطبقة من المعلمين ، هي التي يصفها إبن خلدون في كلامه عن المعلمين بقوله عن أهل الأنساب والعصبية : أنهم لا ينطبق عليهم ، ما كان الناس

يتناقلونه عن حمق المعلم وقلة عقله . ويدل على ذلك ، أن الحجاج ، وهو قائد كبير ، قد عُـيِّـرَ بأنه كان يوماً معلماً ، أي من هذه الطبقة الموصوفة بتلك الصفات . .

وسائل التربية

أما مظاهر الاضطراب في التربية في هذا الدور ، فأولها ما نشأ عن سياسة الدولة . . تكاد وسائل التربية والتعليم في الجاهلية ، تنحصر في الشعر ، والأخبار ، والعرف البدوي في السلوك ، والحروب ، والأيام . وتكاد تكون وسائل التربية والتعليم ، في زمن الرسول والخلفاء الراشدين ، تنحصر أيضاً في القرآن الكريم ، والقدوة بالرسول والصحابة ، والشعر والأخبار . أما في عهد بني أمية ، فتكاد تكون محصورة في أخبار الجاهلية وأشعارها ، والعُرف العربي في السلوك ، والقرآن الكريم . أي أن بني أمية ، رجعوا بالتربية ـ إلى الجاهلية ، في كثير من مُثُلِها ووسائلها .

كان من نتائج السياسة التي سار عليها بنو أُمـيّة ، أن نشأت أحزاب أخرى ، دينية وسياسية ، تسعى لتثبيت مُثُل الاسلام . ونذكر من هذه الأحزاب أو الفئات : القرَّاء ، والزُّهَّاد ، والخوارج .

زيادة الاضطراب

واستمر كثير من الصحابة والتابعين ، حفظة القرآن الكريم والحديث الشريف ، يعلمون الناس ويهذبونهم . وظهرت طبقة من الزهاد ، هـمُّـهم الابتعاد عن الدنيا ، ودرس القرآن ، وتأويل معناه ونشره . وقامت فرقة الخوارج ، ولها مبادىء دينية وسياسية ، تنشرها بالتعليم تارة ، وبالسيف تارة أخرى . فكثرة الأحزاب والفرق ، زادت في اضطراب طرق التربية والتعليم ، ومثلهما في زمن بني أمية .

لكنه يظهر ، أن أهمَّ غايات التربية والتعليم ما يأتي :

أولاً : مقدرة على القراءة والكتابة ، ومعرفة بالشعر والأخبار . ولهذا فإنه يروى عن عبد الملك ، انه كان يتردد في تولية الوليد بعده ، لأنه كان لا يعرف النحو .

ثانياً : ركوب الخيل ، والرِّماية ، والسباحة ، ولهذا كانوا يرسلون أبناء الخلفاء إلى الصحراء ، ليتعودوا حياة القوة والشدة ، والنطق باللسان العربي الصحيح ، كما فعل معاوية بابنه يزيد .

ثالثاً : معرفة الحلال والحرام ، بحسب العُرْف الجاهلي والعُرْف الاسلامي .

حدثان مهمّان

تــمَّ في زمن بني أمية أمران مهمان من حيث البحث في التربية والتعليم ، وهما إدخال الشكل والتنقيط في الكتابة ، وجعل اللغة العربية دون غيرها ، لغة الدولة . وقد ساعد هذا ، حركة التدوين والنقل والتأليف ، التي أينعت في زمن بني العباس . لكنه لا يصحُّ أن نعزو ظهور هذه كلها ، إلى الدور العباسي . فهذا لم يحدث طفرة دون تطور . والمشهور أن شيئاً من التدوين قد تم في زمن بني أمية ، وأن الناس كانوا يبحثون في أخبار العرب ، وأن (إبن شرية) كان هــمُّــه أن يلبس قصص الجاهلية ، حلة جديدة ، ويرويها في المجالس ، وأن طبقة من المسلمين ، كان لا يلتقي الواحد منهم بالآخر ، دون أن يسأله رواية حديث عن رسول الله (صلعم) . فالنشاط الذي يلاحظه الباحث ، في أول عهد بني العباس ، له مقدِّمات في أواخر عهد بني أمية .

كذلك يظن بعض الباحثين ، أن بني أمية ، أعرضوا عن درس القرآن الكريم والحديث ، وأن همهم كان تقـصّـي أخبار الجاهلية ، والمفاخرة بأعمال الغابرين من السَّلف ، وإغراء الشعراء بعضهم ببعض ، والابتعاد عن العلوم والحِرَف . . صحيح أنه لم يظهر في دولة بني أمية نهضة علمية ، لا في الناحية الشرعية ، ولا في الناحية العقلية ، وكاد يقتصر عملهم ، على

إحياء آثار الأدب العربي الجاهلي ، وتشجيع نمط من الأدب في الشعر والنثر ، يكاد يكون جاهلياً . . لكن الحقيقة ، أنَّ لبني أمية ، فضلاً لا ينكر ، في بدء درس العلوم الشرعية ، وعلوم اللسان العربي .

الدراسة الدينية

يجد الباحث كثيراً من الحقائق التي تثبت هذا ، فمن نتائج إصلاح الخط العربي ، واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، ظهور حركة مهمة ، تناولت درس القرآن الكريم والحديث الشريف واللسان العربي . وكان ذلك تحت رعاية الحجاج بن يوسف ، في البصرة ثم في الكوفة . إذ المشهور ، انه بعد أن استتب الأمر للحجاج في العراق ، وجَّه قسطاً من عنايته ، إلى صناعته القديمة ، وهي التعليم ، فنشأ درس النحو ، وكثر البحث في فهم معاني القرآن وتأويله ، وذهب بعضهم إلى ضرورة تدوين الحديث . وهناك رواية تقول بأنه دوَّن فعلاً .

الترجمة

وجامع البصرة مشهور بهذا الأمر . ففيه كانت تقام حلقات البحث والمناظرة والدرس ، وإلى هذه الحلقات ، يرجع أصل

كثير من الفِرَق الدينية والأدبية . ومجالس الحسن البصري فيه ، مشهورة لا تحتاج إلى تعريف ، وذكر رابعة العدوية ، وفرط زهدها وعلمها ، سارت به الرُّكْبان . وهذا كله تم في أواخر عهد بني أمية ، ولو طال لهم الزمن ، لظهرت نتائج هذه الحركات في عهدهم ، ولأصابهم شيء من فخر الابتداء . وهناك نقطة أخرى لا يجوز اغفالها ، وهي الترجمة إلى العربية . وقيل أن أول ما ترجم إليها من لغات الأعاجم ، كان بأمر من الأمير الأموي خالد بن يزيد ، فقد ترجمت له كتب في الكيمياء من اليونانية والقِبْطية ، وكتب هو ثلاث مقالات في الموضوع نفسه . . فالنهضة العلمية التي نعرفها في عهد بني العباس ، لم تنشأ دفعة واحدة ، بل كانت لها مقدمات ، جاءت في زمن بني أمية .

التأليف

بلغ بنو العباس بالتدوين والترجمة والتأليف والبحث والمناظرة ، درجة عالية ، ولم يكن أمر طلب العلم في زمنهم ، مقصوراً على فئة دون أخرى ، بل اشترك فيه كلّ الناس ، من الخليفة إلى بدوي الصحراء ، وكان للنساء في ذلك نصيب غير قليل . ويشبه هذا القرن (الأول) من عهد بني العباس عهد (النهضة) في أوروبا الحديثة ، من وجوه كثيرة ، أهمها : بعث العلوم القديمة والدرس والبحث .

وساعد نشاط هذه الحركات ، أمران : الأول : سياسة بني

العباس التي كانت إسلامية في الدرجة الأولى ، وعربية في الدرجة الثانية . والثاني : ازدياد الثروة ، وتعلق الناس بالجاه . فالمعروف أن بني العباس ، شجعوا الفرس ، وقربوا إليهم رجال الدين ، دون تمييز بين عربي وغير عربي . والمعروف أيضاً أن ثروة الناس في زمن بني العباس ، كانت من أهم العوامل التي دفعتهم إلى طلب العلم ، توصلاً إلى السلطان ، أو تقرباً إلى الله ، أو تجملاً في هذه الدنيا .

التعليم والوظيفة

كان من أغراض التربية والتعليم ، في القرن الأول من حكم بني العباس ، ما يلي : أولاً : التوصل إلى المناصب العالية في الدولة ، لأنه أصبح يحتاج فيها إلى معرفة علوم الدين وعلوم الدنيا معاً . ثانياً : الحصول على الجاه والثروة . وثالثاً : طلب العلم لذاته . . وكان التنافس في هذه الأبواب شديداً ، لأن المجال قد اتسع بدخول الموالي فيه ، وهم أسبق من العرب إلى معرفة العلوم ، ولا يقلون عنهم مقدرة في تحصيل علوم اللسان العربي والعلوم الشرعية .

كل هذا شجع النهضة العلمية . وفي مدة قرن من حكم بني العباس ، نضجت حركة تدوين العلوم الشرعية ، وحركة تدوين العلوم اللسانية ، وصار المتعلم لا غنى له عن درس التفسير والقراءات والحديث والفقه والكلام من الأولى ، والنحو

واللغة والبيان والأدب من الثانية . وجاء مع ذلك وبعده ، نقل العلوم القديمة ، من فلسفة وهندسة وموسيقى وطبّ وكيمياء ، وعاصر كل ذلك نشوء الفرق وتطورها ، أمثال الخوارج والشيعة والمرجئة والزهاد والمتصوفين ، ولكل فرقة ناحيتها الدينية والعلمية ، ولها كتبها وكتّابها ، ولها طريقتها في نشر دعوتها وتعليم أتباعها .

طلب العلم

لا يمكن البحث في التربية والتعليم في هذا الدور ، دون الاشارة إلى حركة طلب العلم ، التي ابتدأت بالتدوين ، فالترجمة ، فالتأليف ، وبدت بوادرها في احتراب الأحزاب الدينية والفلسفية والسياسية . وكان طلب العلم في البدء ، يتناول العلوم الدينية واللغوية ، ثم تناول غيرها من العلوم الدخيلة . ولهذا كانت الثقافة الاسلامية العربية ، مزيجاً من علوم المسلمين والعرب ، ومن علوم الأقدمين . وقد انعكس ذلك كله ، على مرآة التربية والتعليم ، فلم يكتف الناس بآثار العرب ، ومثل الاسلام ، بل أراد كل متعلم ، أن يكون له نصيب من الثقافات الجديدة .

فالمعلم الذي كان يقصر همه على تعليم القراءة والكتابة والحساب وشيء من الأخبار والقصص ، أصبح لا شأن له ،

وصار الناس يتطلعون إلى المعلم الكبير ، الذي يعرف القرآن والحديث ، كما يعرف اللغة والأدب ، وكما يعرف الفلسفة والكيمياء . . هذا هو الاتجاه العام ، ولكنه كان يحدث ، أن تعادي فرقة نوعاً من أنواع العلوم ، وتحارب أصحابه ، وتسعى للقضاء عليه ، بواسطة سلطان الدولة أو غيرها .

المعلم والمتعلم

ويظهر أن التعليم أصبح علاقة روحية بين المتعلم والمعلم ، وأنَّ من أغراضه ، أن ينال المتعلم قسطاً كافياً من الثقافة العامة ، لا نوعاً خاصاً من المعرفة . والبحث في الأجور ، التي كان يأخذها بعض المعلمين ، لا يمنع من صحة هذا الرأي ، لأن الأجور ، كانت مسألة شخصية ، تتوقف على المعلم ، وحاجته إلى المال ، ورغبته في جمعه .

ويظهر أيضاً ، أن التعليم كان خاصاً لا عاماً ، بمعنى أن الأسلوب والمادة والنتيجة ، ـ كانت كلها تتوقف على مقدرة المعلم وثقافته ، واستعداد تلميذه ، لا على شيء آخر ، مثل الرقابة التي تقوم بها الدولة أو غيرها ، أو البرامج التي تضعها بعض المدارس ، أو الشهادات التي تصدرها ، إذ نعرف على سبيل التحقيق ، أن الدولة لم تقم على مراقبة التعليم ، ولم تضع

البرامج ، ولم تصدر الشهادات ، باسمها أو بإسم ديوان من دواوينها .

التعليم العالي

والغريب أن هذه الملاحظة ، تنطبق على جميع أدوار التعليم ، من الابتدائي إلى درجة المدرسة الجامعة ، إن صح إطلاق هذه الأسماء ، على ما كان من تعليم في تلك الأيام . والغريب أيضاً ، أن الاهتمام بالتعليم العالي ، كان أشد من الاهتمام بالابتدائي . ويخيَّل إليَّ أن نظام التعليم ، نشأ نشأة معكوسة ، أي بدأ بالعالي ، قبل الابتدائي ، أو معه ، في الوقت نفسه ، أو قل إن شئت ، أن الاهتمام ، كان يوجه إلى التعليم العالي ، أما التعليم الابتدائي ، فكان يتم كيفما اتفق الأمر .

مواصفات المتعلم

أما التربية فصارت مركبة في هذا الدور من حكم بني العباس ، لما دخل على نظام الحياة السياسية والاقتصادية والعقلية ، من نظم جديدة . فالمتعلم المثقف المربى ، هو الذي يعرف القرآن والحديث واللغة ، وهو الذي ضرب بسهم وافر ، في العلوم الحديثة ، وهو الذي يعرف الأدب ، ويستطيب الغناء ، ويلعب الشطرنج ، وهو الـذي يحسن الحديث ،

وتصريف الكلام ، وهو الذي طاف بالبلدان ، طلباً للعلم والاختبار ، وهو الذي يجمع الكتب وينسخها .

وقد أشرنا إلى أنه لا يجوز أن نقسم التعليم في القرن الأول من دولة بني العباس ، إلى الأقسام التي نعرفها اليوم ، مثل الابتدائي والثانوي والعالي . والسبب في ذلك ، أن التعليم لم يكن له نظام معروف ، وتتوقف درجته ومادته ونتيجته ، على مقدرة المعلم ، ورغبة المتعلم . فالذي كان يعلمه الحسن البصري ، يغاير الذي كان يعلمه الخارجي ، وهذا يغاير الذي كان يعلمه المتصوف . . . وهذا يثبت ما ذهبت إليه ، وهو أن التعليم ، علاقة روحية بين المتعلم والمعلم ، فالمتعلم لا بد أن يكون من مذهب المعلم ، جاء من تلقاء نفسه ، رغبة في تلقي العلم ، الذي يريد أن ينشره معلمه .

أساس كل العلوم

ليس من المبالغة في شيء ، أن يقال إن القرآن الكريم ، أساس كل ما ظهر في تاريخ العرب والاسلام ، من حركات لغوية وفكرية . فدرس العلوم اللسانية ، وظهور العلوم الشرعية ، والحاجة إلى العلوم الدخيلة ، ـ ترجع إلى ضرورة فهم القرآن الكريم ، وتفسير أحكامه ، والدّفاع عن مبادئه . ونتج من هذا كله ، حركة التدوين والترجمة والتأليف . وهذه

الحركة بدورها ، أنتجت الفرق الدينية والفكرية ، والجمعيات الأدبية والفلسفية ، والمذاهب والنِّحَلَ ، التي تختلف في أصولها وفي أغراضها . وهذا وذاك يستدعي ، كما لا يخفي ، نشر العلم والمعرفة بين الناس ، ووجوده يدل على إقبال الناس على التعلّم والفهم . . هذا مجمل ما كان في القرن الأول من دولة بني العباس ، وهو القرن الذي نعالجه الآن ، من وجهة التربية والتعليم في هذا الحديث . وإن جاز وصفه بجملة واحدة قلنا ، نهضة في تحصيل العلم ، وتعطش إلى إحراز المعرفة ، وهي تكاد تكون مقصورة على علوم اللسان العربي ، والعلوم الشرعية ، مع شيء إبتدائي من علوم الأمم القديمة .

الورق والتعليم

وقد ساعد نشاط هذه الحركة ، أمر مهم ، وهو ظهور الورق . فالمعروف أن الناس إلى أوائل القرن الثالث للهجرة ، كانوا يكتبون على الرُّقوق والجلود والأنسجة أو نحوها ، وهذا يفسر المبالغة الظاهرة ، في وصف مكاتب بعض مشاهير الأدب والشعر ، فقد قيل مثلاً ، إن كتب أبي عمرو بن العلاء ، كانت تملأ بيته إلى السقف ، فراح بعضهم ينقص من قيمة هذه الرواية ، مع أنه لا غرابة فيها ، إذا كانت تلك الكتب مكتوبة على أنسجة أو رقوق ، ففي هذه الحالة قد لا يتجاوز عددها بضع المئات . .

كان ظهور الورق ، من أهم عوامل نشاط النهضة العلمية ، إذ سهل نسخ الكتب ونقلها ، وأمكن الحصول على عدد وافر منها ، للراغبين فيها ، في مختلف الأمصار . والظاهر أن الورق جاء إلى العراق من الصين ، ولكن لم تلبث البلاد الاسلامية الأخرى ، أن تعلمت صنعه .

ويقال إن بعض الأسرى من الصين ، علموا أهل سمرقند صنع الورق ، في السنة الأولى أو الثانية من حكم بني العباس . ثم انتقلت صناعته إلى العراق في زمن البرامكة . والظاهر أيضاً أن جعفراً البرمكي قد استعمل الورق في دواوين الحكومة ، بدلاً من الرقوق ، وأصبح صنع الورق بعد هذا ، أمراً عاماً في مختلف أنحاء بلاد العرب .

الكاغد والقرطياس

إن كلمة (كاغد) ، هي أقدم كلمة في اللغة العربية ، للدلالة على الورق ، ويظن بعض الباحثين ، أنها من أصل صيني ، دخلت إلى العربية عن طريق الفارسية . أما كلمة (قِرْطاس) ، فهي من أصل يوناني ، نشأت من الاسم الذي كان يطلقه أهل مصر ، على ما كانوا يصدرونه للبلاد المتكلمة باليونانية ، من ورق البردِيِّ ، المعروف عند هؤلاء باسم (قراطيس) .

شرحنا مسألة ظهور الورق من ناحية أهميتها في نشر التعليم ،

وسنشير الآن إلى أهميتها من ناحية أخرى ، تتعلق بالتربية والثقافة إجمالاً . وتفصيل ذلك ، أنَّ كتب الأدب والتاريخ ، تذكر (الورَّاقين) كثيراً . ويفهم من تكرار ورود هذا الاسم ، أن صناعة مهمة نشأت بنشوء النهضة العلمية ، وهذه الصناعة تتعلق ببيع الورق ، ونسخ الكتب ، ونشرها في الأمصار ، وإعارتها للقراء .

مجالس الورّاقين

ويُستدل من القرائن ، أن العلماء والباحثين ، كثيراً ما كان يلتقي الواحد منهم بالآخر ، عند الورَّاقين . والذي يظهر لي ، أن أماكن الورَّاقين كانت من العوامل الفعّالة في ثقافة العلماء ، وتربية من يتصل بهم . ففي هذه الأماكن ، كانوا يتناظرون ويتدارسون ، يسمعهم من شاء ، ويشاركهم في الحوار من له المقدرة والرغبة . وأهم مثال على ذلك الحوار المشهور عن أصل (أخوان الصفا) وقيمة رسائلهم ، فإنه تم كما يقول القفطي ، (بحضرة الوارقين بباب الطاق) ببغداد . قلنا إنَّ أثر الوارقين كان ظاهراً في التربية ، ولم نذكر شيئاً عن التعليم تعمداً ، وذلك لأن المفروض في الذي يغشى أماكن الوراقين ومجالسهم ، أن يكون متعلماً ، نال قسطاً كافياً من العلوم اللسانية والشرعية ، تمكنه من المناظرة والبحث .

أين تعلم الأوائل

أشرنا إلى حركات التدوين والترجمة والتأليف ، وحلقات البحث والمناظرة ، وإقبال الناس على التعليم ، واهتمامهم الظاهر بطلب العلم ، والحصول على أكبر قسط من الثقافة . كل هذه المظاهر والحركات ، أنتجت كثرة من كبار العلماء ، في مختلف فروع المعرفة ، ازدان بهم القرن الأول من حكم بني العباس . فأين تعلم هؤلاء ؟ وما هي عوامل تثقيفهم وتربيتهم ؟ سنحاول أن نجيب على هذا السؤال ، ولا ندَّعي أننا مصيبون كلَّ الاصابة في الجواب ، إذ الأمر مسألة رأي وتفسير ، يختلف فيهما الناس كثيراً .

الكتّــاب

كانت وسائل التعليم في القرن الأول من حكم بني العباس ما يأتي :

أولاً : الكتَّاب أو المكتب (والجمع كتاتيب ومكاتب) . وقد اختلف اللغويون في دلالة هذا اللفظ أو ذاك . . جاء في اللسان : « الكتَّاب موضع تعليم الكتَّاب ، والجمع الكتاتيبُ والمَكاتِبُ » . وقال المُبرّد : « المكتب موضع التعليم ، والمكتب المعلّم ، والكتَّاب الصبيان . ومن جعل الموضع الكتاب فقد أخطأ » . . ومع هذا فالظاهر من النصوص الكثيرة ، أن كلمة

كتَّاب وكلمة مكتب ، استعملتا للدلالة على المكان الذي كان يتعلم فيه الصبيان .

صورة شعرية للمعلم

والظاهر من هذه النصوص أيضاً ، أن بعض المكاتب ، كان لتعليم مبادىء القراءة والكتابة والقرآن الكريم ، وبعضها كان يعلم فيه اللغة وما إليها . وكان بعض المكتبين أو المعلمين ، من أهل العصبية والأنساب ، كما يصفهم إبن خلدون ، يعلمون حسبة ، ولا يأخذون على تعليمهم أجراً ، وبعضهم كان يأخذ أجراً ، قد يكون أحياناً خبزاً ، كما ورد في هجاء بعضهم للحجاج . وكان المعلمون ، كدأبهم في هذه الأيام ، يضربون الصبيان . وأحسن شاهد على ذلك ما قاله أبو نواس :

إنني أبصرت شخصاً قد بدا منه صدودُ
جالساً فوق مُصَلّى وحواليه عبيدُ
فرمى بالطَّرْفِ نحوي وهو بالطَّرف يصيدُ
ذاك في مكتب حفص ان حفصاً لسعيدُ
قال حفص إجلدوه إنَّه عندي بليدُ
لم يزل مذ كان في الدر س عن الدرس يحيدُ
كشفت عنه خُزُوز وعن الخزِّ برودُ

ثـم هـالـوه بـسـير لـين مـا فـيـه عـودُ
عنـدهـا صـاح حبيبي: يـا مـعـلم لا أعـودُ
قلت يـا حفص أعف عنه إنـه سـوف يجـيـدُ

هذه صورة لطيفة للمعلم والكتّاب . لكنه لا يجوز أن نستنتج من هذا ، ومن الوصف الذي سبقه ، أن الكتاتيب كانت على نمط واحد . فالثابت أنها كانت تختلف بعضها عن بعض ، في مقدرة المعلم وغرضه من التعليم ، وتناول الأجر . وهو طبيعي في نظام لا تشرف عليه دولة ، ولا يتبع فيه مبدأ خاص .

المسجد

ثانياً : المسجد . ـ روى البخاري ، عن أبي واقد الليثي قال ، « بينا رسول الله (صلعم) جالس في المسجد ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله (صلعم) ، فوقفا على رسول الله (صلعم) ، فرأى أحدهما فرجة في الحلقة ، فجلس ، وجلس الآخر خلفهم » .

من هذا ومن كثير غيره ، يظهر أن المسجد كان من أوّل الأمر مكاناً للتعلم والتثقف . ففي المسجد تقام الاجتماعات العامة ، وتلقى الخطب ، ويتقاضى الناس ، ويتعلمون العلوم ،

ويشهدون مجالس الدرس والوعظ . وكان أول ظهور الدرس والبحث ، في مسجد الرسول (صلعم) في المدينة . وقد ذكرنا مكانة مسجد البصرة ، ومجالس الحسن البصري فيه . وفي كتب الأدب والتاريخ ، شواهد كثيرة على أن حلقات كانت تكوَّن في هذا المسجد وفي غيره ، حول كبار الفقهاء والأدباء . فهذه حلقة للعلوم الدينية ، وتلك حلقة للعلوم اللسانية ، وأخرى للكلام والجدل ، وغيرها للشعر والأدب . . ويروى أنه كانت للمعتزلة حلقة في مسجد المنصور في بغداد . وأن الطبري المشهور ، أملى شعر الطِّرمَّاح في مسجد عمرو بمصر ، وأن الكميت وحـمَّاداً الراوية ، تذاكرا في الشعر وأيام العرب ، في مسجد الكوفة .

فالمسجد إذاً كان دار ثقافة ، لا تقتصر المباحث فيه على الأمور الدينية ، بل تتناول اللغة والأخبار والشعر .

نظام الحلقات الدراسية

ونظام الحلقات هذا ، يشبه نظام اختيار موادِّ التخصص في الجامعات ، فإذا كان واصل بن عطاء ، لا يوافق الحسن البصري ، فله أن يعتزل حلقته ، ويكوِّن حلقة جديدة . فالمجال كان واسعاً للراغبين في العلم ، ينتقلون من زعيم حلقة إلى أخرى ، ويقبلون على السلم الذي تشتاق إليه نفوسهم . فالأمر حرِّيَّة تامة في التعليم والتثقيف والتربية . وهذه الحرية في

التربية والتعليم ، هي من أسباب خِصْبِ الانتاج الفكري ، في تاريخ الاسلام والعرب .

- ٦ -

مجالس المناظرة

كان الناس يتعلمون مبادىء القراءة والكتابة والقرآن الكريم في الكتّاب ، ثم يزيدون معرفتهم وثقافتهم ، بالانتساب إلى حلقات الدرس في المساجد . فالظاهر أن الكتّاب أساس السلسلة في التعليم ، والمسجد متممها في التعليم والتربية معاً . ولكنه نتج من النهضة العلمية ، اتساع نطاق البحث والدرس ، وهذا بدوره نتج منه اتساع وسائل التربية والتعليم ، التي يتناولها بحثنا الآن ، منها :

أولاً : مجالس المناظرة في العلم والأدب ، وكانت هذه المجالس تعقد في دواوين الخلفاء ، وفي قصور الأمراء ، وفي مساجد الله . يتناظر فيها العلماء في الفقه واللغة والشعر علناً . ثم دخل موضوع الحكمة والمنطق والكلام في البحث ، فكانت تدور بين العلماء المجادلات ، ويشترك فيها نظراؤهم . وكان الخليفة يتدخل بنفسه أحياناً ، ويشترك في البحث أحياناً أخرى ، فيرجح هذا الرأي على ذاك ، أو يوجه البحث إلى هذه الجهة أو تلك .

كان من عادة خلفاء بني أمية ، أن يتبارى الشعراء في بلاطهم ، وأن يستمعوا لأخبار العرب وأيامهم . ولكن خلفاء بني العباس ، زادوا على ذلك ، بأن فتحوا باب البحث والجدل على مصراعيه . واتخذت هذه المجالس شكلاً خاصاً ، لا نجاح فيه ، إلاّ لكل واسع العلم ، نيّر الفكر ، حادّ الذكاء ، حاضر البديهة .

ومن أسباب نجاح هذه المجالس ، أن العصر كان عصر بحث وتدوين وتعلّم ، لم تتخذ فيه العلوم شكلاً نهائياً ، فمجال الرأي واسع ، وأنّ الفرق والمذاهب كانت في دور التكوين ، وفيه بدأت آراء أصحابها ، تتخذ شكلاً معيناً . تظهر فيه نفسها ، وتدافع عن مبادئها . وأنّ هذه المناظرات ، كانت بمشارفة الخلفاء والأمراء ، فلا غنى فيها ، عن الاستعداد الطويل ، والتعمق في الدرس ، حباً للفوز والشهرة .

وكتب النحو والصرف والأدب والفقه والفلسفة ، ملأى بالأمثلة على هذه المناظرات . وكان المأمون أول خليفة من العباسيين ، شغف بالبحث والمناظرة . فهو الذي كان على جانب عظيم من العلم والثقافة ، يتناظر العلماء والفقهاء والمتكلمون في حضرته ، كأنهم في حضرة واحد منهم . ويروى أنه كان يقصد من إثارة البحث في مختلف المسائل ، التوصل إلى الآراء التي يرضاها هو ، ويفرضها على الناس قهراً ، وذلك

مأخوذ من قوله : « إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا ، سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين ، إمَّا شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعاً ، وإمَّا معاند فيرد بالعدل كرهاً » .

الجمعيات والأندية

ثانياً : (الجمعيات العلمية والأدبية والصوفية) ـ في كتب الأدب والتاريخ ، كثير من الشواهد على نمو جمعيات ، تبحث في العلم والأدب ، أو تؤمن بالزهد والتصوف ، أو تقول بالزندقة والشعوبية . والذي يهمني منها الآن ، ما كان له أثر في التربية والتعليم . ولا يستطيع الباحث أن يميزها ، لصعوبة الوصول إلى الحقائق التاريخية الثابتة . ولكن يمكن القول إجمالاً ، أن نشوء المذهبين المشهورين في الصرف والنحو ، كان دليلاً على هذا الاتجاه ، وكذلك ظهور المذاهب الأربعة في الفقه ، وافتراق الشعراء والأدباء ، إلى طبقات في الأساليب والأغراض .

وعلى هذا النحو ظهرت أيضاً جماعات من العلماء والأدباء ، لم ترض عن زمنها ، فألَّفت ما يشبه (الأندية) في أيامنا هذه . وكان المنتمون إلى هذه الجماعات ، يتدارسون العلوم والآداب التي تروقهم ، وينشرونها في الناس في كتب يكتبونها ، أو في

مناظرات يعقدونها ، ويفسحون في المجلس لمن شاء حضورها . وقد شاع أمر هذه الجماعات ، في القرن الثامن من حكم بني العباس ، ويلغ الذروة في حسن التنظيم ، وإتساع نطاق البحث ، وطهارة القصد ، في الجمعية المشهورة باسم (إخوان الصفا) التي ظهرت في القرن العاشر للميلاد .

إن أثر هذه الجمعيات في الثقافة والتربية ، يزيد على أثرها في التعليم ، لأن المفروض في الذي ينتمي إليها ، أن يكون قد مر بالكتاب ، ونال قسطاً من العلم والثقافة التي كانت متيسرة في المسجد . ويكاد يشبه عمل هذه الجمعيات في أيامنا هذه ، ما تقوم به المجامع العلمية ، أو معاهد التخصص ، أو دور النشر والتأليف .

وعند الاشارة إلى هذه الجمعيات ، لا يجوز أن ننسى الاشارة إلى الجمعيات التي أنشأها الزُّهَّاد والمتصوفون . . وقد كان ظهور الزهاد في زمن بني أمية . وكان أمرهم يكاد يكون محصوراً في الابتعاد من الدنيا ، ودرس القرآن الكريم ، وفهم الدين فهماً عميقاً ، مع حياة فيها تقشف وشظف . غير أن هذه الحركة تطورت ، فصارت في القرن الأول من حكم بني العباس ، حركة تصوف ، لها مبادىء في العلم والحياة ، ولها أتباع كثيرون من مختلف طبقات الأمة .

كان من مبادىء الزُّهَّاد والمتصوّفين : الاعتقاد بالفهم

الروحي ، وتعليق أهمية كبرى على قوة الخلق . وتعتبر هذه الحركة ، ردًّ فعل لحياة الترف ، التي ظهرت بخروج العرب من البداوة إلى الحضارة ، وهي أيضاً نتيجة طبيعية لاحتكاك المبادىء الاسلامية ، بالمدنيات القديمة . والظاهر من كتب الأدب والتاريخ ، أن أتْباع هذا المذهب ، لم يكونوا قليلين . ويرى الباحث في العصور الأخيرة من حكم بني العباس ، ما كان للمتصوِّفة ، من أثر كبير ، في نشر ثقافة خاصة ، واصطناع مذهب خاص ، في التربية والتعليم ، أساسه قوة الروح وعلوّ الخلق ، وصفاء العقل ، وكبح جماح الجسم . وهذا كله ظاهر في كتبهم ، ومبثوث في الفصول التي كتبها المؤرخون عنهم .

المكتبات ومعاهد البحث

وثالثاً : (المكتبات ومعاهد البحث والدرس) ـ لا تفرق المراجع التي وقفنا عليها ، بين المكتبة ، وأماكن البحث والدرس . « فبيت الحكمة » و « دار العلم » وغير ذلك من المعاهد ، لا يصح أن نسميها مدارس ، ولا كليات ، ولا ما يقرب من ذلك ، إلّا إذا فسرنا هذه المسميات تفسيراً يناسب غرضنا . والظاهر من النصوص ، أن هذه المعاهد ، كانت مكتبات في الدرجة الأولى ، يجتمع فيها العلماء والمتعلمون ، للمطالعة من جهة ، وللمدارسة والتعلم من جهة أخرى . لأنه

كان من نتائج النهضة العلمية ، التي امتاز بها عهد بني العباس ، ظهور الرَّغبة في جمع الكتب . وقد تسابق الخلفاء والأمراء والعلماء الموسرون في ذلك ، وبدأت الرغبة في جمع كتب الأمم القديمة وترجمتها ، وفي جمع الكتب التي دوّنت فيها العلوم اللسانية والعلوم الشرعية .

اختلف الباحثون في (بيت الحكمة) . فمن قائل انه كلية جامعة سبق ظهورها ظهور جميع جامعات العالم . ومن قائل أنه معهد للترجمة ، ومن قائل بل هو مكتبة لا غير . . وسبب ذلك الاختلاف ، قلَّة ما نعرف عنه ، وعن هذا الاسم الجذّاب الذي يتحلى به . ومن رأيي ، أن بيت الحكمة هذا ، كان مكتبة جامعة ، فيها أماكن للنسخ ، وأماكن أخرى للترجمة ، وأماكن غيرها للبحث والمدارسة . وقد جاء في النصوص التي بين أيدينا ، ما يثبت هذه الأمور ، وهي وجود الكتب ، وحدوث الترجمة والبحث . . أما ما زاد على ذلك ، فمسألة رأى وتفسير .

والخلاصة ، إن انتشار المكاتب والمعاهد المتصلة بها للترجمة والنسخ ، وما ينتج من هذا كله ، من مدارسة وبحث ، أمر ثابت بالرجوع إلى مختلف المصادر . وقد ساعد ذلك ، تقدم التربية والتعليم . فمن أراد استكمال معرفته في مادَّة من المواد ، يمم شطر المكتبة ، أو التحق بالمعاهد القريبة منها ، حيث يجلس العلماء ، فيشاركهم في البحث ، ويتعلم منهم ، وينقل عنهم في

العلم والأخلاق . وهذا كما لا يخفى هو التعليم الممزوج بالثقافة والتربية .

طلب العلم

ورابعاً : (الرِّحلة في طلب العلم) ـ روي عن أبي الدرداء أنه قال : « لو أعيتني آية من كتاب الله ، فلم أجد أحداً يفتحها عليَّ ، إلا رجل (ببرك الغماد) لرحلت إليه » . وقال الشعبي : « لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ، ليسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره ضاع » .

هذه هي الروح التي سرت في العرب والمسلمين في صدر الاسلام : طلب العلم والرِّحْلة لتحقيقه . وأصل الحاجة إلى الرحلة عدم توفر الورق ، وصعوبة وجود الكتب ، وقلة الثقات في العلوم ، والحاجة إلى تحقيق بعض الأمور من أصولها ، كالرجوع إلى البادية في مسائل اللغة ، أو اللَّحاق بالصحابة في الأمصار ، أو سماع الرُّواة في البلدان . وقد بدأ هذا بالعلوم الدينية ، فكان المحدثون أنشط الناس في الرحلة في طلب العلم ، وذلك لأن الصحابة تفرقوا في الأمصار بعد الفتح ، ولا بد من الرحلة للوصول إليها ، إبتغاء التحقيق في الحديث وروايته .

ومن الأمثلة على ذلك ما فعله يحيى اللَّيثي ، فإنه رحل من الأندلس إلى المشرق ، فسمع الموطأ من مالك في المدينة ، وسمع من سفيان بن عيينة في مكة ، وسمع من الليث بن سعد في مصر . أما البخاري فقد رحل في تحقيق (صحيحه) ، إلى أكثر محدّثي الأمصار ، في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر .

وقد امتدَّ هذا النشاط إلى طلب العلوم اللغوية والفلسفية . فرحل الخليل والأصمعي والكسائي إلى الصحراء ، لسماع اللغة والأدب . ورحل حنين بن إسحق ، إلى بلاد الروم ، فتعلم اليونانية ، وإلى الشام ومصر فجمع الكتب النادرة . ورحل إبن سهل البلخي ، إلى العراق والبلاد المتاخمة لها ، ولقِيِ الكبار والأعيان ، وتتلمذ لهم ، واقتبس عنهم الفلسفة والطِّبَّ والدين .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

التربية والتعليم في العصور الإسلامية

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
اسلامية

التربية والتعليم

في

العصور الإسلامية

٢

دار الفكر اللبناني



أثر المؤدبين

انتهينا من الرِّحلة في طلب العلم ، وأثر ذلك في التربية والتعليم ، في القرن الأول من حكم بني العباس . وبقي أن نتناول المادتين الأخيرتين من الوسائل التي أشرنا إليها ، وهما أثر المؤدبين ، وأثر الصحراء والجزيرة العربية . وأولى المادتين :

أثر المؤدبين ـ كان الكتاب أو المكتب ، المكان الوحيد ، الذي كان يتعلم فيه الناس ، مبادىء القراءة ، والكتابة والحساب ، والقرآن الكريم ، وشيئاً من الأخبار والأشعار .

وذلك إلى أن تمَّ تأسيس المدارس النظامية ، في القرن الحادي عشر للميلاد . ولكن الكتّاب لم يكن من المعاهد التي تقيمها الدولة ، وتديرها وتشرف عليها ، وتنفق المال لتقدمها ونمائها .

بل كان معهداً خاصاً ، يقيمه من له رغبة ومقدرة في بيته ، أو في مكان عمله ، أو في أي مكان آخر . وكان يختلف إليه عادة ،

أبناء العامة والطبقة الوسطى ، من الراغبين في تعلم القراءة والكتابة .

والظاهر من النصوص الكثيرة ، أن أبناء الموسرين والأمراء والخلفاء لم يتعلموا في الكتّاب . أو أن كثرتهم ، لم تتعلم القراءة والكتابة ، على أيدي معلمي الكتاتيب والمكاتب . بل كان هؤلاء يتعلمون ويتأدبون ويتثقفون ، على أيدي طبقة خاصة من المعلمين ، تصفهم كتب الأدب والتاريخ أحياناً بصفة (المعلم) ، وفي معظم الأحيان بصفة (المؤدب) .

إن معنى كلمة (مؤدّب) ، كما ترد في النصوص التي بين أيدينا ، يقرب كثيراً من معنى (Tutor) ، أي المعلم الخاص ، الذي يعتني بتعليم الطالب ، ما يتعلمه الناس في المدرسة ، ثم يعنى بتهذيبه وتدريبه ، على طرق السلوك القويم وحسن التعبير عن النفس ، وإبداء شروط الرجولة الحقة . وهذا هو المعنى الذي تدل عليه الكلمة اللاتينية ، التي اشتقت منها الكلمة الانكليزية السابقة الذكر .

والأمثلة كثيرة على وجود المؤدب ، وقيامه بمهمة التعليم والتأديب والتهذيب والتثقيف . وبعض هذه الأمثلة يرجع بتاريخه إلى العهد الأموي ، وأكثرها يمكن استخراجه من تاريخ العهد العباسي . . فقد كان بنو أمية ، يعتنون عناية خاصة بتأديب أبنائهم ، بإرسالهم إلى الصحراء لتعود النطق باللسان العربي الصحيح ، ولتعود حياة الشدة والرجولة ، وكانوا أيضاً

يعينون لهم مؤدبين ، يعلمونهم القراءة والكتابة والأخبار والأشعار ، وآداب المجالسة والمخاطبة والمناظرة .

أما بنو العباس ، فقد كان يصبح تأديب أبنائهم ، نظاماً خاصاً في عهدهم . فالمفضل الضبي ، كان يؤدب المهدي . والأدب العربي ، مدين لهذه العلاقة بين المؤدب وتلميذه ، بما نتج منها ، وهو كتاب (المفضليات) المشهور ، الذي اختار أشعاره المفضل ، ليتثقف بها تلميذه . وكان الكسائي ، يؤدب الأمين بن هرون الرشيد ، ويعلمه الأدب . وكان إبن السِّكِّيت يؤدب ولد إبن طاهر . . هذه بعض الأمثلة ، على شيوع استخدام المؤدب ، كمعلم ومرب معاً . والظاهر أن عمل المؤدب من ناحية التربية والتعليم ، لم يكن مجدداً . ولا غرابة في هذا لأنه ينطبق على جميع وسائل التربية والتعليم ، في تاريخ العرب والاسلام ، لا على ناحية واحدة فقط .

أثر البادية والجزيرة العربية

والمادة الثانية ، وهي الوسيلة الأخيرة من الوسائل التي سبق تفصيلها :

(أثر البادية والجزيرة العربية) - يروى أن عمر بن الخطاب قال : العرب مادة الاسلام . . وقياساً على هذا ، يمكن القول ، إن البادية أو الجزيرة العربية ، هي مادة لغة العرب ومنشأ أخلاقهم . فإن قال قائل ، إنَّ أثر الجزيرة في هذا الباب ، قد

انتهى بخروج العرب إلى الأمصار بعد الاسلام ، فإني أسأله رأيه ، في سبب رجوع علماء اللغة إلى البادية ، لاستقصاء أصولها ، وتدوين الشواهد عليها ، وتصحيح السقيم منها . ـ وفي حكمة إرسال أبناء الموسرين والأمراء والخلفاء إلى البادية ، لتقويم لغتهم وتقوية أبدانهم . ـ وفي سر بقاء الأخلاق البدوية ، من الكرم والمروءة والعزَّة والعصبية ، أساساً لمثل السلوك ، عند ظهور الاسلام وبعد انتشاره . . فكل هذا ، يثبت أن أثر البادية والجزيرة ، بقي ظاهراً بعد الاسلام ، إن لم يكن قد زاد في الأهمية .

لم يكن عدد الذين يتعلمون من البادية وأهلها ، حتى في زمن بني العباس ، قليلاً . ولم ينصرف علماء اللغة والأخبار عن عادتهم ، في استقصاء مادتهم من أصولها ، في مضارب الأعراب ومفاوز الصحراء . ولم تزل مدن الحجاز موئلاً لطلب العلم ، ومحدثوها وفقهاؤها ومؤرّخوها في الدرجة الأولى ، من الدقة والأمانة والتقوى .

ويكفي للدلالة على صحة هذا الرأي ذكر بعض المشاهير . فمنهم المحدِّث مجاهد بن جبر ، والمحدِّث سفيان بن عيينة ، الذي أخذ عنه الشافعي وأحمد إبن حنبل . ومنهم الامام مالك بن أنس ، ومنهم الواقدي شيخ المؤرّخين . . فالحجاز الذي خسر الرئاسة السياسة ، منذ إبتداء عهد بني أمية ، لم يخسر شيئاً من نشاطه العلمي . بل يظهر أن الخيبة السياسية ، نتج

منها نهضة علمية . ولا يخفي ، أن تطبيق مبدأ الرِّحلة في طلب العلم ، كان يتناول ، أولاً استقصاء الحديث والفقه ، وثانياً البحث في اللغة والأدب . وأهم مكان للأول الحجاز ، وللثاني البادية إجمالاً . وإن ذهاب الناس إلى الحجاز ، للقيام بفريضة الحج ، مهّدَ السبيل لاتصال علماء الأمصار ، بعلماء مكة والمدينة ، والأخذ عنهم ، ونشر علمهم وروايتهم ، في بلدان الدولة الاسلامية الكثيرة .

فالبادية العربية ، وحواضر الحجاز ، كانت من وسائل التربية والتعليم المهمة ، وكان عدد ليس بقليل من الناس ، يلجأ إليها في عهد بني أمية ، وفي عهد بني العباس أيضاً . . .

ملخص

ويمكن تلخيص كل ما مضى ، بما يأتي : كان الناس يتعلمون مبادىء القراءة ، والكتابة والحساب والقرآن الكريم ، وشيئاً من الأخبار والأشعار ، في الكتّاب أو المكتب ، ويزيدون على ذلك شيئاً في المسجد . وبعد ذلك لا ضابط لتعلمهم أو ثقافتهم . فقد يقف تعلم الكثيرين عند هذا الحد . أما الذين كانوا يزيدون على ذلك ، فكانوا أيضاً متفاوتين في مقدار علمهم ونوعه . فقد يذهب الواحد منهم إلى حلقة في المسجد ، لسماع الحديث أو اللغة أو الشعر . وقد ينتمي غيره ، إلى جمعية أدبية أو صوفيَّة ، فيتوجه تعليمه إلى جهة خاصة . وقد يكون لآخر ميل إلى المناظرة

والجدل ، فيلازم بعض مجالس الأدب . وقد يجد غيرهم من نفسه حباً للكتب ، ومباحثة قرَّائها ، فيتردد على المكتبات وأماكن الورَّاقين . وقد يرغب آخرون في الاستزادة من العلم ، فيرحلون إلى الأمصار أو إلى البادية . وقد يكون غيرهم من أبناء الخلفاء والأمراء ، فيعين لهم مؤدب ، يعلمهم مختارات من العلم والأدب . . فالكتَّاب أو المكتب ، هو المكان الوحيد للتعليم الحقيقي . أما الوسائل الأخرى فهي أقرب إلى التربية والتثقيف ، منها إلى التعليم الصِّرْف .

الثقافة العامة

بقي الآن ، ناحية أخرى من نواحي التربية والتعليم ، في القرن الأول من حكم بني العباس ، وهي تتعلق بالثقافة العامة من الناحية الفنية . . فالمعروف أن التربية والتعليم ، لا يقتصران على تعلم المباحث في المدرسة ، وحشو الذهن بمختلف الحقائق والآراء ، بل يتناولان أيضاً ، رياضة الجسم بالألعاب على أنواع ، ورياضة الروح بالموسيقى والغناء ، وما أشبه ذلك . وهذا هو ما أريد بحثه .

تذكر كتب الأدب والتاريخ ، وخاصة (الأغاني) ، أن خلفاء بني العباس ، بعد أن استتب لهم الملك، صاروا يجلسون للمغنين ، ويستمعون للندماء والقيان ، وقد تبعهم في ذلك ،

نفر كثير من من الخاصة ، وسرت العدوى من هؤلاء ، إلى الطبقة الوسطى . فشاع في الناس حبُّ الترف في المسكن والملبس والمشرب ، وطغت عليهم موجة طرب وظرف وشرب . وشاع مع هذا ، لعب الشطرنج والنرد والصولجان ، وتبارى الموسرون في اقتناء الحيوانات الأليفة ، كالديوك والكلاب ، وفشا شرب الخمر ، وحب اللهو ، والتغني بمحاسن الطبيعة والنساء ، وزاد في هذا ظهور طبقة الجواري ، اللواتي نلن قسطاً كبيراً من الثقافة ، مع معرفة بالأشعار والأخبار ، ومقدرة على الغناء والضَّرْب على الآلات .

فن الغناء

كان الخلفاء يعنون بتعليم حسان الجواري الغناء . وتعليمهن الغناء ، يحتاج إلى تعليم الأدب ، لأن مادَّة الغناء ، كانت الشعر العربي الفصيح ، كشعر عمر بن أبي ربيعة ، وبشار بن برد ، ومسلم بن الوليد . . قيل لـمَّا أفضت الخلافة إلى المتوكل ، جاءته هدية ، فيها جارية كانت لرجل من أهل الطائف ، ـ قد أدَّبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم . فكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس ، فحسن موقعها من المتوكل . وكان إبراهيم الموصليُّ ، مغني الرشيد ، من أنشط الناس في تعليم الجواري الغناء وتأديبهن وتثقيفهن .

ولا شك أن هذا النمط من الحياة ، قد ترك أثره في التربية والتعليم . ويمكن تحديد ذلك فيما يلي : (١) أثره في أغراض التربية والتعليم . (٢) أثره في تقدم الذوق الفنّي . (٣) أثره في إيحاء الشعر وتوجيهه . ونترك الأمرين الأخيرين ، لأنهما لا يتعلقان بموضوع هذا الحديث ، ونترك أيضاً بحث هذه الظاهرة ، من ناحيتها الخلقيّة ، في تعكير صفاء الخلق العربي ، وتشويه جمال الفضائل الاسلامية . ونقتصر من ذلك كله ، على ما كان له علاقة بالتربية وأغراضها .

العزف والشعر والفروسية

يؤخذ من قول للحسن بن سهل ، أن من علامات الرجل المهذب المؤدب ، أن يعرف الضرب على العود ، ولعب الشطرنج والصولجان والفروسية ، مع معرفة بالأخبار والأشعار ، وعلم بأحاديث السَّمر ومحاضرات المجالس ، ووقوف على الطب والهندسة . وكأنه قال : إن الغرض من التربية والتعليم ، هو الوصول إلى معرفة هذه الأمور . فهذا المنهاج ، يتناول جميع نواحي الحياة ، والشيء الجديد فيه ، هو معرفة الموسيقى والغناء والشطرنج . واهتمام الناس بمعرفة هذه الأمور ضرورة نشأت عن حضارة العصر ، لا يجوز أن نمر بها ، دون أن نسترعي الانتباه إليها . فالمتعلم المهذب المربّى ، هو

الذي يعرف شيئاً من العلوم اللغوية والشرعية والفلسفية ، هو الذي يقوى على الحياة ، وهو الذي يحسن السلوك ، وله إلمام بقواعده العلمية والاجتماعية والفنية .

نضج النشاطات الأدبية

يكاد يكون البحث في التربية والتعليم ، من نهاية القرن الأول من حكم بني العباس ، إلى ظهور المدارس النظامية ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، بحثاً في نضج حركات الترجمة والتدوين والتأليف ، وفي ما ينتج من ذلك ، من نشاط الفرق الدينية والفلسفية ، وتنافسها في نشر مبادئها ، وما كان لسلطان الخليفة في ذلك ، من التشجيع أحياناً ، والتضييق أحياناً أخرى .

كان همُّ العرب منصرفاً في أول الأمر ، إلى درس علوم اللغة والدين ، كما عرفنا ذلك في بحث التربية والتعليم ، في عهد بني أمية ، وصدر الدولة العباسية ، ولكن درس الدين وفهمه ، والدفاع عنه من جهة ، وإتصال العرب والمسلمين بمدنيات الأمم الأجنبية من جهة أخرى ، نتج منهما إتصال فريد في بابه ، في عالم الفكر ، وفي عالم المادة . فكثر التزاوج بين العرب والأعاجم ، وفشت بين المسلمين أساليب الأعاجم ، في الملبس والمسكن

والمشرب . وجاء مع هذا الاتصال الماديّ ، اتصال آخر في عالم الفكر ، وهو الذي نشير إليه هنا .

عاصمة الدنيا

والظاهر أن انتشار السلام ، وازدياد الثروة ، وسياسة التسامح ، التي سار عليها بنو العباس مع الأعاجم ساعد على تحقيق ذلك . فأصبحت بغداد عاصمة الدنيا في العلم والأدب ، ولم يكن يضاهيها في ذلك سوى القسطنطينية . وفيها تمثل اختلاط مدنية العرب ، بنتاج المدنيات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، ومبادىء الديانات اليهودية والنصرانية والبوذية . فكثر البحث والجدل والأخذ والعطاء . وعاصر ذلك ، حركة الترجمة والتأليف . وساعد ذلك ، ما أظهره بعض الخلفاء من الرغبة في نشر العلم ودرسه .

نعرف من التاريخ ، أن اليهود بعد إتصالهم بمدنية اليونان ، عن طريق مدرسة الاسكندرية ، اضطروا إلى درس آداب اليونان وعلومهم ومنطقهم ، لاستعمال ذلك في شرح الديانة اليهودية ، وفي الدفاع عنها . فظهر من هذه الحركة عندهم ، مبدأ التأويل في فهم معاني التوراة ، واتخاذ المنطق والجدل واسطة

للدفاع عنها . ويلاحظ الباحث في ذلك ، أساليب سقراط ، أو آراء أفلاطون ، مبثوثة في المباحث اللاهوتية اليهودية .

المنطق والفلسفة

ونعرف من التاريخ أيضاً ، شيئاً عن الذي حدث في تاريخ الديانة النصرانية ، بعد اتصالها بفلسفة اليونان والرومان ، وهو يشبه ما حدث في تاريخ الديانة اليهودية شبهاً كبيراً . لكن يظهر ، أن الأثر اليوناني في هذه الحالة كان كبيراً ، لأن علماء النصرانية ، اصطنعوا الفلسفة إلى حد كبير ، في تفسير دينهم ، أو في الدفاع عنه . ولا يجد الباحث صعوبة كبيرة ، في ملاحظة منطق أرسطو ، ونماذج أفلاطون ، ومعرفة سقراط ، وهي تطبق على مبادىء السيد المسيح .

وهكذا لم يجد المسلمون بدّاً ، من اصطناع علم المنطق والكلام والفلسفة ، لتفسير الدين ، أو للدفاع عنه . وهذا الأمر هو باعث الترجمة ومشجعها الأول . وساعد على ذلك أيضاً ، ما كان بين بعض الفرق النصرانية ، من اختلافات دينية ، فالنساطرة واليعاقبة ، قاموا بترجمة كتب كثيرة من اليونانية إلى السريانية ، في مدارس حران والرها ، لاصطناع مادتها

وأسلوبها ، في مجادلاتهم الدينية . ووجد العرب والمسلمون الطريقة ممهدة بعض التمهيد ، إذ أخذوا في ترجمة العلوم اليونانية عن السريانية ، للغرض ذاته . ولكنه يظهر ، أن العرب قد استفادوا من أسلوب الكتب اليونانية ، أكثر مما استفادوا من مادتها . والدليل على هذا ، أننا لا نجد أثراً لآلهة اليونان في كتب العرب ، ولكننا نجد أدلة كثيرة ، على شيوع المنطق والرأي والقياس والإجماع .

الفرق الإسلامية

وساعدت هذه الحركة ، على نمو الفرق الاسلامية ، وتطور مبادئها ، ونضج آراء أصحابها . فلا تكاد تخلو فرقة من الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة والمتكلمين والمتصوفين والفلاسفة والشعوبية والزنادقة ، من اصطناع شيء من مادة العلوم الجديدة أو أسلوبها . فطبق مبدأ التأويل والقياس ، على آيات القرآن الكريم ، وفسَّرتها كل فرقة بالطريقة التي كانت تناسبها ، فكثر البحث في حرية الارادة والأزل ، ووحدانية الله وصفاته ، بصورة منطقية فلسفية ، لا يكتفي فيها بالإيمان المطلق .

كان يتربى أبناء العرب في مثل هذا الجو العلمي ، وكانوا

يتعلمون بطرق تختلف باختلاف ميولهم العلمية والأدبية ، وأذواقهم الدينية والفلسفية . فكانت لهم حرية تامة في الطلب والتحصيل . ولكنه يظهر لنا ، أنَّ هذه الحرية ، لم تكن مطلقة في ناحية العقيدة والرأي ، بدليل ما فعله المأمون عندما ناصر المعتزلة في رأيها ، في خلق القرآن ، وحرية الارادة ، وسلطان العقل . وقصته في محاولة إرغام الإمام أحمد بن حنبل ، على قبول هذا الرأي ، مشهورة لا تحتاج إلى بيان .

ويظهر أن المأمون أراد أن يجعل من نفسه ، أو من مجلس العلماء في بلاطه ، مجمعاً علمياً ، له القول الفصل في الآراء والمعتقدات ، فإذا توصل المجلس إلى الموافقة على رأي ، فعلى سائر الناس من العلماء والدَّهْماء ، أن يعتنقوه طوعاً أو كرهاً .

وهذه الطريقة سابقة خطرة في تاريخ طلب العلم . فإن أنصار الأشعري من المتكلمين ، وعامة أهل السنة من الحنابلة ، قد اصطنعوها في اضطهاد المعتزلة في عهد المتوكل . . وتدخل الدولة في اعتناق الآراء ، وفي طلب العلم ، نتج منه أمران مهمان : أولهما ظهور الجمعيات الفلسفية السِّرِّيَّة ، وثانيهما ظهور المدارس التي تعلم نوعاً خاصاً من المعرفة ، تحت مراقبة الدولة . سأذكر الآن شيئاً عن هذه الجمعيات السرية ، على أن أعالج ظهور المدارس في وقت آخر .

الجمعيات السرية

أشرنا في مكان آخر ، إلى أثر الجمعيات العلمية والأدبية والصوفيّة ، في التربية والتعليم . ولكن هذه الجمعيات كانت عامة كالأندية في أيامنا هذه ، لا يحيط بها شيء من الغموض أو الكتمان ، إلّا ما كان منها يقول بالتَّقيَّة غير أن تدخل الدولة في طلب العلم ، واعتناق الآراء ، أرغم بعض المفكرين ، على تأليف الجمعيات السرية ، التي كانت تبحث في العلوم التي لا ترضى عنها عامة الناس ، أو لا توافق عليها الدولة ، أو تعاديها فرقة قوية من الفرق .

وأشهر الأمثلة على ذلك ، الجمعية السرية المعروفة باسم إخوان الصفاء وهي التي ظهرت في القرن العاشر للميلاد في البصرة. ولهذه الجمعية نظام في التربية والتعليم ، يكاد يكون فريداً في بابه ، ويستحق أن يفرد له بحث خاص . فهي من حيث أعضاؤها ، تمثل النهضة العلمية في عصرها ، ففيهم الأديب والعالم والفيلسوف والصوفيُّ والفارسي والعربي ، وهم لا ينتمون إلى عقيدة ، ولا يتعصبون لرأي ، ولا يعرضون عن نوع من أنواع العلم والمعرفة . . جاء في رسائل اخوان الصفاء : « نحن لا نعادي علماً من العلوم ، ولا نتعصَّب على مذهب من المذاهب ، ولا نهجر كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة » ـ لأن ـ « رأينا ومذهبنا ، يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها » .

وكان غرضهم إصلاح النظام السياسي القائم ، عن طريق نظام خاص في التربية والتعليم . وكانوا يعتقدون أن التربية والتعليم ، يجب أن يتناولا بالدرجة الأولى ، الروح والعقل ، وبالدرجة الثانية الجسم ، ولهذا ألَّفوا رسائلهم ، لتكون مادة لدعوتهم . . والرسائل ملخص جميع العلوم ، التي كانت معرفة في القرن العاشر للميلاد ، ووضعت طريقة خاصة لنشرها في الناس ، وتعليم ما فيها للرَّاغبين ، وهي طريقة التدرج من المحسوس الذي تدركه الحواس ، إلى المعقول الذي يقبله العقل ، إلى الملهم الذي يسمو بالروح . .

وكان أعضاء هذه الجماعة ، يعتقدون أن المعرفة ، فيها خلاص الانسان من شرور الدنيا ، ووصوله إلى درجة راحة النفس ، والاطمئنان الفكري . ومذهبهم هذا ، كما تذكر الرسائل ، هو مزيج من الفلسفة اليونانية ، والديانة الاسلامية ، بأوسع معانيها ، مع شيء كثير من التغيير والتطبيق .

دائرة معارف عامة

ونظامهم في التعليم جذَّاب مفيد ، لا يراد تطبيقه على جميع الناس . فهو أقرب إلى الدعوة السرية منه إلى اسلوب شامل في

التعليم ، يختار من يتوسمون فيه الخير، ويمهدون لاعطائه الأجزاء الأولى من الرسائل ، التي تبحث في الأمور المحسوسة المشاهدة ، بإثارة روح البحث في نفسه ، وتشويقه إلى معرفة أشياء لا يعرفها . وبعد درس الرسائل الأولى ، يتدرج معه فيها إلى المعقولات ، فالمعتقدات ، ـ وكل ذلك بأسلوب سهل ، فيه لين ورأفة وصبر .

يعد تأليف رسائل إخوان الصفاء ، من أهم الخطوات في تاريخ الفكر العربي ، إذ بتأليف الرسائل ، تكون حركة الترجمة والتأليف والبحث والدرس ، قد بلغت غايتها ، وهي تأليف دائرة معارف عامة ، لجميع علوم العصر ، تمثل نضج العلوم الاسلامية في القرن العاشر ، أحسن تمثيل . وأني أرى أن نضج الثقافة الاسلامية ، وانتشار وسائل العلم ، وتوافر المعرفة للناس ، مهدت السبيل لظهور المدارس الجامعة ، في القرن التالي ، وهو ما سنعالجه في صفحات قادمة .

منهج التعليم العام

وتمهيداً لذلك ، يجدر بنا أن نذكر الآن ، بعض ملاحظات عامة ، تتعلق ببحث التربية والتعليم ، من أول عهد بني العباس ، إلى نهاية هذا الدور الذي نعالجه . وهذه الملاحظات

إجمال لبعض ما تناولته الصفحات السابقة وتعليق على بعض النواحي الغامضة فيها ، وإتمام لبعض النواحي الأخرى .

لم يكنِ التعليم بمراحل ، فيها الابتدائي والثانوي والعالي ، تبدأ بالكتّاب ، ثم بالمسجد ، ثم بدار الحكمة . لم يكن للتعليم منهج عام تسير بحسبه جميع المعاهد ، كما لم يكن منهج خاص تتبعه المعاهد التي على نمط متقارب ، وترمي إلى أغراض متشابهة .

ولم تكن هناك درجات معروفة للمعلمين وشهاداتهم ، فهذا معلم ابتدائي وذاك أستاذ في كلية ، وغيره حجة إمام في كل شيء . ويجد من يدرس كتب الأدب واللغة والتاريخ ، أن المؤلفين يطلقون على من اشتغلٍ بالتعليم عدَّة أسماء ، منها العلم والمؤدب والمدرس والشيخ والأستاذ والعالِم والإمام .

ومن العبث أن نحاول تفسير هذه الأسماء ، بما تدل عليه في هذه الأيام ، أو أن نقابلها بنظام تسمية المعلمين في الكليات والجامعات الحديثة . وذلك لأن الضابط لذلك شيء غير محدود ، وهو الرأي العام في مقدرة صاحب اللقب ، ورأي المؤلف الذي يؤرخه في ذلك . ولكن الظاهر أن كل متعلم ، آنس من نفسه المقدرة ، كان يجلس مجلس العلم ، فيناقشه الأقران ، فإن ساواهم ، أو برز عليهم ، ثبت في مكانه ، وإلاَّ عاد للتعلم في حلقة غيره .

وهذا يفسر مسألة (البراءة) التي كان يأخذها المتعلمون من شيوخهم ، فهي شهادة بأن الطالب قد درس على ذلك العالم ، مبحث كذا ، أو موضوع كذا ، وليست رتبة علمية معينة ، لها مستواها المحدد . . لهذا كان الراغبون في توطيد مركزهم العلمي ، يجمعون عدداً من هذه البراءات ، من علماء أكثر البلاد الاسلامية ، ليثبتوا بها مقدرتهم ، وحقهم في الجلوس مجلس البحث والمناظرة . .

المرأة والتعليم

ذكرنا شيئاً عن أثر الحضارة في التربية والتعليم ، من ناحية ظهور طبقة الجواري اللواتي يحسن الغناء والأدب ، وفصَّلنا الطرق التي كان يسلكها الخلفاء والأمراء ، للحصول عليهن وتهذيبهن وتأديبهن ، حتى إن بعض الناس ، جعل ذلك صناعة له . . والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن : هو : هل كان التعليم والتثقيف ، يشمل أيضاً الحرائر المخدرات ، من غير الجواري والقيان ؟

يظهر من النصوص ، أن تعليم النساء لم يكن شائعاً ، مع أن الشواهد كثيرة ، على وجود عدد كبير من المتعلمات العالمات . لا يجوز الاستنتاج من اختلاف الجواري إلى أماكن الدرس والتعليم ، أن عامة النساء ، كنَّ يفعلن ذلك . فالظاهر أن

اللواتي نلن قسطاً من المعرفة والعلم ، كن يتعلمن بصورة خاصة ، في بيوتهن ، أو في أماكن شبيهة ببيوتهن .

وجاء : انه لا يجوز أن تتعلم المرأة الكتابة والقراءة ، بل يكتفي بتعليمها القرآن الكريم والغزل . ولكنه جاء أيضاً : أنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وقد وصلتنا أخبار عدد كبير من النساء ، اللواتي اشتهرن بالعلم والزُّهد والشعر . واكتفي من ذلك بذكر عائشة أم المؤمنين ، وهي من أهم مراجع الحديث الشريف . ثم رابعة العدوية الزاهدة المتصوِّفة ، التي عاصرت الحسن البصري ، ثم علية بنت المهدي، التي كانت تحسن قول الشعر وتلحينه .

ظهور المدارس

يتناول الكلام هنا ، بحث ظهور المدارس في تاريخ التربية والتعليم عند العرب . والمقصود بالمدارس هنا ، الأماكن التي بنيت لنشر نوع خاص من أنواع المعرفة ، بمشارفة الدولة التي تنفق عليها المال ، وتحبس لها الأوقاف ، وتراقب فيها التعليم ، وتعين لها المعلمين . ولا يشمل ذلك ، الأماكن التي كان يمكن التردد عليها لتلقي المعرفة ، كالمسجد ومجالس الأدب والجمعيات ومضارب الأعراب ، ممّا فصلنا سابقاً . وقد أجمع الكتّاب والباحثون ، على أن تأسيس المدارس بهذه الصفة ، لم يتم قبل

القرن الرابع للهجرة ، أو القرن العاشر للميلاد . واختلفوا في أسبق الناس إلى ذلك .

يقول المقريزي : إن المدارس مما حدث في الاسلام ، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة ، من سني الهجرة . وهذا قول حق يثبت بالرجوع إلى الحقائق التاريخية ، كما سأشرحه في الفِقَر التالية . . لكن المقريزي ، يذكر أيضاً أن الخليفة المعتضد بالله ، الذي ولي الخلافة ، في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة ، قد أراد أن يقيم بجوار قصره في بغداد ، المقاصير والمساكن والدور ، لكي « يرتب في كل موضع رؤساء كل صنعة ومذهب ، من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، ويجري عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة ، رئيس ما يختاره ، فيأخذ عنه » .

أول منشىء المدارس

هذا مع العلم ، بأن الشائع بين الناس ، بناء على رواية (الذهبي) ، أن أول من أنشأ المدارس في الاسلام ، هو نظام المُلْك الذي وزر للسلاجقة ، في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة . لكن بعض المؤرخين ، كالسبكي والسيوطي ، يقررون أن المدرسة البيهقية قد أسست بنيسابور ،

قبل أن يولد نظام الملك ، وأن المدرسة السعدية ، قد أسست بالبلدة نفسها ، على يد الأمير نصر بن سبكتكين ، أخي السلطان محمود المشهور ، قبل تأسيس مدارس نظام الملك . والظاهر أن سبب نسبة تأسيس المدارس إلى (نظام الملك) ، يرجع إلى شهرته الادارية ، وإلى كثرة المدارس التي أسسها ، وإلى دوام كثير منها ، وخدمتها الجلي للدولة . . فالمعروف أن نظام الملك ، قد بنى المدارس في بغداد والبصرة والموصل وبلخ ونيسابور وهراة وأصبهان ومرو وآمُلِ بطبرستان ، حتى قيل ، إنه كان في كل مدينة من مدن العراق وخراسان مدرسة .

إذاً يمكننا القول ، أن تأسيس المدارس بمعناها الخاص الذي شرحناه ، لم يكن قبل القرن العاشر للميلاد ، وأن انتشارها أو ثبوت أمرها ، لم يتم قبل النصف الثاني من القرن الحادي عشر .

نمو معكوس

وهذه المدارس أقرب شيء إلى المدارس التي نطلق عليها الآن إسم مدارس الحكومة . ولكنه يبدو لي ، أن مدارس العرب والمسلمين ، في القرن الحادي عشر للميلاد وما بعده ، لم تنشأ نشأة طبيعية ، إذ ظهرت كاملة النمو ، ولم تتطور على مرور الزمن . بل يمكن القول ، أنها نشأت نشأة معكوسة ، كمن راح يبني قمة البرج ، قبل أن يقيم دعائمه ، ويوطد أركانه . لأن

الظاهر من النصوص ، أن هذه المدارس ، كانت من مستوى عال ، تقرب من الكليات والجامعات ، ولم تكن بجانبها أو تحتها درجات أخرى ، من المدارس الابتدائية والثانوية التابعة للحكومة ، لكي تغذيها بالطلبة ، وتكون أساساً لنظام التعليم فيها . فالمدرسة في تاريخ الاسلام ، بدأت بالجامعة ، وانحطت إلى مستوى الزاوية والكتّاب . ولم تبدأ ببستان الأطفال ، ثم ترتفع بالتدريج إلى مستوى الجامعة .

هذا من جهة المستوى ، أما من جهة البرامج ، فالظاهر أيضاً ، أن المدارس كانت تعلم نوعاً خاصاً من المعرفة ، يتناول بالدرجة الأولى ، العلوم الشرعية واللسانية ، مع استخدام شيء من أساليب المنطق والفلسفة في ذلك . أما درس الفلسفة الصِّرْفة والنجوم والطب ، فيكاد يكون خارجاً عن نطاق هذه المدارس .

مجانية التعليم

ومن صفات المدارس أيضاً ، أن التعليم فيها كان مجاناً ، لا تفرض الدولة فيه (الرسوم) على الطلاب ، ولا يتناول الأساتذة منهم شيئاً من التعويض ، بل تكون لهم فيها جميع وسائل الراحة من نوم وطعام واغتسال وعلاج وغير ذلك ، ويتناولون المخصصات التي تسميها المصادر (المعاليم) . أما الأساتذة ،

فقد خصصت لهم المرتبات من مال الدولة ، فهم موظفون فيها ، يطيعون أنظمتها وينفذون سياستها .

ويقال أن كثيراً من العلماء ، قد هالهم هذا الاتجاه المادي في طلب العلم . . يذكر (حاجي خليفة) في كتاب كشف الظنون ، أن علماء ما وراء النهر ، لـمَّا بلغهم بناء المدارس ببغداد ، وتخصيص المرتبات للأساتذة ، والمعاليم للطُّلاب ، أقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشتغل به أرباب الهمم العليَّة ، والأنفس الزكية ، الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم ويعلمهم . ولكنَّ العلم ، إذا صار عليه أجرة ، تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل . .

أما أسباب ظهور هذه المدارس ، فيمكن تحديدها بالقياس على ما نعرف من تاريخ ، وبتحليل الحقائق في ضوء هذا التاريخ . . وكنا قد فصلنا مسألة الجمعيات السرية العلمية ، وأثرها في التربية والتعليم ، وذكرنا أن من أغراضها إصلاح النظام السياسي والاجتماعي ، عن طريق نشر المعرفة والعلم ، وذكرنا من الأمثلة على ذلك ، جماعة إخوان الصفاء . والظاهر أن هذه الحركة ، قد وجدت نصيرها في نظام الملك ، الذي اشتهر ببعد النظر ، وأصالة الرأي ، وحسن السياسة . . والظاهر أن نظام الملك ومن نحا نحوه ، قد أرادوا أن تكون المدرسة واسطة لنشر نوع خاص من المعرفة ، فيه صلاح الفرد.

وإعداده لخدمة الدولة ، أو إعداده لقبول سلطتها ، وإطاعة قوانينها . ولا يخفي أن الدولة في ذلك العصر ، كانت بأيدي الأعاجم ، ونظام الملك نفسه أعجمي ووزير لأعجمي . وما كان أحوج هؤلاء ، إلى رضى الناس عنهم ، وعن حكمهم . وأي طريق أضمن من طريق العلم والمدرسة ، للوصول إلى ذلك ؟ . .

انتصار الدين على الفلسفة

وهناك سبب آخر ، وهو أن الأعاجم ، شأن الحكام الغرباء ، كانوا يريدون السير بالدولة في الناحية التي ترضي عامة الناس من وجهة دينية . والمعروف من التاريخ ، أن (الأشعرية) قد انتصرت نهائياً على (المعتزلة) . ومعنى هذا ، أن الفقهاء قد انتصروا على الفلاسفة ، وذلك منذ عهد المتوكل والذين جاءوا بعده . ونعرف أيضاً ما صنعه المأمون ، وهو نشر مذهب خاص وفرضه على الناس ، طوعاً أو كرهاً . وقد ذكر أن ذلك كان سابقة خطرة في تاريخ الفكر الاسلامي العربي ، لجأ إليها المتوكل ، ولجأ إليها غيره ممن جاءوا بعده ، كما لجأت إليها العامة ، في تجربة فرض إرادتهم أو اعتقاداتهم ، على المفكرين والفلاسفة . . ونرى أن تأسيس المدارس هو النتيجة الطبيعية ، لانتصار الفقهاء على الحكماء ، أو انتصار الدين على الفلسفة .

والحكام الذين كانوا لا يستغنون عن الدين ، لتسهيل تنفيذ سياستهم ، لجأوا إلى توطيد سلطة الدين واستبعاد الفلسفة ، فأسسوا المدارس ، وهي كما رأينا ، كانت تتناول العلوم الشرعية واللسانية ، وتكاد لا تبحث في الفلسفة والنجوم والطب ، إلا لتفنيدها ، أو إبطالها ، أو على الأقل لاصطناع أساليبها دون مادَّتها .

أهم سبب لوجود المدرسة

ومن الأسباب العملية لتأسيس المدارس ، حاجة الدولة إلى القضاة والعمال والكتّاب والمدرسين ، والموظفين من مختلف الطبقات . والظاهر من النصوص الكثيرة ، أن المـدارس النظامية التي أسسها نظام الملك ، قد كان لها شأن خطير في هذا الباب ، فكان المتخرِّجون فيها يقومون بوظائف كثيرة ، في دواوين الحكومة وفي غيرها من المؤسسات ، وأحسن مثال على ذلك ، القول المنسوب إلى أبي اسحق الشيرازي ، الذي كان عميداً للمدرسة النظامية في بغداد ، إذ يروى أنه قال عند عودته من خراسان ، أنه لم يذهب إلى مدينة أو بقعة ، دون أن يجد تلميذاً من تلاميذه ، يتولى فيها عملاً مهماً أو منصباً خطيراً .

والحقيقة أن حماسة بعض الباحثين والقائلين بفضل هذه المدارس ، دفعتهم إلى مقابلتها بالجامعات والكليات ، أو

تسميتها جامعة . ولا غرابة في ذلك ، ولا مبالغة فيه ، فهي في الواقع أشد شبهاً بالجامعات منها بالمدارس العادية . وهذا الشبه يتناول براجها ومستواها وأساتذتها وطلابها ، كما يتناول مظاهرها الخارجية ، وأوصافها الظاهرة .

أبنية المدرسة

كانت المدرسة عادة تتكون من أبنية مختلفة ، يجاور بعضها بعضاً ، كل بناء (أو دار) يخصص لغرض معين ، من تدريس أو إسكان أو رفاهية أو علاج . والكتب التي بين أيدينا ، تدلنا على أن فناء كل مدرسة ، كان يحتوي على جامع ، وهذا المكان كان يخصص للصلاة وللوعظ ، لا للدرس والمناظرة والبحث ، على خلاف ما كانت عليه الحالة في العصور الأولى .

وكان لكل مدرسة مكتبة في إحدى دورها ، يؤمها الأساتذة والطلاب والراغبون في العلم والبحث . وقد تسابق الأمراء ومؤسسو المدارس ، في جمع الكتب ، وتنافست المدارس في هذا الباب ، وكانت شهرة المدرسة تقوم عادة على مقدرة المعلمين الذين يعلمون فيها ، والكتب التي في مكتبتها .

وكان في عدد كبير من هذه المدارس ، أبنية خاصة للمحاضرات والمناظرات ، ولا سيما في العلوم التي ليست لها صلة

قريبة بالدين . فكان البحث في هذه العلوم يدور في فناء المدرسة ، أو زاوية من زوايا دورها ، أو في رواق من أروقتها ، لا في جامعها ، ولا في ساحته . والأمثلة على حدوث المناظرات ، وجلوس كبار الأساتذة في أروقة المدارس وساحاتها ، ومجيء الطلاب لسؤالهم ومباحثتهم ، كثيرة في كتب الأدب والتاريخ .

ومن المظاهر البارزة في المدارس أيضاً ، وجود الأماكن لاقامة الطلاب والأساتذة ، وطعامهم وشرابهم ووضوئهم وراحتهم وتطبيب أجسامهم . فالمعروف أنه وجد ببعض المدارس المطبخ والحمّام والمستشفى ، بجانب أروقة الدرس ، ومكاتب البحث ، وجامع الصلاة .

ولا شك أن توافر أسباب الراحة ، وتخصيص النفقات للطلاب زادا في إقبالهم على العلم . وتذكر بعض المصادر ، أن عدد الطلاب الذين كانوا يترددون على هذه المدارس ، زاد على الألوف . وتذكر أيضاً أن بعض الطالبات من النساء ، كنَّ يترددن على المدارس .

هذا مجمل عن ظهور المدارس في الاسلام ، ووصف لأنظمتها وأساليبها . .

المدارس الجامعة في الاسلام

المدارس الجامعة ، التي تذكرها كتب التاريخ والأدب كثيرة ، ولكن اشتهر منها ، جامعة قرطبة بالأندلس ، الأزهر الشريف

بمصر ، والمدرسة النظامية ببغداد . وكان ظهورها ، في مدة تقرب من مئة سنة ، تبتدىء من أواسط القرن العاشر للميلاد ، وتنتهي في أواسط القرن الحادي عشر . أما المدارس الأخرى التي ظهرت في تلك المدة ، وفي العصور التالية ، فهي على نمط هذه المدارس الجامعة ، مع تفاوت في النظام والمستوى ، يختلف باختلاف البلد والزمن والمذهب . وسنتكلم عن هذه المدارس الثلاث ، واحدة واحدة ، كلاماً مختصراً ، لا إدعاء فيه بالتحقيق والاحاطة .

جامعة قرطبة

جامعة قرطبة تُعَدُّ نهضة العرب العلمية في الأندلس ، من أهم مباحث التاريخ ، ولكنها مع الأسف غير واضحة ، لقلة المصادر التي تفصِّل ظهورها ونموها وتطورها . والغريب أن العرب لم يعنوا بها عناية كافية ، في الماضي ولا في الحاضر . والحقائق التاريخية القليله التي نعرفها ، يجدها الباحث مبعثرة في كتب العرب . وقد يجد شيئاً منها في كتب الباحثين من المستشرقين ، ولكنه ينقص هذا وذاك ، التفاصيل الوافية ، والحقائق الدقيقة ، والاستنتاج الصحيح . وتكاد تكون المصادر التي يعتمد عليها من الصنفين ، مقصورة على (نفح الطيب) للمقري و (تاريخ المسلمين في اسبانيا) لدوزي .

وجد العرب الذين فتحوا الأندلس أنفسهم متمدنين ، بالنسبة إلى أهلها . وهذا على خلاف ما كانت عليه الحالة ، عندما فتحوا بلاد الفرس والروم في المشرق . والمشهور أن العرب في الأندلس ، قد تركوا أهلها على دينهم ، واختلطوا معهم بالتزاوج ، وبادلوا الأخذ والعطاء في سائر مظاهر الحياة ، وساووهم بأنفسهم ، وقربوهم إليهم ، في إدارة الدولة ، وفي المجالس الاجتماعية ، وفي درس العلم . وكان من نتائج هذا التسامح والامتزاج ، أن نشأ شعب أندلسي ، تحكمه دولة عربية إسلامية ، وتسوده ثقافة هي مزيج من العرب والمسلمين ، مع ما في البلاد من تقاليد ، وما لأهلها من صفات بدنية واجتماعية .

طلب العلم في الأندلس

ولا يعرف بالضبط تاريخ ابتداء طلب العلم في الأندلس ، ولكن تعلم اللغة العربية ، وعلوم العرب ، توصلاً إلى مركز في الدولة ، أو جاه في الحياة ، بدأ منذ الفتح . وكانت بلاد المشرق ، تغذي هذه الحركة ، بالعلماء والكتب . ولم تلبث هذه الحركة العلمية في الأندلس ، أن نمت نمواً كبيراً ، صار يضرب به المثل في أوروبا . . والظاهر أن تأثير ذلك ، في أهل الأندلس من غير العرب ، كان عظيماً ، حتى خشي بعضهم على الآداب النصرانية واللغة اللاتينية ، من الزوال ، أمام هذا التيار

الاسلامي العربي . فلا غرابة بعد هذا ، أن استعرب كثير من النصارى واليهود في الأندلس ، ونبغ منهم كبـار الكتّاب والوزراء .

وبلغ طلب العلم درجة عالية من الرقي ، في عهد عبد الرحمن الثالث ، وولده الحكم الثاني ، في القرن العاشـر للميلاد . وشهرة الحكم في العلم ، ومحبته لجمع الكتب ، تغني عن التفصيل ، إذ يقال إنه جمع في قصره ، ما يقرب من نصف مليون كتاب ، قرأها بنفسه ، وعلق على معظمها بخط يده ، وإنه دفع ألف دينار ثمناً للنسخة الأولى من كتاب الأغاني ، وإنه فتح سبعاً وعشرين مدرسة في عاصمته ، كان يدفع مرتبات معلميها من ماله الخاص ، وإنه قصد من ذلك تسهيل طلب العلم للفقراء ، الذين لا يقدرون على دفع نفقاته .

في هذا الجو العلمي ، تم تأسيس ما يسميه بعض الكتَّاب والباحثين ، (جامعة قرطبة) ، أي المدرسة الجامعة ، التي كانت في الجامع المشهور . يقول دوزي ، إن هذه المدرسة ، كانت من أشهر المدارس الجامعة في الدنيا . وكان أبو بكر بن معاوية القرشي ، يدرس فيها الحديث ، وكان أبو علي القالي ، (صاحب الأمالي) ، يملي على الطلاب أخبار العرب ، وشيئاً من شعرهم ولغتهم ، وكان إبن القوطية يعلم فيها النحو . . وكان يبلغ عدد الطلاب في هذه المدرسة الألوف، معظمهم يتعلمون

الفقه وعلوم الدين . ومن علماء هذا العهد ، إبن عبد ربه صاحب العقد ، وإبن هانىء الشاعر ، وأبو بكر الرازي المؤرخ ، ومسلمة بن أحمد الرياضي ، وأبو القاسم الزهراوي الطبيب الجرَّاح .

ولا شك أن هذه الحركة العلمية ، التي بلغت غايتها بتأسيس المدرسة الجامعة في قرطبة ، كانت أساساً لما أنجبته الأندلس في القرنين التاليين ، من أدباء وعلماء وفلاسفة ، وما ظهر فيها من مدارس جامعة ، بلغت شهرتها ، أن تعلم فيها بعض كبار رجال الكنيسة ، بالاضافة إلى كبار رجال النصرانية وعامتهم .

الجامع الأزهر

الجامع الأزهر ـ تذكر كتب التاريخ ، أن جوهراً قائد المعزّ الفاطمي قد اختطَّ مدينة القاهرة ، بجانب الفسطَاط ، في الليلة التي دخل فيها إليها ، (سنة ٩٦٩) . وأراد بذلك أن يجعل القاهرة ، مقرَّ دواوين الحكومة ، وقصور خلفائها ووزرائها . ولكن من أول ما أمر به ، إبطال الدعاء لخلفاء بني العباس في المسجد (مسجد عمرو) ، والدعاء للخليفة الفاطمي ، والترحم على أهل البيت من أبناء عليّ ، بدلاً من ذلك .

وإتماماً لهذه السياسة ، وهي سياسة إعلاء شأن آل البيت ،

الذين انتسب إليهم الفاطميون ، أمر جوهر أن يقام الجامع الأزهر ، جنوبي قصر الخليفة ، في هذه المدينة الجديدة . وقد تم ذلك في سنة ٣٦١ هجرية . ولما جاءالـمُعِزّلدين الله ، إلى عاصمته الجديدة ، وسكن قصره فيها ، صلى صلاة عيد الفطر ، في الجامع الأزهر . والظاهر أن الجامع ظلّ مسجداً للصلاة ، إلى أن جاء الخليفة العزيز بعد المعز ، فخصص الأزهر للدرس والعلم ، في سنة ٣٧٨ للهجرة ، وذلك في آخر القرن العاشر للميلاد ، وأول القرن الحادي عشر .

وفي زمن الحاكم بأمر الله ، أسس معهد (دار الحكمة) ، وهو معهد للدرس والبحث ، لا علاقة له بالأزهر ، إلاّ طريقة إنشائه . وكان فيه أساتذة مشهورون بعلوم الدنيا والدين ، ومكتبة عامرة نقلت إليها الكتب من قصر الخليفة ، وجمع غيرها من سائر الأمصار . وكان طلاب العلم يؤمونه للدرس وسماع العلم . وكانت تعطى لهم الأقلام والأوراق والحبر مجاناً .

والظاهر أن مصر ، وهي مركز مهم من مراكز الثقافة اليونانية ، كانت ملائمة لمثل هذه المعاهد ، التي تبحث في العلوم الطبيعية والفلسفية . وشاهدنا على ذلك ، انتشار رسائل إخوان الصفاء المشهورة بالنزعة الفلسفية ، بين الشيعة في مصر في زمن الفاطميين . وهناك شاهد آخر ، وهو أن إبن الهيثم ، المشهور بحبه للفلسفة اليونانية ، لم يجد لنفسه ملجأ في العراق ، بعد

انتصار الفقهاء على الفلاسفة ، فذهب إلى الأزهر ، في زمن الحاكم بأمر الله .

يستنتج مما مضى ، أن الأزهر بني ليكون مسجداً للصلاة ، ثم خصص للدرس والعلم ، زيادة على ذلك . ولا شك أن هذا الاتجاه ، في الاستفادة من الجامع ، يناسب حالة العصر ، وخصوصاً بعد أن دونت العلوم اللسانية والشرعية ، ونضج درس العلوم الفلسفية ، في القرن العاشر للميلاد . ولا شك أن الدعوة إلى مذهب من المذاهب بواسطة المدرسة ، وتحت سلطان الدولة ، هو ما اعتاده الناس حينئذ ، بعد أن استتب الأمر للفقهاء ، وتمت غلبتهم للفلاسفة .

وإن تأسيس الأزهر ، لنشر مذهب الدولة القائمة ، ولتسهيل مهمة رؤسائها ، وللدفاع عن خطتهم ، يتلاءم مع ما فعله نظام المُلْكِ في الجهة الأخرى ، من البلاد الاسلامية ، حينما أسس مدارسه في مدن العراق وخراسان . فالأزهر مدرسة من المدارس التي نشأت في الاسلام ، وينطبق عليه ، ما ينطبق على المدارس الأخرى ، من حيث ظهوره والغرض منه ، ومواد الدرس فيه ، وتطور ذلك كله . فالجامع بني من مال الدولة ، وتحت مراقبتها ، وهي التي خصصته للدرس والعلم ، وهي التي أنفقت عليه المال ، وحبست له الأوقاف ، وهي التي عينت له الأساتذة ، ودفعت إليهم المرتبات .

نكتفي بهذا المقدار عن الأزهر ، حفظاً للتناسب في الكلام عن المدارس الجامعة التي ذكرت . ولكن يمكن القول إجمالاً ، إن الحقائق المعروفة عن تاريخ الأزهر ، وعن علمائه وفضله في تاريخ العرب والاسلام ، مشهورة لا تحتاج إلى إعادة في هذا الموضع .

- ١١ -

مدارس جامعة أخرى

تناولنا في الفصل السابق مدرستين كبيرتين ، من المدارس الجامعة التي ظهرت في عصر من العصور الاسلامية ، الزاهية بطلب العلم ونشره . وهما المدرسة الجامعة التي أقيمت في جامع قرطبة ، والمدرسة الجامعة التي تأسست في الجامع الأزهر . بقي مدرسة جامعة ثالثة من المدارس ، تأسست في العصر نفسه في بغداد ، وهي المدرسة النظامية . ومدرسة جامعة رابعة ، ظهرت بعد تلك المدارس ، وهي المدرسة المستنصرية .

المدرسة النظامية

(المدرسة النظامية في بغداد) - فتحت هذه المدرسة للطلاب ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد .

وهي إحدى المدارس الجامعة ، التي أسسها نظام الملك ، في مدن العراق وخراسان . وكان أبو إسحاق الشيرازي أول رئيس لها . واشتهرت بتعليم علوم الدين وعلوم اللغة ، ولم ترد الشواهد على تعليم العلوم الأخرى فيها . إلاّ أنه يصح أن يقال ، أن أساتذتها قد اصطنعوا أساليب الفلاسفة في بحثهم وجدلهم ، ولم يقبلوا مادتهم ، بل لدينا ما يثبت أنهم أعرضوا عنها ، وألفوا الكتب في إبطالها ، كما فعل الإمام الغزالي ، في كتابه المشهور (تهافت الفلاسفة) .

ومن الأساتذة الذين علّموا في النظامية ، أبو بكر السمعاني ، (وهو أبو السمعاني الآخر صاحب كتاب الأنساب) . والإمام أبو حامد الغزالي ، (صاحب كتاب إحياء علوم الدين) . وأبو بكر زكريا التبريزي (شارح كتاب الحماسة والمعلقات) . وأبو المحاسن إبن شداد (مؤلف سيرة صلاح الدين) . . وكان الوزير نظام الملك ، يطّلع بنفسه على هذه المدرسة ، وعلى وضع قوانينها ، ويعين لها الرؤساء والأساتذة ، ويحدد لهم واجباتهم على وجه الاجمال .

وقد قامت المدرسة النظامية ، لتعليم الدين على مذهب الشافعي من أهل السُّنّة . فهي من هذه الناحية ، مقابلة للأزهر الذي تخصص بتعليم الدين على طريقة أهل الشيعة ، في زمن الفاطميين . وهذا يناسب الرأي الذي ذكرناه في وصف المدارس

إجمالاً ، وهو أن من أغراضها ، توطيد مركز الدولة القائمة ، عن طريق نشر مذهبها ، أو نشر نوع خاص من العلم ، يناسبها ويساعد في تدريب الناس على إطاعتها ، وتسهيل عمل عمالها بينهم .

وقد عاشت هذه المدرسة ، ما لا يقل عن ثلاثمئة سنة ، ولكن لم يعرف شيء كثير عن تاريخها في أثناء كل هذه المدة . ومن أوفى ما كتب عنها ، ما ذكره إبن جبير ، في رحلته ، وقد زارها وقال يصف مجلساً من مجالس الوعظ فيها : « أول من شاهدنا مجلسه منهم (يريد الأساتذة) ، الشيخ الإمام رضي الدين القزويني ، رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية . . . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة ، إثر صلاة العصر من يوم الجمعة . . . فاندفع فخطب خطبة سكون ووقار ، وتصرف في أفانين من العلوم ، في تفسير كتاب الله عز وجل ، وإيراد حديث رسول الله (صلعم) . . . ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصَّر ، وتقدم وما تأخر ، ودفعت إليه عدة رقاع ، فجمعها جملة في يده ، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذها ، إلى أن فرغ منها عند المساء ، فنزل وافترق الجمع » .

ومن الشواهد على منزلة أساتذة النظامية وواعظيها ، وأثرهم في طلابهم أو سامعيهم ، ما جاء في (النجوم الزاهرة) ، للمؤرخ (تغري بردي) ، عند ترجمة العبّادي الذي كان واعظاً

في المدرسة . فيقال انه كان يحضر مجلسه ثلاثون ألفاً من الرجال والنساء ، وإن بوعظه وتعليمه ، حلق أكثر الصبيان رؤوسهم ، ولزموا المساجد ، وبدَّدوا الخمور ، وكسروا الملاهي .

هذه هي المدارس الجامعة الثلاث ـ مدرسة قرطبة ، والجامع الأزهر ، والمدرسة النظامية ـ وقد نشأت في فترة واحدة ، بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الحادي عشر للميلاد ، على وجه التقريب .

المدرسة المستنصرية،

إتماماً للبحث ، نذكر شيئاً عن مدرسة جامعة أخرى ، ظهرت بعد هذه المدة ، وهي المدرسة المستنصرية ، لأنها تعتبر نموذجاً للمدارس التي جاءت بعد عصر التأسيس ، بل تعدُّ أعلى ما وصل إليه العرب ، في تأسيس المدارس الجامعة .

أنشئت هذه المدرسة ، في الثلث الأول من القرن السابع للهجرة ، أو في الثلث الأول من القرن الثالث عشر للميلاد ، في بغداد ، في زمن الخليفة المستنصر بالله ، وهي منسوبة إليه ، لأنه يعود الفضل إليه في بنائها ، وفي الانفاق عليها ، وحبس الأوقاف لها ، وتعيين المدرسين والمشايخ فيها .

قال إبن أبي الحديد ، وكان قد شهد حفلة افتتاح المدرسة ، بحضرة الخليفة ، يصفها :

وَضَعَ الإِمَامُ بها أساسَ بِنَائِهِ
والمَوْجُ بَيْنَ مُجَمْجِمٍ ومُزَمْجِرِ
قَصْراً وَمَدْرَسَةً لِمَنْ طَلَبَ الغِنَى
أو رامَ شَأْوَ العالِمِ المُتَبَحِّرِ
هِيَ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ يَجْري تَحْتَها
من ماء دِجْلَةَ ماءُ نَهْرِ الكَوْثَرِ

وقد يعد تأسيس هذه المدرسة الجامعة ، آخر محاولة حاولها العرب والمسلمون ، في سبيل التعليم العالي ، ودولتهم قائمة في المشرق . لأن مجيء التتار ، قد أطفأ النور الذي كان يسطع من هذه المدرسة ، ومن غيرها من المدارس في العالم الاسلامي . إذ المعروف أن التتار تتلوا بعض أساتذة هذه المدرسة ، وألقوا بكثير من كتبها في النهر ، ولكنهم لم يقضوا عليها قضاء تاماً . وقد يعد تأسيس هذه المدرسة ، دليلاً على التقدم العلمي من جهتين ، الأولى : أنها قامت لتعليم المذاهب الأربعة بالتساوي ، فهي خطوة إلى الامام ، في سبيل طلب العلم بحرية لا يشوبها قيد مذهبي أو سياسي . والثانية : انه عُلِّمَ فيها الطب والحساب من العلوم الطبيعية . فالمدرسة المستنصرية في هذين الأمرين ، تقرب حقاً من المعاهد التي نطلق عليها إسم (الجامعة) ، لأنها

تدرس جميع العلوم على السواء ، ولا تفرض الحدود والحواجز في ذلك .

بناء المدرسة

بنيت المستنصرية ، على طرز المدارس الأخرى ، فكان فيها الجامع والرِّواق والمكتبة والحـمَّام والمطبخ والمستشفى ، في بيوت متقاربة كأنها حيٌّ واحد . والظاهر أن بناءها كان بجوار قصر الخليفة ، وهناك روايات تدل على أنه أمر بتخطيط بستان له بقربها ، وجعل فيه عُلِّيَّة تشرف على المدرسة ، وتمكِّنه من سماع الدرس والوعظ ، والتنزه في البستان في وقت واحد .

ويظهر أنه كان يعلم فيها الفقه ، على المذاهب الأربعة ، لكل مذهب مدرس ، يساعده أربعة من المعيدين . وكان يعلم فيها أيضاً الحديث وعلوم العربية ، كما كان يعلَّم فيها الطب ويأوي إليها عدد من الأيتام . وكانت تصرف للأساتذة ومساعديهم ، المعاليم من المال ، والجرايات من الطعام ، كما كانت تصرف للطلاب المجاورين ، والفقراء والأيتام ، بمقادير وافرة منتظمة .

وكان من أساتذة هذه المدرسة ، مشاهير الفقهاء والعلماء في عصرها . فمنهم محيي الدين بن فضلان الشافعي ، وجمال الدين بن الجوزي الحنبلي ، وقاضي القضاة أبو المعالي عبد الرحمن الواسطي . . والظاهر أن بعض الأساتذة ، الذين كانوا

يدرِّسون في المدرسة النظامية في بغداد ، كانوا يدرِّسون في المستنصرية أيضاً . ومن أشهر الذين فعلوا ذلك ، محمود الزنجانيُّ قاضي قضاة بغداد .

لم تطل مدة المدرسة المستنصرية ، وهي قائمة على خدمة العلم . ولكن بناءها قد قاوم عوادي الزمان ، فزاره إبن بطوطة ، بعد نحو قرن من غزوة التتار ، وذكرها غيره من الكتَّاب والرحَّالين ، من عرب وأعاجم ، وظل بناؤ ها ماثلاً إلى أيامنا هذه ، كشاهد من الشواهد الكثيرة ، على ما بلغه العرب والمسلمون ، من علوِّ المقام في طلب العلم ونشره .

ويمكن الآن ، أن نجملَ القول في نشوء المدارس الجامعة وتطورها ، وبلوغها ذروة الكمال . فالثابت من الحقائق التي عرضناها ، أن المدارس بمعناها الفنيّ ، قد ظهرت في منتصف القرن العاشر للميلاد ، وبلغت بالتدريج غاية الكمال في مدة ثلاثة قرون ، ثم انطفأ نورها بعد ذلك ، في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، وذلك بزوال آخر سلطة سياسية للعرب في المشرق . أما ما كان في المغرب ، فلا يكاد يختلف عن هذا في شيء .

- ١٢ -

التعليم في عهود غير قريبة

وصلنا في كلامنا عن التربية والتعليم ، في تاريخ العرب

والاسلام ، إلى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، وانتهينا من بحث ظهور المدارس النظامية والمدارس الجامعة وتطوُّرها ، وبلوغها غاية الكمال في مدة ثلاث قرون ، تمتد من تأسيس الأزهر ، إلى تأسيس المدرسة المستنصرية . وسنتناول الآن هذا الموضوع ، في ثلاثة قرون أخرى ، تمتد من مجيء التتار إلى مجيء الأتراك العثمانيين .

يمكن أن يقال في وصف تاريخ المدة الأولى ، إنه غلب عليها الاضطراب السياسي ، ووقعت في أثنائها الحملات الصليبية ، وامتازت بازدهار علمي ديني ، برز للوجود بتأسيس المدارس الجامعة ، وذلك على أثر انتصار الفقهاء على الفلاسفة . ولكن المتصوفة قد أخذوا مكان الفلاسفة في هذا النزاع الفكري ، فناصبوا الفقهاء العداء ، ونَحْواً في فهم الدين نحواً فلسفياً باطنياً . فالمتصوفة علماء في الدين كالفقهاء ، ولكنهم يصطنعون طرق الفلاسفة في ذلك ، ويعتمدون اعتماداً كبيراً على النظرية القائلة ، بأن المعرفة توحى إلى المرء وحياً ، وأن محبة الله والاتصال به ، هما أساس السعادة والمعرفة . وليس معنى هذا أن الفلسفة قد زالت من الوجود ، أو أن الفلاسفة لم يكن لهم شأن . فالواقع أن عدداً من كبار الفلاسفة ، كإبن رشد وإبن طفيل وإبن ماجة ، قد ظهروا في هذه المدة ، في المغرب ، لا في المشرق . لأن المغرب لم يشتهر عنه ، ما اشتهر عن المشرق ، من إفراط في الخلاف المذهبي والفكري .

ويمكن أن يقال في وصف تاريخ المدة الثانية ، إنه انحطاط شنيع في عالم السياسة ، وركود مخيف في عالم الفكر . فمن الناحية السياسية ، اضمحل سلطان العرب نهائياً ، وقامت على أنقاض الخلافة الاسلامية ، دول من المغول والأتراك والفرس والمماليك والبربر . ولم يبق سلطان للعرب إلاّ في الجزيرة العربية نفسها ، وفي غرناطة في الأندلس . أما من الناحية الفكرية ، فقد غلب على العلماء والكتّاب ، التقليد والعقم . وتكاد تكون كل الكتب التي ظهرت في تلك المدة ، شرحاً لما سبقها ، أو جمعاً لما تناثر من مادتها ، أو تعليقاً سقيماً على آراء أصحابها ، أو تأليفاً جديداً لا أثر فيه للابتكار والطّرافة . ولم يشذّ عن هذه القاعدة ، سوى المؤرخ الشهير عبد الرحمن بن خلدون ، والمتصوِّف الكبير عبد الوهاب الشعراني .

ويمكن وصف تاريخ هاتين المدتين إجمالاً ، أي من أوائل القرن الحادي عشر ، إلى أوائل القرن السادس عشر ، بكلمات مختصرة . فالنصر الذي تم للفقهاء على الفلاسفة ، لا يمثله في الحقيقة إلاّ الغزالي ، فهو الذي لاءم بين الفقهاء والمتصوفة ، فأبعد الفلسفة بالاسم ، وأدخلها بالفعل عن طريق التصوُّف ، وبذلك مزج كل الثقافات الاسلامية العربية (من فقه وفلسفةٍ وتصوُّف) بصورة تضمن للدين سلطانه ، ولا تستبعد مبادىء الفلسفة ، أو مذاهب التصوف . فأثر الغزالي في تاريخ الفكر

الاسلامي العربي ، جليل الخطر ، لا بد أن يلاحظه كلُّ باحث ، على مدى خمسة قرون من موته .

شأن اللغة العربية

هذا وصف إجمالي من الناحية السياسية والفكرية ، يصدق على الخمسمئة سنة ، التي تمتد من عهد الغزالي إلى مجيء الأتراك العثمانيين . أما من ناحية التربية والتعليم ، فيمكن إجمال أوصاف هذه المدة ، في عدة نقط أساسية . فمنها تأسيس المدارس الجامعة ، ونموُّها ، ثم انحطاطها . ومنها أن شأن اللغة العربية قد أخذ يضمحلُّ ، لأنها لم تكن لغة الدولة ، في جميع البلاد الاسلامية . ومنها نشوء المدارس من درجات مختلفة ، في الزوايا والرُّبُط ، واهتمام الملوك والسلاطين والأمراء من الأعاجم ، بتأسيس المدارس وتخصيص الأوقاف لها . ومنها انحطاط المستوى العلمي إجمالاً ، في المدارس الجامعة وفي المدارس العادية ، وخاصة بعد مجيء التتار . ومنها ازدهار نوع خاص من التأليف ، كان أقرب إلى التصنيف ، منه إلى الابتكار والإبداع . ومنها اضطراب أساليب التعليم ، وظهور المتطفلين عليه ، في أدواره الدُّنيا والعليا .

كان اضمحلال شأن اللغة العربية ، من أول المصائب التي

حلّت بالثقافة الاسلامية العربية . وأثر ذلك في التربية والتعليم كبير الخطر . فالمعروف أن الفرس كانوا شركاء العرب في دولة الخلافة ، ولكنهم ظلوا يرقبون فرصة ، يتخلصون فيها من حكم العرب السياسي ، ومن سلطانهم الثقافي . وجاءت هـذه الفرصة ، بعد سقوط الخلافة ، فتحللت بلاد الفرس على التدريج من سلطان اللغة العربية ، فانحصر استعمالها في الشؤون الدينية ، وفي بعض المدارس ، وعند بعض العلماء . وظلّ ذلك في ازدياد ، حتى جاء زمن لم يبق فيه للعربية سلطان على الفرس . ونشأ عن هذا ، وعن ضعف العرب السياسي ، وعن فشوّ اللحن في الكلام ، والعقم في البحث والتأليف ، أن تضاءل شأن اللغة العربية ، حتى في مصر والشام والعراق ، وغلبت عليها أساليب الأعاجم في الكتابة ، وبعض ركاكتهم في التعبير والاصطلاح . وهذا كله جعل اللغة وتعليمها أمراً صعباً ، وزاده صعوبة ما طرأ على المدارس والكتاتيب ، من انحطاط في المستوى العلمي والاداري على وجه الاجمال .

مدارس كثيرة وعلم متدنٍ

والغريب أن هذا الانحطاط ، كان يظهر واضحاً في نوع العلم والعلماء ، لا في عددهم أو عدد كتبهم ، أو عدد المدارس والمكاتب وتنوعها . فالمدارس على ما يظهر من الكتب ، كانت

كثيرة ، وعدد المدرسين والفقهاء والمؤدبين ومعلمي الكتاتيب ، غير قليل . وإقبال عدد كبير جداً من الطلاب على التعلم والدرس ، واضح لكل من يقرأ كتب العصر . لكن لم يظهر مع ذلك ، علماء كبار أو باحثون مشهورون . فأين الغزالي والمعري والمتنبي والكندي والجاحظ ؟ بل أين الطبري والبخاري والأصمعي ؟ . . لم تنتج تلك الأزمنة عالماً في اللغة ، أو الأدب ، أو الشعر ، أو الفقه ، أو الحديث ، أو التاريخ ، أو الفلسفة ، ـ يمكن أن نقابله بعلماء العصور السالفة . والمدارس التي وجدت ، لم تكن من درجة المدارس الجامعة التي وصفناها ، والكتاتيب التي كانت مفتوحة ، لم تكن من درجة لائقة . فمعظمها في بيوت خاصة ، أو في زاوية من زوايا المتصوفة ، أو في تكيَّة من تكايا الدراويش ، يقضي فيها الطالب سنوات طويلة ، وهو يتعلم أصول العربية ومبادىء الدين ، ثم يخرج منها وقلما توصَّل إلى شيء صالح من هذا أو ذاك .

وليس لهذه الظاهرة الغريبة ـ وهي انحطاط مستوى المدارس والكتاتيب مع كثرة عددها ، وعدد طلابها ومعلميها ـ إلاَّ تعليل واحد ، وهو أن الذين كانوا يقومون عليها ، هم السلاطين والأمراء من الأعاجم . فكأن تأسيس المدارس وحبس الأوقاف عليها ، أصبح سُنَّةً أو عادة عند هؤلاء ، يتقرَّبون بذلك من العامة ، أو يحاولون إرضاء مشايخ الطرق ، وفقهاء المذاهب ، بتعيينهم في وظائف التدريس ، أو الوعظ أو التعليم ، في

المدارس والزوايا والكتاتيب. فهؤلاء السلاطين والأمراء ، لم يعرفوا قيمة إنشاء المدارس ، كما عرفها نظام الملك ، أو المعزّ لدين الله . ويشذّ عن هذه القاعدة ، ما كانت عليه المدارس الجامعة ، أو المدارس العليا في غرناطة والقيروان ومصر ، وغيرها من بلاد الأندلس وشمال أفريقيا . أما مدارس الشام والعراق وفارس ، فالظاهر أنها كانت منحطّة . ولعل من أسباب ذلك أيضاً ، أن الصليبيين والتتار والأتراك ، غزوا هذه البلاد وأعملوا في معظمها سيف الدمار والخراب ، بينما لم تجتح الأندلس وشمال أفريقية ، مثل هذه الموجات الكبيرة . أما في الجزيرة العربية نفسها ، فقد حافظت مدارس مكة والمدينة ، على صبغتها الدينية ، وظلت على حالها من البساطة ، والاقتصار على تعليم علوم الدين واللسان العربي .

يخيل إلى القارىء ، أن في هذه الأوصاف شيئاً من الغُلُوّ ، خصوصاً وأمامنا عدد كبير من المؤلفين والمفكرين والشعراء ، الذين ظهروا في هذه الفترة ، وكتبهم وآراؤهم ما زالت في متناولنا ، نعتمد عليها في كثير من الأبحاث . . فمن لا يعرف المقـرّي وإبن خـلدون وإبن العـربي وإبن الفـارض وإبن خلكان والمقريزي والسيوطي ؟ ـ وكلهم ظهروا في ذاك الزمان . . كل هذا صحيح ، وظهور أفراد مبرّزين في عصور مظلمة ، أمر غير غريب ، أو مستحيل الحدوث ، ولكن كل هذا لا يمنع من صحة المميزات العامة التي ذكرناها .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠١

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أحاديث رمضانية

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

أَحَادِيث رَمَضَانِيَّة

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ يا عبادي الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

صدق الله العظيم

رمضان كريم

رمضان من أنفس الأيام وأعزها عند الله تعالى ، لأنه متنزل الهداية الإلٰهية ، ومحتوى الليلة المباركة التي جعلها الله خيراً من ألف شهر .

وهو شهر السخاء والكرم والجود والصفح والعفو والمغفرة . . فيه يصفح الله عن عباده ويعفو عن سيئاتهم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » وفيه يصفح المسلم عن أخيه المسلم يتجاوز عن اساءاته وسقطاته : « إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائماً ، فلا يرفث ولا يجهل ، وإن أمرؤ قاتله أو شاتمه ، فليقل : إني صائم . . إني صائم » .

وكرم المسلم إنما يكون فيما يبذل من صدقات وما يجود به من عطاء ، فقد كان النبي ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان . . يروي عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما ، فأما الخلقان

اللذان يحبهما : فحسن الخلق والسخاء ، وأما اللذان يبغضهما : فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس » .

وسأل معاوية بن أبي سفيان الحسن بن علي عن الكرم فقال : أما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال ، والاطعام في المحل (المجاعة) ، والرأفة بالسائل مع بذل النائل .

فمن عرف كرم رمضان فقد صادف كرمه وكان عند الله كريماً ، ومن عرف فضل رمضان فقد أصاب فضله وكان عند الله فاضلاً .

وإذن فليس من كرم رمضان وفضله أن يتبرم المسلم بالصيام ، أو يفحش في الكلام ، أو يسيء إلى أحد .

وليس من فضل رمضان وفضله أن يعوض الصائم فترة الحرمان المشروع بالاسراف الممنوع .

وليس من فضل رمضان وكرمه أن تشبع ، وحولك الجياع ، وأن تتمتع وحولك المحرومون .

فيم .. يختصون ؟

عيّن أبو بكر رضي الله عنه عمر إبن الخطاب قاضياً على المدينة فمكث سنة لم يفتتح جلسة ، ولم يختصم إليه اثنان ،

فطلب من أبي بكر اعفاءه من القضاء . . فقال أبو بكر : أمن مشقة القضاء تطلب الاعفاء يا عمر ؟

أجاب عمر : لا يا خليفة رسول الله ، ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين ، عرف كل منهم ماله من حق فلم يطلب أكثر منه ، وما عليه من واجب فلم يقصر في ادائه ، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه إذا غاب أحدهم تفقدوه ، وإذا مرض عادوه ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا احتاج ساعدوه وإذا أصيب واسوه ، دينهم النصيحة ، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . ففيم يختصمون ؟ .

شهر الصبر

قيل في فضيلة الصبر أنها ميزة الانسان على غيره مع ماله من مزايا أخرى كبرى .

ذلك لأن الملائكة مفطورون على الخير والطهر فلا يعانون صراعاً بين الغرائز والشهوات ، وبقية أنواع الحيوان تحكمها الغرائز والشهوات ولا تجد قوة أخرى تصادمها وتحد من نشاطها أو توجهها الوجه الفضلى .

أما الانسان فإنه يجد نفسه في نزاع دائم وصراع مستمر بين نوازع الخير ودوافع الشر ، فإذا ثبت بباعث الدين وباعث العقل

وباعث الخير . لبواعث الشر والشيطان كان من الصابرين . الذين يقول الله فيهم : إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب .

ولا شك أن صوم شهر رمضان يعود المؤمنين الصبر على المشاق بالحرمان من الطعام والشراب والشهوة طول النهار فيه ، وعبادة الله والاتصال به في الصلاة والتلاوة والذكر في جانب من لياليه ، وبذلك يخرج المؤمن من صيامه وقيامه في هذا الشهر وقد أصبح شخصاً آخر من حيث خلقه وضميره وشعوره وتفكيره ، لأنه أمضى ثلاثين أو تسعة وعشرين يوماً يصبر على الجوع والظمأ . ويشكر على الشبع والري .

وقد وعد الله الصابرين بالنصر وزيادة الخير والأجر كما يفهم من قوله : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا وأتقوا الله لعلكم تفلحون » .

أما الشكر فجزاؤه كما يقول الله : « لئن شكرتم لأزيدنكم » والصبر في البأساء والضراء وحين البأس من أعظم أنواع البر . وهو مظهر الصدق والتقوى كما يقول الله : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وقد امتحن الله المسلمين في هذا الشهر بكثير من المعار فكان النصر حليفهم في غزوة بدر وفتح مكة مع المشركين وفي معركة عين جالوت مع التتار ، وفي معركة الأندلس مع القوط ومعركة المصورة مع الصليبيين .

لا يشغله سمع عن سمع

كان علي رضي الله عنه يؤدي العمرة عندما رأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل (أي لا توقعه في الخطأ) ولا يبرمه (لا يمله) الحاح الملحين : أذقني برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك .

فقال علي : والذي نفسي بيده ، لو قلتها وعليك ملء السموات والأرضين ذنوباً لغفر لك .

الطهارة . . قبل الصلاة

القيام للصلاة هو تجاه النية إلى إدائها ، سواء أكانت فرضاً أم نفلاً . . والتعبير بلفظ القيام للدلالة على عظم قدر الصلاة ، ورفعة شأنها وأنها بحيث تستدعي حضوراً لوجود الانساني كله ، وقيامه ظاهراً وباطناً للتوجه إليها ، ولقاء الله تعالى فيها بكيان

جميع لا يتخلف منه شيء عن الانتظام في هذا الموقف الجليل . .

فالنية قولاً أو فعلاً شرط لصحة العبادات ، كما أنها ملاك كل عمل جاد يعمله الانسان ، كما يقول الرسول الكريم : « إنما الأعمال بالنيات » . . وكما يقول : « إنما يحشر الناس على نياتهم » .

فلا تصح صلاة إلا بعد أن يكون المصلي على وضوء . ولا يصح وضوء إلاّ مع نية منعقدة عليه من أجل الصلاة . .

والوضوء إنما يكون بعد طهارة الجسد ، بالاغتسال من الجنابة ، أو الحيض ، أو النفاس . .

وصورة الوضوء هي كما بينها الله تعالى في الآية : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤ وسكم وأرجلكم إلى الكعبين » .

فالأعضاء المطلوب غسلها هي على الترتيب : الوجه ، واليدان إلى المرفقين ، والمرفق هو مفصل الساعد والعضد ، والرجلان إلى الكعبين . . أما الرأس فيمسح عليه مسحاً باليد .

هذا الغسل الواجب ، هو عند وجود الماء . . أما عند فقد الماء في سفر أو إقامة ، أو في حال المرض الذي لا يقدر معه المريض على استعمال الماء ـ فيجزي في هذا كله التيمم .

والتيمم ، معناه القصد ، والاتجاه إلى وجهة ما . . والمراد بقوله تعالى : « فتيمموا صعيداً طيباً » اختيار مكان طاهر من الأرض ، يضرب المتيمم باليدين على ترابها ، ثم يمسح بهما اليدين والوجه . .

والصعيد ، ما صعد من الأرض وارتفع ، والاشارة في الآية إليه لمظنة أنه بمنأى من الخبث والقذر حيث يعلو عن استعمال الناس ، والتلوث بالقذارات . . فليس الصعيد من الأرض مقصوداً لذاته وإنما لما غلب عليه أن يكون طاهراً فأي تراب طاهر ، في مكان عال ، أو منخفض هو صالح للتيمم منه .

الشجرة تشهد !

استودع رجل رجلاً مالاً ثم طالبه به فأنكره ، فخاصمه صاحب المال إلى القاضي اياس بن معاوية .

قال صاحب المال : اني دفعت المال إليه .

فسأل القاضي : من شاهدك ؟

قال الرجل : لقد سلمت إليه المال في موضع كذا ولم يحضرنا أحد حتى يشهد .

قال القاضي : فأي شيء في ذلك الموضع ؟

قال : الرجل : توجد هناك شجرة .

فقال له اياس : اذهب إلى ذلك الموضع وانظر الشجرة فلعل الله يوضح لك هناك ما يتبين به حقك ، لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت فتتذكر إذا رأيت الشجرة .

فمضى الرجل وقال القاضي للخصم : أجلس حتى يرجع خصمك ، فجلس .

ومضى اياس يقضي بين الناس فيما يعرض عليه من قضايا وينظر إلى الرجل بين وقت وآخر ، ثم سأله فجأة : يا هذا أترى صاحبك قد وصل إلى موضع الشجرة التي ذكر ؟

فأجاب الرجل : لا لم يصلها بعد .

وهناك صاح به القاضي : يا عدو الله انك لخائن .

فاعترف الرجل بأنه أخذ المال واعتذر عن إنكاره .

فأمر القاضي بالتحفظ عليه .

حتى جاء صاحب المال فقال له اياس : لقد أقر الرجل بحقك فخذه .

العبادات والمجتمع

كل ما يصدر عن المسلم ينبغي أن يحركه الاخلاص في جميع اتجاهاته سواء كان قولاً أو عملاً ، فالكلمة ينطق بها يجب أن

تكون هادفة أساسها الصدق لا خداع فيها ولا نفاق وراءها دفاع عن مظلوم . غضبه في وجه الظالم . . أنه الكلمة الطيبة التي تحدث عنها القرآن الكريم : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » .

وسلوك المسلم يجب أن يخضع لتوجيهات القرآن والسنة ، من الحب والالفة بين مواطنيه والمشاركة في أمالهم وآلامهم قال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » وقال ﷺ : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منا » « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

فالعبادات كلها تهدف إلى خلق مجتمع صالح يسعد به أبناؤه ويتضاءل الشر بين جوانبه ، فالصلاة تجمع بين الناس وتسوي بينهم وتعمق مفاهيم الخير في أعماقهم وتحول بينهم وبين المنكر : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

والصوم يعلم الصبر وينمي في النفوس حب الآخرين والاحساس بشعورهم ويبعث فيهم يقظة الضمير ويخلق الارادة القوية التي هي محك الرجال قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

والزكاة تطهير للنفس من شوائب الخطايا وطغيان الشح
هواجس الأنانية قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم
تزكيهم بها » .

والحج رحلة إلى الله متجردة من مظاهر الدنيا تتأكد فيها
عوامل الترابط والأخوة ونبذ الحقد والكراهية قال تعالى : « الحج
شهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا
جدال في الحج » .

وإن عبادة لا تثمر هذه المعاني في سلوك صاحبها لا قيمة لها .

فضل تلاوة القرآن

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إن هذا القرآن
أدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن حبل الله ،
النور المبين ، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن
تبعه ، لا يزيغ فيستعيب ولا يعوج فيقوم ، ولا يخلق على كثرة
رد ، فاتلوه فإن الله تعالى يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر
حسنات ، أما اني لا أقول « ألم » حرف ، ولكن ـ ألف ـ حرف
ولام ـ حرف ـ وميم ـ حرف . .

وفي حديث مسلم عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : ما
اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه

بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وخصتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده .

القلب المفتوح

إن أحب الناس إلى الله من لهم قلب مفتوح : عيونهم تبصر وآذانهم تسمع ، وقلوبهم تفكر وتتدبر ما تبصر وما تسمع ، وتختار أحسن ما تسمع وما تبصر : فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

والعلم لا يتقدم والتطور الحضاري لن يكون في ظل الجمود والتمسك بالقديم كيفما كان ، ولو تمسك العالم بما كان عليه الآباء والأجداد لبقي في ضلاله إلى يومنا هذا .

ولقد جاء الاسلام حرباً على الجمود وضيق الأفق والتخلف ، والاقتداء بما عليه الآباء مع وجود ما هو أهدى ، وكانت تعاليمه أكبر دافع لحرية الرأي وأعمال الفكر . .

ولذلك عرض كل قضاياه على العقل ، فلقد تبين الرشد من ألغي وكل الذي يدعو إليه أن ينفتح العقل للنظر في مختلف الآراء ، فإذا كان القلب سليماً فإنه سيميز الخبيث من الطيب والحق من الباطل وسيختار الحق والطيب حتماً ، ولن يكون

المسلم مبشراً بالجنة إلاّ إذا بلغ هذه الدرجة من التمييز .

وإنه لا خوف على المسلم الذي فهم دينه ووعى قضاياه ، من أن يطلع على أي مذهب أو تيار فكري ، لأن دينه نور وهي ظلام ، وهو ريح وهي دخان ، « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

إنما الخوف على الذين لم يتمكن الايمان من قلوبهم ، ولم يتعرفوا إلى أحكام الدين وأسراره ، وهم لخلوهم من المناعة عرضة للاستهواء .

وإذا كان الانسان يبني منزله على أرض صلبة ، ويعني بمتانته ليقاوم الأعاصير ، فإنه أحق بأن يربي أبناءه على قاعدة صلبة من العلم والايمان حتى يقاوم الشكوك والأوهام ، وتلبيس الباطل ثوب الحق ، وهذا واجب الآباء والمعلمين والمجتمع نحو أبناء الأمة التي خاطبها الله تعالى بقوله : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » ولن تكون هذه الوقاية إلاّ بالعلم والايمان والعمل الصالح ثم الانفتاح لكل خير والانغلاق عن كل شر .

الحياء والايمان

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها . مكارم الأخلاق عشرة . صدق الحديث .

وصدق اللسان .
وأداء الأمانة .
وصلة الرحم .
والمكافأة بالصنيع
وبذل المعروف .
وحفظ الذمام للجار
وحفظ الذمام للصاحب
وقرى الضيف
وراسهن الحياء وقال رسول الله . الحياء شعبة من الايمان وقال إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

وقال علي بن أبي طالب من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناسر عيبه .

حديث رمضان

صائم الدهر

الدين يسر لا عسر .

وقد رخص في الافطار لمن كان مريضاً أو على سفر ، وعليه القضاء : عدة من أيام أخر ، بعد زوال العذر .

« وعلى الذين يطيقونه فدية ، طعام مسكين » .

« ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » .

والله تعالى يجب أن تؤتي رخصه ، والأمر فيها متروك لضمير المؤمن ، وهو الذي يقدر وجه العذر في الافطار ، والطاقة على الصيام .

في (الموطأ والصحيحين) عن الصحابي « جابر بن عبد الله » قال :

« كان رسول الله ﷺ في سفر ، فرأى رجلاً قد اجتمع الناس عليه ، وقد ظلل عليه ـ من أعياء ـ فقال ﷺ : ما ماله ؟ قالوا : رجل صائم . فقال عليه الصلاة والسلام : ليس من البر الصيام في سفر » .

والأمر في صيام التطوع ، أولى بالتيسير ولنا في رسول الله ﷺ أسوة . سئلت السيدة عائشة أم المؤمنين عن صيامه فقالت :

« ما علمته استكمل صيام شهر قط إلا رمضان ، وما رأيته في شهر ـ غيره ـ أكثر صياماً منه في شعبان » وكان يقول :

« أحب العمل إلى الله ما داوم صاحبه عليه ، وإن قل » ويقول :

« خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لن يمل حتى تملوا » .

فيروى أن « عبد الله بن عمرو بن العاص » كان يصوم تطوعاً ، لا يفطر ، ويقوم الليل لا ينام . قال :

« فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لي :

ـ يا عبد الله بن عمرو ، ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتق القرآن كل ليلة ؟

قلت : بلى يا نبي الله ، ولم أرد بذلك إلّا الخير .

قال : فإنك إن فعلت ذلك هجمت عيناك ـ أي غارتا ونفهت نفسك ـ أي أعيت وكلت ـ لعينيك عليك حق ولنفسك حق ، ولأهلك حق . قم ونم ، وصم وأفطر .

ومن أوائل الوحي ، نزلت آية [المزمل] تيسيراً على النب والذين أمنوا معه .

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثا وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار ، علم أن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، علم سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرأوا في سبيل الله

فاقرأوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ، واستغفروا الله أن الله غفور رحيم » .

صدق الله العظيم

ثوب جديد وفرس غال لخوض المعركة

كان العابد الزاهد عمرو بن عتبة قد خرج للجهاد ضد الروم وعليه ثياب جديدة بيضاء أخذ ينظر إليها ويتأملها ويقول : وما أحسن الدم يتحدر على هذه !! اني سألت الله ثلاثاً فأعطانى إثنتين وأنا انتظر الثالثة . . سألته أن يزهدني في الدنيا ، فما أبالى ما أقبل منها وما أدبر . . وسألته أن يقويني على الصلاة ـ يعني لاكثار منها ـ فرزقنيها . . وسألته الشهادة في سبيله ، فأنا نتظرها وأرجوها .

ثم دخل المعركة والتحم مع العدو حتى إذا أصابه جرح نظر ليه وقال : انك جرح صغير ، وقد يبارك الله في الجرح صغير ، وما زال يقاتل حتى نال ما تمنى وذهب إلى الله شهيداً .

وكان قد اشترى قبل خروجه للقتال فرساً بأربعة آلاف درهم لاموه لأن ثمنه غال ، فقال : أن خطوة واحدة يخطوها في سبيل لله ويقربني بها من أعدائه ، لأحب إليّ من أربعة آلاف درهم !!

ديمقراطية التعليم في الاسلام

تمثلت ديمقراطيه التعليم في الاسلام في مظاهر متعددة نشير إلى بعضها فيما يأتي :

● حتمية المتعلم : وهناك العديد من النصوص التي تؤكد وجوب تعليم الناس وضرورة تعلمهم ، قد جاء في الحديث النبوي الشريف : « طالب العلم فريضة كل مسلم » وإن اختلف الكثيرون في تفسير المقصود بالعلم المفروض وعندما كرم الله الانسان فأصدر أمره الالهي للملائكة بالسجود له ، وضح ان ذلك إنما يرجع إلى ان الانسان اختص بعلم يختلف عن علم الملائكة . وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن يترتب عليه ضرورة أن يسعى الانسان بكل ما يملك من جهد للحصول على ذلك العلم . وقد جاء في مقدمات إبن رشد : « وطلب العلم والفقه في الدين من فروض الكفاية كالجهاد أوجبه الله على الجملة » . ومن هنا فقد استنتج « القابسي » ان الاسلام يوجب التعلم على الناس ، وزاد على ذلك بادلة هامة منها انه إذا كانت معرفة العبادات واجبة بنص القرآن ، ومعرفة القرآن واجبة أيضاً لضرورتها في الصلاة ، فيصبح الوالد مكلفا تعليم إبنه القرآن والصلاة ، لأن حكم الولد في الدين حكم أبيه وإذا كان معنى العلم هنا هو « العلم

الديني » فلأنه كان قوام الثقافة الاسلامية وخاصة في عهود الاسلام الأولى ، ومن ثم فإننا نغالي كثيراً إذا عممنا القول فسقنا هذه النصوص تأييداً لإيجاب التعلم وضرورة التعليم على وجه العموم في عصرنا الحاضر .

● المساواة في التعليم : فقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ انه قال : « أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الأمة ، فلم يعلمهم بالسوية ، فقيرهم مع غنيهم ، وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين » وهذا نص أقوى وأوضح من أن يحتاج إلى تعليق أو شرح في ضرورة أن يكون « المال » معياراً للمفاضلة بين الناس في التعلم والتعليم .

● تعليم المرأة . إذن لا يمكن أن يستقيم أمر الديمقراطية في مجتمع يحظى بالتعليم فيه الرجال دون النساء ، ومن هنا كان اهتمام الاسلام بتعليم المرأة وفقاً للظروف والقيم المبتغاة ، فمن ذلك ما جاء على لسان النبي ﷺ « ايما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران » .

الرجاء في الله

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله ، فلم أجد أرجى للعبد من قوله

تعالى : (قل كل يعمل على شاكلته) . . فشاكلة العبد المعصية وشاكلة الرب التوبة . .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى للعبد من قوله تعالى : (غافر الذنب وقابل التوب) .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى للعبد من قوله تعالى : (نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى للعبد من قوله تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله أن الله يغفر الذنوب جميعاً) .

فاللهم لا تخيب رجاءنا .

وعاملنا بالاحسان إذ الفضل منك وإليك .

رسالة القضاء

في [الموطأ وصحيحي البخاري ومسلم] عن « أم المؤمنين » أم سلمة رضي الله عنها » أن رسول الله ﷺ قال :

« إنما أنا بشر وانكم تختصمون إلى ، فلعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه . فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فلا يأخذن منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

ولما بويع « أبو بكر الصديق » رضي الله عنه بالخلافة ، خطب الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ، اني وليت عليكم وليس بخيركم. ألا أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم . إلا وان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه . . » .

ومن هدى الكتاب والسنة ، كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، إلى أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس ، رسالة أجمل فيها مبادىء الشريعة الاسلامية في القضاء .

« بسم الله الرحمن الرحيم » .

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس : سلام عليك .

« أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

« آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك .

« البينة على من أدعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً .

« لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التعادي في الباطل .

« الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم أعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .

« واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة ، أمراً ينتهي إليه . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

« المسلمون عدول بعضهم على بعض إلاّ مجلوداً في حد ، أو مجرياً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء ونسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايمان .

« وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن الذخر . فمن صحت نيته وأقبل على نفسه . ومن تخلق

خلقاً بما يعلم الله انه ليس من نفسه ، شانه الله . فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام » .

د . بنت الشاطىء

في السوق أو المسجد

يتحدث أحد أصحاب عمرو بن قيس الملائي عنه فيقول : كنت أطلبه في السوق ، فإن لم أجده في السوق وجدته في بيته أما يصلي وأما يقرأ القرآن ، وكأنه يبادر أموراً تفوته ، فإن لم أجده في بيته وجدته في بعض مساجد الكوفة ، وقد أوى إلى زاوية من المسجد وجلس يبكي ، فإن لم أجده في المسجد وجدته في المقبرة ينوح على نفسه .

وكان خليد بن عبد الله يقول : لا تلقى المؤمن إلّا في ثلاثة مواطن : مسجد يعمره بعبادة الله ، أو بيت يستره ، أو حاجة من أمر الدنيا ليس بها من بأس .

إذن في القتال

من المبعث إلى الهجرة ، اشتدت وطأة الوثنية القرشية بمكة ، على القلة من المسلمين الأولين ، دون أن يؤذن لهم في قتال .

وطالت هذه الجولة المكيـة الأولى ثلاث عشـرة سنة ، وطواغيت قريش يزدادون عتواً وبغياً ، والمسلمون يزدادون على الأذى والفتنة والمقاطعة والحصار ، ثباتاً واحتمالاً وبذلاً .

وهان عليهم ، ليأمنوا على دينهم الحق ، أن يخرجوا من ديارهم في « أم القرى » منزل الوحي وعهد النبوة ، مهاجرين إلى الحبشة ثم إلى يثرب . لم يبق منهم في مكة مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ، غير « أبي بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب » رضي الله عنهما ، والمستضعفين ممن حبسوا أو فتنوا .

● ● ●

مع الهجرة التاريخية ، أذن الله في القتال لهؤلاء الذين ظلموا و « أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله » .

واستجاب المؤمنون لداعي الجهاد وصبروا على تكاليفه ، لا يبالي أحدهم على أي جنب كان في الله مصرعه .

وأرضاهم أن يبذلوا أرواحهم فدية لعقيدتهم ، ورفضاً للبغى والظلم والعدوان ، ونضالاً عن حرمات لا يحل أن تنتهك أو تستباح .

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام :

« والذي نفسي بيده ، لوددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ،

ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فأقتل » .

والجهاد في الاسلام : عبادة .

ولا جناح على المجاهدين أن يقصروا من صلاتهم إذا خافوا أخذة العدو على غفلة ، وأن يقضوها بعد وقتها ، لضرورات الجهاد . كما لا جناح عليهم أن يفطروا إذا حاربوا العدو في شهر رمضان .

● ● ●

وفي [كتاب الجهاد ، من الموطأ وصحيحى البخارى ومسلم] عن رسول الله ﷺ ، قال :

« مثل المجاهد في سبيل الله ، كمثل الصائم القائم القانت لا يفتر من صيام ولا قيام ، حتى يرجع » .

« رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه » .

ولا يرتاب المجاهدون في أن الله معهم ، ينصر من ينصره . ويزودهم هذا اليقين بقوة معنوية لم تخذل المؤمنين قط . وفي حسابهم أنهم في قتال الطاغوت ، ظافرون باحدى الحسنيين : النصر ، أو الشهادة ، وهم يتلون الآية المحكمة :

« قل هل تربصون بنا إلّا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا انا معكم متربصون » .

صدق الله العظيم

الموت بين الحلم واليقظة

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري ، يطلب إليه أن يجمع له أمر الدنيا ويصف له أمر الآخرة ، فكتب إليه يقول :

إنما الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والموت متوسط بينهما ونحن في أضغاث أحلام من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر في العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف سلم ، ومن اعتبر أبصر ، ومن فهم علم ، ومن علم عمل فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فاقلع وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فامسك .

(الوعد الصادق)

في العاشر من رمضان المبارك سنة ثمان للهجرة ، خرج المصطفى عليه الصلاة والسلام في جنده المهاجرين والأنصار ، من دار هجرته إلى معقل الوثنية القرشية في مكة ، ليحسم المعركة التي طالت بين الحق والباطل ، بين الايمان والطاغوت .

قبل ذلك اليوم ، في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ، كانت « هدنة الحديبية » بين النبي ﷺ ، والمشركين من قريش وقد نص ميثاق الهدنة على :

[انه من أحب أن يدخل في عقد محمد ـ ﷺ ـ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم ، دخل فيه] .

فكانت « خزاعة » مع المسلمين ، و« بكر » مع قريش .

ونقضت قريش العهد ، فظاهرت بكراً على خزاعة ، وأمدتها بسلاح بيتت به الخزاعيين بالوتير ـ ماء لهم ـ فأصابت منهم من أصابت .

وكان عليه الصلاة والسلام يملي لقريش فيما نقضت من ميثاق الهدنة ، عسى أن ترجع عن غيها .

ثم حدث أن كان ﷺ في مجلسه بالمسجد النبوي ، فدخل « عمرو بن سالم الخزاعي » وأخذ طريقه إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وأنشده مرتجزاً :

يا رب اني ناشد محمدا
حلف أبينا وأبيه ألا تلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعاً وسجدا

فلما فرغ من انشاده ، قال النبي عليه الصلاة والسلام :

« نصرت يا عمرو بن سالم » .

ثم قام يتجهز ويعبىء جنده للخروج إلى مكة ، حيث المشركون من طواغيت قريش قد غرهم بجند الله الغرور ، واطمأنوا إلى مناعة موقعهم في حمى البيت العتيق ، لا يتصورون أن يدور قتال في البلد الحرام ، وهم الذين انتهكوا حرمته بأصنامهم ، وجعلوا من بيت الله معبداً لقبائل العرب الوثنية ، وصدوا عنه من يعبدون الله وحده ، ويولون وجوههم في صلاتهم حيثما كانوا ، شطر هذا المسجد الحرام .

وصدق الله وعده لمن صدقوا ما عاهدوا الله عله ، ونصر من نصروه فكان الفتح الأكبر .

فتحت مكة قلبها وأبوابها للمصطفى وصحبه من أبنائها المهاجرين الذين أخرجوا منها ، قبل ثماني سنين ، بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله ولأصحابه الأنصار الذين كانت إليهم الهجرة .

وطاف ﷺ بالبيت العتيق ، ثم استقل الكعبة رافعاً صوته بدعاء الفتح :

« الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » . .

وجموع المؤمنين من حوله تردد الدعاء ، فتخشع له صم
لجبال .

وبايع أهل مكة جميعا ، لم يبق منهم يوم الفتح مشرك ولا
شركة . .

وتهاوت صروح الطاغوت ، وتحطمت الأوثان بمعاول
لؤمنين ، والمصطفى ﷺ يتلو من كلمات ربه :

« وقل جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً » .

صدق الله العظيم

شروط الصحبة

قال عمر بن عبد العزيز عقب توليه الخلافة :

من أراد أن يصحبني فليصحبني بخمس :

يدلني من العدل إلى ما لا اهتدى إليه . . ويكون لي على الخير
رنا . . ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها . . ولا يغتاب
لدي أحدا . . ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس .

محمد نبي الرحمة ونبي الملحمة

بعث رسول الله ﷺ . بدين الاسلام ليخرج البشرية من

الظلمات إلى النور ، وليقرر مبادىء الحق والعدل والسلام
ولينشر بين الناس ظلالاً وأرفة من الحب الصادق والـو
الخالص ، وحينما ننظر إلى رسول الله وهو يدعو قومه إلى هذ
الدين ويتفاعل مع الحياة التي يحياها نجده يضرب المثل الكامل
في الخلق الكريم والأدب الرفيع حتى إن صاحبه أبا بكر يقول ا
يوماً : يا رسول الله : لقد طغت العرب جميعاً فما رأيت أحد
أكثر أدباً منك . فمن أدبك ؟ فيقول : أدبني ربي فأحسن
تأديبي . لقد كان صاحب قلب كبير لا تفلت منه شاردة من آما
الناس وآلامهم إلا لباها ورعاها وأعطاها من ذات نفسه ك
اهتمام وتقدير . . نراه يقف في صلاته ومن خلفه الصحا
يستمعون إلى قراءته للقرآن ، وكان إذا قرأه خشعت لقراء
الأرض والسموات ، ثم لا يلبث أن يسمع بكاء طفل رضيع
جاءت به أمه إلى المسجد لتصلي خلف الرسول فيضحي بغبط
الكبرى ، وينهي صلاته على عجل . رحمة بالرضيع الذي يبك
وينادي أمه ببكائه ، ونراه يسافر مع بعض أصحابه ويأتي وق
الطعام ويريدون ذبح شاة ثم يوزعون العمل على أنفسهم فنر
يقول : وعليّ جمع الحطب .

ويرفض القسوة في أي مظهر من مظاهرها ، فيسارع إلى إز
ظلم يقع على مظلوم ، ويقول الرسول الرحيم : اتقوا ظلم م
لا يجد له عليك ناصراً إلاّ الله ويبادر إلى نشر البر والمعروف و
إشاعة الخير في مختلف صوره بين الناس ، والكلمة الطيبة ر

والنظرة العاطفة رحمة ، والصفح عن المسيء رحمة ، وعبادة المريض رحمة ومعاونة العاجز رحمة .

هذه نماذج للرحمة بالأصدقاء . أما أعداؤ نا . أعداء الدين وأعداء الانسانية الذين يبادئوننا بالعدوان . بهدف القضاء على دعوة الحق والنور فلرسول الله معهم موقف آخر انه لم يهادن المعتدين يوماً من الأيام ، كان إذا ما دعا الداعي لخوض معركة من معارك الشرف أسبق أصحابه لمواجهة العدو ويضرب المثل لأصحابه في الشجاعة والفدائية . ودائماً كان يوصيهم ببذل النفس والمال حفاظاً على الأرض والعرض والكرامة ويقول : « أغزوا في سبيل الله من قاتل في سبيل الله فوق ناقة وجبت له الجنة . ونراه يوم حنين وقد تفرق من حوله كثيرمن جنده يقف في مواجهة الأعداء والسهام تنوشه من كل جانب وينادي إلى عباد الله . إلى عباد الله . أنا النبي لأ كذب . . أنا ابن عبد المطلب . . .

وهكذا شأن المسلم الذي يتأسى برسول الله إنه يكون رحيماً مع المؤمنين شديداً على الأعداء الكافرين حسبما قال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

إنـــذار

قال تعالى :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية آمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . .

[كلمة التقوى]

الجهاد بالكلمة في الموقع الوجداني والفكري من وجود الأمة ، لا يقل أثراً وقيمة وخطراً عن الجهاد الحربي في جبهة القتال .

ولقد كان في جند المصطفى عليه الصلاة والسلام كتيبة من الصحابة الشعراء ، تجاهد بالكلمة وتصلي المشتركين حمماً قال عليه الصلاة والسلام « إنها أشد عليهم من نضح النبل » .

والكلمة أمانة انسانية صعبة ، يحملها المجاهدون الأتقياء ، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وشهادة بالحق يشهدونها لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، لا يخشون في الله لومة لائم ، ولا يبالون ما يصيبهم في سبيلها من أذى وضر .

إنها « كلمة التقوى » التي ألزمها الله تعالى رسوله المصطفى والمؤمنين « وكانوا أحق بها وأهلها » .

وهي رسالة هذه الأمة ومناط خبريتها :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

● ● ●

وخيانة أمانة الكلمة ، بقول الزور ، من الكبائر التي يشتد الاسلام في تحريمها ، فتأتي في القرآن الكريم مقترنة برجس الوثنية :

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » .

وكتمان الشهادة بالحق ، من أثم القلب وهو أفدح الاثم ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، وقد حاقت اللعنة بكفار بني اسرائيل ، لأنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر :

« لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى إبن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

في [الموطأ والصحيحين] عن رسول الله ﷺ ، قال :

« إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه .

● ● ●

وفي عصر المبعث : كان يعصم المسلمين المستضعفين من محنة التعذيب حتى الموت ، أن يقولوا كلمة الكفر التي سألهم إياها طواغيت قريش ، فيكفوا عنهم .

لكنهم لم يقولوها ، ورفضوا أن يشتروا الحياة بكلمة الايمان « لا إله إلاّ الله » فكانوا شهداء الكلمة وإن لم يحملوا سلاحا قط .

ويعتز تاريخ الاسلام بجنود لكلمة الحق والتقوى ، قذفوا بها طاغوت الباطل واحتملوا في سبيلها محنة التعذيب والسجن ، وقتل بها من قتل «لتكون كلمة الله هي العليا» فكانوا شهداءها ، ومعهم من ماتوا على كلمة التقوى لم يفرطوا فيها تحت ضغط الارهاب .

«سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» صدق الله العظيم .

خير الدنيا والآخرة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من أعطى أربع خصال فقد أعطى خير الدنيا والآخرة وفاز بحظه منهما ، ورع يعصمه من محارم الله ، وحسن خلق يعيش به في الناس ، وحلم يدفع به جهل الجاهل ، وزوجة صالحة تعينه على أمر الدنيا والآخرة .

حديث رمضان
«طلب العلم فريضة وعبادة»

من أصول العقيدة الاسلامية أن الناس جميعاً مخلوقون من نفس واحدة ، لا يتفاضلون بجنس أو عنصر أو لون ، ولا بطبقة أو جاه وثراء ، وإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح .

ويدخل العلم في اعتبار هذا التفاضل ، بصريح الآية المحكمة :

« قل هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون إنما يتذكر أولو الألباب » .

ونحن المسلمين نحفظ من حديث نبينا عليه الصلاة والسلام :

« أطلبوا العلم ولو في الصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وطلب العلم : جهاد وعبادة .

قال عليه الصلاة والسلام :

« من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

وحدث « عبد الله بن عمرو » إن رسول الله ﷺ ، مر بمجلسين في مسجده بدار الهجرة : رجال أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه ، والآخرون يتذاكرون الفقه ويتدارسونه ، فقال ﷺ .

« كلا المجلسين على خير ، وأحدهما أفضل من الآخر : أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه ، إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم . وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلماً » ثم أقبل فجلس معهم .

وذلك ما رسخ في تقدير أئمة الاسلام لطلب العلم ، فريضة وجهاداً وعبادة . فيروى عن « سفيان الثوري : من أعلام التابعين الفقهاء » انه قال :

« لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من أن يعلم الناس العلم » .

وحدث « عبد الله بن وهب » ـ من تلاميذ الامام مالك ورواة كتابه [الموطأ] ـ قال :

« كنت عند مالك بن أنس الامام ، فأردت أن أقوم للصلاة وأنا أقرأ عليه وأنظر في العلم بين يديه ، فجمعت كتبي وقمت لأصلي ، فقال لي مالك : ما هذا ؟

قلت : أقوم للصلاة .

فقال : ان هذا لعجب ! ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي كنت فيه إذا صحت النية » .

وحدث « الربيع بن سليمان » عن شيخه الامام الشافعي ، قال :

« سمعت الشافعي يقول : لطلب العلم أفضل من الصلاة النافلة » .

« فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه وقل رب زدني علماً » .

صدق الله العظيم

الرجل يبتلى حسب دينه

سئل عليه السلام : أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . . يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة .

ويقول عليه السلام : ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة .

حديث رمضان

ورثة الأنبياء

ليس عجباً ، وطلب العلم في الاسلام فريضة وعبادة ، أن يكون للعلماء منزلة تقرب من منزلة الصفوة الأنبياء الذين بعثهم الله رسلاً هادين ومعلمين ، وكان خاتمهم نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام ، فليس من يخلفهم بعده ، في تعليم الناس وهدايتهم ، سوى العلماء . وقد قال فيهم خاتم النبيين عليهم السلام :

« العلماء ورثة الأنبياء : إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، ولكنهم ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

والاسلام الذي حسم الخصومة بين العقل والدين ، جعل العلم قرين الايمان . . والله تعالى يفصل الآيات لقوم يعلمون ، ويضرب الأمثال « وما يعقلها إلا العالمون » وينوط بهم الهدى والتقوى ، « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم » .

« بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم : وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون » .

وقد قصر ، سبحانه وتعالى ، خشية على العلماء :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

لأنهم بما يتفكرون في خلق السموات والأرض ويتدبرون السنن الإلهية في الكون والحياة ، يوقنون أن مثل هذا النظام الكوني المحكم ، لا يمكن أن يكون عبثاً باطلاً أو أن يسير بتلقائية عشواء .

● ● ●

والعلماء هم معلمو الأمة ، يكشفون عن بصائر أبنائها وأبصارهم ، حجب الجهل والضلال وغشاوة العمى والغفلة ويقودنها على مراقى طموحها إلى حيل تحقق وجودها الكريم ، ويسهرون على حراستها من آفات التشويه والتواكل والعجز والتخلف .

وجهادهم في هذا الموقع ، يجعلهم أقرب إلى الله تعالى ، من المنقطعين للعبادة لا تشغلهم عنها شواغل الجهاد وتكاليف الخدمة العامة ، وقد قال معلم الأمة ونبيها عليه الصلاة والسلام :

« لفقأه واحد ، أشد على الشيطان من ألف عابد » .

« فضل العالم على العابد ، كفضلي على أمتي » .

ويذكرون من مناقب « الامام الشافعي » انه حين رحل من الحجاز إلى العراق ، نزل في بغداد على الامام « أحمد بن حنبل » فتوقعت بنت أحمد ، أن يقوم الشافعي الليل كله ، لكثرة ما سمعت أباها يذكر ورعه وتقواه . فباتت الليل ترقبه ، وبات الشافعي راقداً على فراشه لم يبرحه حتى مطلع الفجر . فلما أصبحت قالت لأبيها :

ـ يا أبت ، أنت تعظم الشافعي ، وما رأيت له في هذه الليلة صلاة ولا ذكراً .

ودخل الشافعي فسأله أحمد : كيف كانت ليلتك ؟

قال : ما رأيت أطيب منها ولا أبرك ولا أريح ، لقد وفقني الله فيها للي بسائل في مصالح المسلمين ، كانت تشغلني .

فالتفت الامام أحمد إلى ابنته وقال :

ـ يا بنية ، هذا الذي عمله الليلة وهو راقد ، أفضل وأقرب

إلى الله مما عملته وأنا قائم .

« أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

صدق الله العظيم

بياض القلب وسواد الوجه

رأى أحد الأشراف رجلاً أسود يحيط به الناس لعلمه ، ويتبركون به لصلاحه فغاظه ذلك ، واقتحم الجمع ثم أمسك به وقال : يا أسود الحوافر والشوافر يا كافر بن كافر ، أنا ابن رسول الله ، أذل وتجل ؟ وأذم وتكرم ؟ وأهان وتعان ؟

فهاج ذلك غضب المجتمعين وقاموا ليضربوه ، فمنعهم الرجل الصالح ، وذكرهم بجده ـ عليه السلام ـ ثم اتجه إليه وقال : ولكن أيها الشريف بيضت باطني وسودت باطنك ، فيرى الناس بياض قلبي فوق سواد وجهي ، وأخذت أنا سيرة أبيك ، وأخذت أنت سيرة أبي ، فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي فظنوني إبن أبيك وظنوك إبن أبي فعملوا معك ما يعمل مع أبي ، وعملوا معي ما يعمل مع أبيك .

(حرمة العلم)

لعل حديث الأمس من العلماء « ورثة الأنبياء » يعطي فكرة.

عن حرمة العلم في الاسلام ، وقد صانها الكتاب والسنة بحدود تضع أصول المنهج ، في العقيدة الاسلامية .

منها : إن علم الانسان كسبي محدث ، يزيد وينقص ، ويجوز عليه الخطأ والقصور ، والسهو والنسيان .

وما من عالم يمكن أن يدعى له أنه بلغ في علمه الغاية التي لا مزيد عليها فالعلم الكامل لله وحده ، وقد قال تعالى لرسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« وقل رب زدني علماً » .

« واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا » .

وقال جل جلاله ، لرسوله نوح عليه السلام .

« فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين » .

وما من عالم يمكن أن يحيط بكل شيء علما ، والأصل في العقيدة الاسلامية أن الله تعالى وحده ، وهو الذي « أحاط بكل شيء علما » سبحانه « لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء » .

أما علم البشر ، فمحدود بمجال تخصص كل عالم منهم :

« فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

فإذا سئل عالم عما لا يعلم ، فمفروض عليه أن يقول : لا أعلم ، والله أعلم .

وليس بعالم من يخطئه أن يقول : « لا أدري » فيما لا يدري . وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يسأل فيها لا يدرى فلا يجيب إلا أن ينزل وحي فيما سئل عنه .

« يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » .

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير » .

« ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً »

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً » .

● ● ●

ومحظور في العقيدة الاسلامية ، أن يقول الانسان في شي بغير علم ، أو أن يقطع بيقين رجما بالظن ، يبتغي بذلك عرض من أعراض الدنيا كالسمعة أو المال .

« وما لهم به من علم أن يتبعون إلّا الظن وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً .

والاجتهاد مباح في الاسلام ، لأهل الجهة الراسخين في العلم ، كل في مجال تخصصه .

على أن الاجتهاد محظور عليهم أيضاً في الغيبيات التي لا سبيل لهم إلى العلم بها ، وإنما يصدقون بما جاء عنها في كتاب دينهم لا يتجاوزونه إلى ما لم يرد فيه نص . وقد سئل رسول الله ﷺ في غيبيات استأثر الله تعالى بعلمها ، فلم يجب إلا بآيات الوحي :

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * لى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها » .

« ويقولون متى هذا الوعدان كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين » .

« قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، أن أتبع إلا ما يوحي إلي » .

« ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني لسوء ، إن أنا إلّا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

صدق الله العظيم

حفظ اللسان

قال الله تعالى « وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وقال تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » وقال النبي ﷺ : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » .

وقال علي رضي الله عنه : إذا تم العقل نقص الكلام . وقال أعرابي : رب منطق صدع جمعا وسكوت راب صدعا .

واجتمع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي فقال أكثم لصاحبه : كم وجدت في إبن آدم من العيوب فقال : هي أكثر من أن تحصى وقد وجدت خصلة إذا استعملها الانسان سترت عيوبه كلها قال أكثم : وما هي قال : حفظ اللسان .

قتال في الشهر الحرام ؟

مع الإذن للمصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، وصحبه في القتال بعد أن ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

تأخرت أولى جولات المواجهة المسلحة لطواغيت قريش ، إلى شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة ، ريثما تم تنظيم

المجتمع الاسلامي في دار هجرته ، وتم الاعداد والتدريب والتعبئة للجهاد ، ودراسة ميدان الصراع في شتى جبهاته ومواقعه .

ومن مطلع السنة الثانية ، بدأ ﷺ يخرج في غزوات قصار ، تدريباً لجنده وإقراراً لهيبة الاسلام في موقعه الجديد .

كما بدأ ، عليه الصلاة والسلام ، يبعث سراياه لتجوب المنطقة ما بين المدينة ومكة ، معقل الوثنية العربية . ولم تكن هذه السرايا قاصدة إلى قتال ، وإنما كانت دوريات استطلاع تترصد أنباء قريش في منطقة الحجاز .

ومنها سرية « عبد الله بن جحش » إبن عمة المصطفى « أميمة بنت عبد المطلب » ـ وهي السرية التي اندلع منها الشرر فاشتعل على ساحة بدر .

خرج « عبد الله بن جحش » في ثمانية من المهاجرين ، في مستهل رجب من السنة الثانية ، أو قبله بيوم . ورجب من الأشهر الأربعة الحرم التي لا يحل فيها قتال . وكانت أوامر المصطفى إلى إبن عمته قائد السرية ، أن يمضي بها حتى ينزل بموضع « نخلة » بين مكة والطائف ، فيترصد هناك قريشاً ويستطلع أخبارها .

ومضى « عبد الله » بمن معه من المهاجرين حتى نزل بنخلة .

فمرت عير تجارية لقريش ، تحاشى المسلمون القتال معها حفاظاً على حرمة الشهر الحرام . لكن تجنب الصدام لم يكن مستطاعاً مع المواجهة ، وأطلق الصحابي « واقد بن عبد الله » سهماً أصاب من « عمر بن الحضرمي » مقتلا .

وعندئذ فرت قريش عن عيرها وقتيلها ، وعن أسيرين منهما .

وعادت السرية الظافرة إلى المدينة بالمغانم والأسيرين ، فقوبلت بوجوم ذهب بفرحة النصر ، وقال ﷺ لابن عمته أمير السرية .

« ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » .

ثم أعرض عما جاءت به السرية من مغانم ، ونحى الأسيرين القرشيين ، فظن « عبد الله » ورفاقه أنهم أثموا وهلكوا ، واشتد الصحابة من المهاجرين والأنصار في لومهم ، وقرعوا أسماعهم بما ذاع من قول قريش : « لقد استحل محمد وأصحابه حرمة الشهر الحرام » .

وتسللت الأفاعي من الأوكار اليهودية ، تنفث سمها في أحياء المدينة ، وتهمهم في حقد واشتفاء :

حتى حسم القرآن الموقف المعقد وأنهى الجدل فيه بكلمات الله البينات :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير . . » الآية .

وبها استرد جنود السرية طمأنينة قلوبهم وطاب لهم النصر على عدوهم .

بعد شهرين اثنين ، في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، كان يوم الفرقان في بدر .

أوسمة

أي أوسمة أرفع قدراً من الأوسمة التي وزعها الرسول الحبيب على صحابته الاجلاء ، فقال صلوات الله عليه وسلامه .

إرحم أمتي بأمتي : أبو بكر . . وأشدهم غيرة في دين الله : عمر وأعظمهم حياء : عثمان بن عفان واعلمهم بالقضاء : علي بن أبي طالب .

وأحفظهم للقرآن : أبي بن كعب وأعلمهم بالحرام والحلال : معاوية إبن جبل . .

واعلمهم بالفرائض : زيد بن ثابت . . ولكل أمة أمين . وأمين هذه الأمة : عبيدة بن الجراح .

مجلس شورى ليوم بدر

قبل أن يلتقي الجمعان في « بدر » كانت النذر قد تتابعت من مكة بأن قريشاً قد عبأت جموعها وخرجت في أكثر من ألف مقاتل كاملي العدة والسلاح ، قاصدة إلى المدينة التي رابط فيها المسلمون ، وفي حسابها أن تفرغ منهم قبل أن يكثروا ويزدادوا في موقعهم الجديد قوة ومنعة .

وعبأ المصطفى جنده من المهاجرين والأنصار للقاء العدو ، فما زادوا على ثلاثمائة مجاهد إلا قليلاً .

فماذا قال هؤلاء المؤمنون ، عندما قال لهم الناس أن طواغيت المشركين قد جمعوا لكم فأخشوهم ؟

جمع المصطفى عليه الصلاة والسلام من نفروا معه للجهاد ، وعرض عليهم الموقف ثم قال يطلب مشورتهم .

« أشيروا عليَّ ، أيها الناس » .

فقام أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، فتحدثا ما شاء لهما إيمانهما ، عن فريضة الجهاد واليقين من النصر ، ثم قام « المقداد بن عمرو » ـ وكان حديث عهد بالاسلام والهجرة ـ فقال :

ـ يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام : « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ بأقصى الجنوب ـ لجالدنا معك دونه حتى تبلغه .

دعا له المصطفى بخير . ثم التفت ﷺ إلى الأنصار ـ ولم يكن احد منهم تكلم بعد ـ وكرر قوله :

« أشيروا عليّ ، أيها الناس » سأل نقيبهم « سعد بن معاذ » .

ـ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال عليه الصلاة والسلام : أجل فقال سعد :

« لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن نلقى عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

وسار بهم المصطفى على بركة الله حتى نزل على ماء بدر ، فلم

يكن عجبا أن للعشرين من هؤلاء المؤمنين يغلبون مائتين والمائة يغلبون ألفاً من المشركين الذين خرجوا للقتال بطرا ورئا الناس ، وأمعانا في البغي والعدوان ، وصداً عن سبيل الله

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله م الصابرين » .

صدق الله العظي

واحد من الناس

من وصية لعمر بن الخطاب لأبي موسى وقد ولاه مسؤ وا أحد الأعمال : يا أبا موسى إنما أنت واحد من الناس ، غير الله قد جعلك أثقلهم حملاً .

وكان عمر يقول لأهله بعد أن تولى الخلافة : إن النا ينظرون إليكم ، كما ينظر الطير إلى اللحم وإني ـ والله ـ لا أو برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه ، إلا ضاعفت له العذا لمكانه مني !

وكان ـ رضي الله عنه ـ يأخذ نفسه بالشدة حين نزل بالمسلمين أزمة في الطعام خاصة في اللحم والسمن ، فكان يأكل إلاّ الزيت وحين تتألم منه أمعاؤه كان يؤكد أنه لن يستع إلاّ الزيت « ما دام السمن يباع بالأواقي » على حد تعبيره

ويقول لعتبة بن فرقد حين فتح أذربيجان : لا تأكل إلا ما يشبع منه المسلمون في رّحالهم .

امتحـــان

خرج رسول الله ﷺ مع جنده المهاجرين والأنصار ، للقاء طواغيت قريش على ماء بدر . وترك ابنته الغالية « رقية » تعالج سكرات الموت ، بعد رحلة شباب ممتحن بالحزن والغربة والشجن .

قبيل المبعث ، تزوجت هي وأختها « أم كلثوم » من ابني « عبد العزي إبن عبد المطلب بن هاشم » فلما بعث « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب » رسولاً ، لم يكن عمه عبد العزى وأبو لهب ، وأمرأته أم جميل بنت حرب ، حمالة الحطب ، في حاجة إلى قرار قريش : أن يطلق أصهار محمد بناته ويردوهن إليه ليشغلوه بهن عما يدعو إليه من دين التوحيد .

وتزوجت السيدة رقية من « عثمان بن عفان » وهاجرت معه إلى الحبشة ، حيث أسقطت جنينها البكر .

ثم عادت « مكة » وقد أوحشت من أمها « السيدة خديجة أمْ المؤمنين الأولى » وهاجرت الهجرة الثانية إلى المدينة المنورة ، فوضعت هناك وليدها « عبد الله بن عثمان » الذي ما كاد يؤنس وحشتها ويضمد جرح أمومتها ، حتى ثكلته طفلاً : مات في نضرة حيويته ، من نقرة ديك !

وفي دوار الصدمة ، ساورتها حمى قاسية ، تستنفد قواها وتنذر بدنو الأجل . . .

* * *

عادها أبوها المصطفى ، في طريقه إلى بدر وتركها في رعاية الله : ومعها زوجها « عثمان » يمرضها ويسهر عليها في ساعات الوداع .

وقد تشبثت بالحياة حتى سمعت هتاف النصر ترجعه آفاق المدينة آتياً من بدر ، فأغمضت عينيها لتنام .

واختلط الهتاف بحشرجة الاحتضار .

وأقبل أبوها عائداً من بدر ، فدنا من فراشها يودعها محزوناً خاشع القلب . وفي رفق رأسي : نحى إبنته « فاطمة » التي اعتنقت جثمان أختها مجهشة بالبكاء ، وجعل يمسح دموعها بطرف ثوبه .

ولم تحتمل النساء المشهد الأليم ، فانسحبن من المخدع منتحبات قد تخلى عنهن ما كن يتكلفن في حضرة النبي ﷺ من تجمل وتصبر .

وأثار نحيبهن غضب « عمر بن الخطاب » فاشتد في زجرهن محاولا أن يأخذهن بما ينبغي لمثل هذا الموقف من سكينة ووقار ، لكن المصطفى الوالد ، كف صاحبه عنهن وقال :

« مهما يكن من العين ومن القلب ، فمن الله والرحمة . ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان » .

وصلى النبي على إبنته « رقية » .

وشيعت المدينة بنت رسول الله ، ذات الهجرتين إلى مثواها في البقيع ، حيث وريت الثرى الطيب الذي ارتوى يومئذ بدماء الأبرار من شهداء بدر .

وسلام على المصطفى بشرا رسولا .

هدية . . له
ورشوة . . لنا

كان عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ قبل أن يتولى الخلافة مترفاً ظريفا ، يعني بحسن سمته وهندامه .

فلما آل إليه أمر المسلمين لزم الزهد وأخذ نفسه بالتقشف . وحول أمواله وأموال زوجه إلى بيت المال .

وحدث أن آشتهى التفاح ذات يوم . فأهدى إليه شيء منه ، فدعا غلامه وأمره أن يحمل التفاح إلى من قدمه ، وأن يحمل معه السلام عليه .

ورأى ذلك بعض الحاضرين فقال : يا أمير المؤمنين أن الذي

أهدى إليك التفاح رجل من أهل بيتك ، وأنت تعلم أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية .

فقال عمر رضي الله عنه : إن الهدية كانت للنبي هدية ، ولكنها لنا اليوم رشوة .

وافد من قريش

قبل فتح مكة ، لم يخف على المشركين من قريش أن نبي الاسلام ﷺ ، يعبىء جنده ليسير إلى معقل الوثنية العربية ، لا يصده عنها عهد الحديبية الذي نقضته قريش في جرأة فاحشة .

وبدا لقريش أن تحتال على الموقف ، فتلتمس تجديد الهدنة المنقوضة . وفي دار الندوة بمكة ، وقع الاختيار على « أبي سفيان بن حرب » ليكون وافد قريش إلى المدينة في هذه المهمة .

* * *

دخل المدينة خائفاً لا يدري كيف يواجه المسلمين بعد الذي كان ، وبعد تردد طال ، أخذ طريقه إلى بيت ابنته « رملة بنت أبي سفيان ، أم المؤمنين » وهو يطمع أن تستجيب لعاطفة الأبوة ، فتشفع له لدى زوجها .

واستأذن عليها فأذنت له ، لكنها انتظرت لم تأذن له في الجلوس ، حتى تعلم فيم جاء .

وإذ تقدم هو من تلقاء نفسه إلى الفراش ليجلس عليه ، سبقته إليه فطوته عنه !

سألها وهو يتجاهل مغزى ما فعلت :

ـ يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟

فما راعه إلا إن ردت :
ـ بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك .

وأنت مشرك .

قال أبو سفيان مقهوراً :

ـ والله يا بنية ، لقد أصابك بعدي شر . وخرج بحسرته ، فإذا رسول الله عليه الصلاة والسلام في مسجده مع جمع من أصحابه . فيهم أبو بكر وعمر ، رضي الله عنهما .

ووقف بين يديه ، ﷺ ، يعتذر عن قريش ، ويضرع إليه في تجديد الهدنة ، فما رد عليه المصطفى بكلمة .

واتجه أبو سفيان إلى « الصديق أبي بكر » يسأله أن يكلم النبي عليه الصلاة والسلام ، فما زاد الصديق على أن قال : ما أنا بفاعل .

وإلتمس أبو سفيان الشفاعة عند النبي ، من « عمر بن الخطاب » فكان رده :

ـ أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ! فوالله لو لم أجد إلّا الدر ـ الحصا ـ لجاهدتكم به .

ونقل أبو سفيان بصره في القوم ، فما وجد إلّا الصد والجفاء . .

وقاوم يأسه ، فسعى إلى بيت « علي بن أبي طالب » يستشفع به إلى صهره وإبن عمه .

قال « علي » :

ـ ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ ، على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

فالتفت أبو سفيان إلى السيدة « فاطمة الزهراء » فقال لها وهو يشير إلى إبنها « الحسن بن علي » .

ـ يا إبنة محمد ، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر !

ردت الزهراء :

ـ والله ما بلغ بني أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

ولم يبق لأبي سفيان إلاّ أن ينصرف خائباً ويعود من حيث جاء .

وفي أثره كان جيش الفتح ، في طريقه إلى البلد الحرام والبيت العتيق .

د . بنت الشاطىء

ترفق . . بصاحبك

خرج رسول الله ﷺ إلى بئر يغتسل ، فأمسك حذيفة بن اليمان بالثوب على رسول الله ﷺ يستره به حتى اغتسل . . ثم جلس حذيفة ليغتسل ، فتناول رسول الله الثوب وقام يستر حذيفة . . فأبى حذيفة وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تفعل .

فأبى رسول الله ﷺ إلاّ أن يستره بالثوب حتى اغتسل ثم قال : ما اصطحب اثنان قط إلاّ كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه . . وقال ﷺ : مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى .

الخطأ والمسؤولية

لا تعترف العقيدة الاسلامية بعصمة بشر من الخطأ ، فهذه « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » .

ومع جواز الخطأ على كل البشر ، تقرر العقيدة أن كل إنسان مسؤول عن قوله وعمله ومسعاه ، إلّا أن يكون سفيهاً أو مخبولاً فيحجر عليه ، أو قاصراً فيوضع تحت الوصاية إلى أن يبلغ رشده .

وكما يرفض الاسلام مبدأ : فلان لا يخطىء ، يرفض مبدأ : فلان لا يسأل عن عمله أو قوله . ذلك لله وحده ، سبحانه « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

والذي بين الانسان المخطىء وخالقه موكول إلى أمره تعالى ومشيئته ، هو الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، سبحانه « لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

أما الأخطاء التي يضار بها الأفراد والجماعة ، فقد وضعت الشريعة الاسلامية الحدود والقصاص ، تأميناً للحياة العامة :

« ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .

ويبقى وراء الذنوب التي وضعت لها الشريعة الحدود ، ما هو متروك للأمة ، تحاسب عليه المخطىء وتسأله فيه . وهي مسؤولية صعبة ، تلقيها العقيدة الاسلامية على كل قادر عليها ، تكليفاً دينياً بأن ينهي عما يراه منكراً ويجهر بشهادة الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، ويهون عليه أن يحتمل في سبيلها أقسى التضحيات ، ولا يبوء بلعنة اثم القلب :

لا يختلط الأمر على المؤمن التقي ، فيما هو مكلف به من الجهر بالحق ونقد الخطأ والنهي عن المنكر ، وما يحرم عليه شرعاً من كبائر الافتراء والأفك والبهتان ، والخوض في حرمات الناس بغير علم .

« إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » .

صدق الله العظيم

د . بنت الشاطىء

يرجو . ويخاف

روى أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو يجود بنفسه . . فقال : كيف تجدك ؟

قال الشاب : أرجو الله . . . وأخاف ذنوبي . .

فقال النبي ﷺ : الرجاء والخوف لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن ، إلاّ بلغه الله ما يرجوه وآمنه مما يخاف .

[دعوى الجاهلية . .]

على مسار تاريخنا الطويل ، لم يحدث قط ان انتصرت أمتنا في معركة لها على عدو ، ألا وهي متحدة الصف والكلمة ، موحدة الجبهة واللواء .

وتاريخنا الاسلامي يبدأ من عصر المبعث ، وقد كانت نقطة التحول فيه ، إلتئام شمل الأوس والخزرج ، عرب يثرب ، إذ جمعهم الاسلام تحت لوائه الأغر ، أخواناً في الدين وأنصاراً لله ورسوله ، بعد أن طحنتهم الحروب ومزقتهم العداوة والبغضاء .

وانتقل مركز الدعوة والجهاد إلى المدينة ، وقد كانت قبل الاسلام ، ولمدى خمسة قرون ، منطقة استغلال يهودي فاحش ، يسيطر على مواردها الاقتصادية ويتسلط على وجودها العربي بذرائع الفتنة المدمرة . فلم يكن عجباً أن جن غيظ اليهود بما أطفأ الاسلام من نار الحرب بين الأوس والخزرج ، وأسقط مخلفاتها ورواسبها من الثارات والأحقاد .

فهل يمكن إقاظ الفتنة واهاجة الشر بين الأوس والخزرج ؟

في [السيرة النبوية لابن هشام ، وتاريخ الطبري] من أحداث السنة الأولى للهجرة :

مر « شماس بن قيس » - من رؤوس يهود - على نفر من الأنصار ، أصحاب رسول الله ﷺ ، الأوس والخزرج ، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام . بعد الذي كان بينهم من العداوة والشر في الجاهلية . فقال : يحدث نفسه :

قد اجتمع ملا بني قبلة - الأوس والخزرج - بهذه البلاد ، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار !

ثم أمر فتى من عصابته كان معه ، فقال :

- أعمد إليهم فأجلس معهم . ثم أذكر « يوم بعاث » وما كان قبله من حروب بينهم ، وأنشدهم بعض ما تقاولوا فيها من أشعار .

وفعل الفتى اليهودي ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا ، حتى هاج الشر بينهم فتواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك بموضع « الحرة » .

واندفعوا في دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون : السلاح ، السلاح !] .

ورجت صيحة الحرب دار الهجرة ، وجاء المصطفى عليه الصلاة والسلام في جمع من أصحابه ، فأدرك القوم بالحرة وقد هموا بقتال . قال :

« يا معشر المسلمين ، الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للاسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ » .

ونفذ صوت المصطفى من مسامعهم إلى أفئدتهم وعقولهم ،

وعرفوا أنها مكيدة عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً] .

وبطل سم هذه الفتنة ، وخاب كيد يهود . .

« يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

صدق الله العظيم

جيران . . الله

كان علي بن الحسين « زين العابدين » يحدث الناس ذات يوم فقال لهم :

إذا كان يوم القيامة ينادي مناد :

أين أهل الصبر ؟ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : علام صبرتم ؟ . . فيقولون : صبرنا على طاعة الله ، كما صبرنا عن معصية الله ، فقال لهم : صدقتم . . ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

ثم ينادي مناد : ليقم جيران الله في داره ، فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم

الملائكة سائلين : وبم جاورتم ربكم في داره ، فيقولون : كنا نتزاور في الله عز وجل ، ونتجالس في الله ، فتقول لهم الملائكة : أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

منفيون عن الاسلام . . أحياء وأمواتاً

ما من داء يصيب الأمة ، أخبث ولا أضرى من داء النفاق الذي يعده الاسلام شراً من الكفر الصريح .

فلا خطر على الأمة من عدو سافر تتقيه أو تواجهه في معركة مكشوفة وحرب معلنة .

الخطر كل الخطر ، من عدو يتغلغل في صميم كيانها من حيث لا تدري ، ويأتيها من حيث لا تتوقع أو تحتسب .

وقد لقي المسلمون الأولون من كيد المنافقين ، ما هدد المجتمع الاسلامي في دار الهجرة ، إذ نجم النفاق هناك نفثة من سم اليهود الذين كانوا ناشبين في شمال الحجاز . وكانت جيوبه الخطرة ، أشد ما واجه الاسلام في صراعه مع الوثنية القرشية والعصابات اليهودية . كمن السم في أول الأمر ، وتتابعت بوادره مع ثقل أعباء الجهاد وتكاليفه ، منذرة بالخطر . فالمنافقون يخالطون المؤمنين ، ولا يملك أحد أن ينفيهم عن الاسلام وهم يتعوذون بالتظاهر به وينطقون بشهادته ، والحكم على النوايا وخفايا القلوب ، متروك لله وحده .

ثم جاءت « غزوة تبوك » في السنة التاسعة للهجرة ، فمزقت أقنعتهم وكشفت المستور من زيفهم ، وآذنت بأن النفاق الذي طالما هدد الجبهة الاسلامية ، قد صار داء عياء لا يجدي فيه غير البتر والحسم .

لقد مشى بعضهم إلى بعض يتواصون بالقعود عن الجهاد ، شكا في المصير وارجافاً برسول الله ﷺ . وانبث نفر منهم في أحياء دار الهجرة ، دعاة تثبيط وتخذيل .

ثم كانت المكيدة الفاحشة :

تظاهر « عبد الله بن أبي بن سلول » رأس المنافقين ومولى اليهود ، بالتأهب للخروج مع المجاهدين ، وجمع إليه حشداً من شيعته أهل النفاق ومن اغتر بهم ، ثم تنحى بعسكره وانتظر حتى تمت التعبئة للجهاد ، وخرج المصطفى عليه الصلاة والسلام بجنده من المدينة المنورة ، وما يشك أحد في أن « إبن أبي بن مسلول » ماض وراءه بعسكره .

لكنه تحرك ، لا إلى الشمال في طريق الجيش المجاهد ، وإنما انحاز بعسكره من أسفل المدينة .

ومضى ﷺ بالمؤمنين ، وتخلف كل المنافقين . من حزب الشيطان .

ونزلت آيات سورة التوبة ، الفاضحة لزيف المنافقين ،

فقضت بعزلهم عن مخالطة المؤمنين ، حسماً لشر الفتنة وسداً لذرائع الأحباط والتخذيل :

« لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالاً ، ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » .

كما قضت بنفيهم عن الاسلام أحياء وأمواتاً ، فليس لرسول الله ﷺ أن يأذن لهم في الخروج معه للجهاد ، ولا أن يصلي على أحد منهم مات أبداً ، أو يقوم على قبره :

« إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

صدق الله العظيم . .

لحسد . . والمخرج منه

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد » .

قيل : فما المخرج يا رسول الله !

قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ .

وقال بعض الحكماء : ستة لا يخلون من الكآبة : رجل افتقر بعد غنى ، وغني يخاف على ماله الفناء ، وحقود ، وحسود ،

وطالب مرتبة لا يبلغها قدره ، ومخالطة الأدباء بغير أدب .

وقال معاوية : كل الناس أستطيع أن أرضيه إلاّ حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلاّ زوالها .

الردة ، وحرية العقيدة

مع المد الجائح لموج الإلحاد المصري يشق على شباب اليوم أن يفهموا منطق تقرير الاسلام لحربة العقيدة ، مع شدته في عقوبة المرتد . ويريبهم أن تنكر الأمة اليوم على أبنائها حرية الاختيار المذهبي ، وأن تبرأ ممن يظهرون فيها بالالحاد .

من حيث الردة : لا تعارض على الاطلاق بين موقف الاسلام منها ، وحربة العقيدة .

الحربة هي الأصل والمبدأ ، وليس على الرسول إلا البلاغ :

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

« فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلاّ البلاغ » .

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

وقد عاش غير المسلمين في ديار الاسلام آمنين على عقائدهم

ومللهم ودور عباداتهم ، لم يخضعوا فيها لأي إكراه ديني .

ولكن المحظور أن يرتد المسلم عن دينه فيكون عدواً لأهله وأمته ، إذ ليس أضر على الأمة من أبق مرتد ، ينكر عقيدتها ويبرأ من الانتهاء إليها . وهذا المرتد قد اختار بمحض إرادته الانسلاخ من أمته ، فليحتمل تبعة هذا الانسلاخ الذي لا يتعلق به فرداً ، بل يتعلق بالأسرة والجماعة التي هو عضو منها . . وإذا قضى الاسلام ببتر هذا العضو المنسلخ ، فإنه يقي الأمة أزمة تصدع كيانها ، وخطر الضغينة التي يحملها خارج على دينها ، ويسد الذرائع لما يحتمل من سريان عدوى الاباق والخروج على دين الجماعة ، وما يتوقع من استغلال أعداء الأمة لهذه الثغرة في أخطر مواقع وجودها .

ويلهج أبناء لنا بحرية الاختيار للعقيدة أو المذهب .

وقد يفوتهم من منطق حرية الاختيار ، أن يكون الانسان على بينة مما يرفض أو يقبل .

إذ مع الجهل بالمرفوض أو بالمقبول ، تتحدد زاوية الرؤية ومجال التفاضل ، فتنتفي بذلك حرية الاختيار .

ومع الجهل بهما ، كليهما ، يكون الانسان ضحية فتنة الاستهواء والانقياد الأعمى ، لا يملك من أمره شيئاً ولا يدري فيم المسير إلى يمين أو يسار .

هذه هي مأساة أبناء الجيل ممن يفرطون في عزة إصالتهم عن جهل وغفلة ، لم يعرفوا الاسلام حق معرفته قبل أن يرفضوه ويستبدلوا به مذاهب لا يعلمون عنها شيئاً إلا ما تلقوه من كتائب الدعاة وأجهزة الاعلام ، تستدرجهم من حيث لا يدرون ، لينسلخوا من كيان أمتهم ويفرطوا في أصيل هويتهم ، ويخبطوا العشواء من غير دليل :

« كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » .

أو « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

صدق الله العظيم
بنت الشاطىء

أصنعه . . وأطلبه

قال بعض الحكماء : أصنع المعروف إلى من يشكره ، وأطلبه ممن ينساه . وقال : النعم وحشية فقيدوها بالشكر .

للزكاة طهارتان

إن في الزكاة معنى « التطهير » و « التفوية » وإذا كان المال « عصب الحياة » فإن طريقة اكتسابه يجب أن تكون بريئة من

الشوائب بعيدة عن الشبهات . ولقد أراد الله ـ رحمة بعباده . أن يطهر البدن بزكاة المال ، ويطهر النفس بزكاة الفطر ، لأن العبد قد أخلص النية لربه ، فأدى فريضة الصوم خارجاً عن دنياه طالباً آخرته ، ولذلك كان المؤمنون حقاً هم الذين « للزكاة فاعلون » وقد كتب الله لهم الفلاح من حيث تغلبوا على الشح وحب النفس ، والحيازة ثم تعاطفوا مع أخوتهم في المجتمع تعاطفاً عملياً يدل عليه قوله تعالى : « فاعلون » !

إن للزكاة طهارتين . طهارة بدن مخرج الزكاة ونفسه وآله ، وطهارة المستحق فالمخرج قد أزال شبهة المال بتطهيره ، والمستحق قد أبعد المنوازع النفسية من الحقد والحسد ، والغضب فزكى نفسه ـ أما معنى « التقوية » ، فيعطي المال مناعة في إدخاره ببركته ويمنح المستحق ثقة في نفسه ومجتمعه .

إن حابس الزكاة عن مستحقها في شدة الدنيا والآخرة ، فقد قال تعالى : « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » ، لأنه منع حق الله ، وطلب الاستغناء عن ثوابه كبرا وغرورا ، فكانت شدته الدنيوية في النكبات التي تذهب بحاله ، وفي الآخرة بالنار المهيأة لعقابه .

وحين يقول الغنى عن العالمين : « قد أفلح من زكاها » إنما يعني تحقق الفوز بالرضا عن طهر نفسه من الذنوب ، والبخل ذنب عظيم ، لأن البخيل عدو الله لعدم اعترافه بنعمته وجحده فضله .

لقد كان من إحسان الله على عباده أن أعطاهم ـ في رمضان فرصة السعي إلى طهارة العائل ومن يعولهم بزكاة الفطر لتسلم الأسرة من ظلمات الشدة ، ثم تعيش في نور الرضا بالرخاء والسعادة !

حبيب الله

في الحديث النبوي أن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده في مأكله ومشربه .

ويقول بكر بن عبد الله : من أعطى خيراً فظهر عليه سمي حبيب الله محدثاً بنعمة الله عز وجل ، ومن أعطى خيراً فلم يظهر عليه سمي بغيض الله معادياً لنعمة الله عز وجل .

رجع الصدى

القول بالعدم والفناء بعد الموت ، ليس جديداً كما يتوهم الذين ينتحلون العصرية مذهباً ، بل هو قديم منذ كان الانسان :

« أو لم ير الانسان إنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

« ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ، أو لا يذكر الانسان إنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » ؟

من غابر الدهر ، كانت المماراة في البعث مما تحدى به الكفار كافة المرسلين عليهم السلام . والذي قاله الملا من الكفار بعد عصر الطوفان :

« إن هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » .

قاله أصحاب الرس وثمود وعاد وقوم تبع واخوان لوط :

« كل كذب الرسل فحق وعيد . أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » .

وسمه « موسى » ممن كذبوه .

« إن هؤلاء ليقولون . إن هي إلاّ موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » .

ورده المشركون العرب ، تحدياً لخاتم النبيين عليهم السلام .

« وقالوا أن هذا إلاّ سحر مبين . أئذا كنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو آباؤ نا الأولون » ؟

« بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا تراباً

وعظاماً أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وابا ؤ نا هذا من قبل ، إن هذا إلّا أساطير الأولين » .

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب . أئذا متنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد » .

« وقالوا إن هي إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلّا الدهر » .

هكذا تردد رجع الصدى من ماض سحيق ، عبر القرون والأحقاب . وقد قاومت الانسانية على مر الزمن فكرة الفناء ، وناضلت جهدها لكي تتقي لعنة العدم التي تجعل من هموم الانسان في الدنيا عبئاً لا يطاق ، ومن طموحه وكدحه وكفاحه ، عبثاً باطلاً ينتهي بضجعة القبر .

ولعلها فيما تسمع اليوم من العدميين ، لا تراه إلّا من رجع هذا الصدى لأقوال عصور غابرة ، كانت بحيث تدمر في الانسان إرادة الحياة وتسلمه إلى فوضى وقنوط وأحباط ، لولا أن وجد في الايمان ملاذاً من العبثية يهون عليه ما يكابد في رحلته العابرة على هذه الأرض ، ويؤمن مصير ما يكدح له في معترك الوجود وصراع القيم .

بنت الشاطىء

من يستطيع ؟

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يعدل الجهاد . .

فقال عليه السلام : لا أجده . . ثم قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟

قال الرجل : ومن يستطيع ذلك ؟

فقال عليه السلام : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله .

لا تقنطوا من رحمة الله

لا مجال في العقيدة الاسلامية لأن تتعقد شخصيتنا بما نتورط فيه من ذنوب تطهرها التوبة الصادقة .

والظن الشائع أن التوبة لا تكون إلا من الضالين غير المتقين .

لكنها في كتاب الاسلام ، مظهر تقوى وصريح إيمان « والله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

وقد كان للرسل عليهم السلام ما يتوبون منه :

تضرع نوح إلى الله « قال رب إني أعوذ بك إن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » .

ويونس عليه السلام ، صاحب الحوت ، ضجر بالابتلاء « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » .

وكانت دعوة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام .

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا أنك أنت التواب الرحيم » .

وظلم « موسى » نفسه إذ استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه « فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين . قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم » .

وابتلى داود وسليمان عليهما السلام بالفتنة .

وفي ختام الوحي ، تلقى خاتم الرسل عليهم السلام آيات النصر :

« إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

والمؤمنون جميعاً ، يتوبون إلى الله : « وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون » .

قصارى جهد المتقين منا أن يضيقوا بالصغائر ويجتنبوا « كبائر الاثم والفواحش إلاّ اللمم » .

فإذا « فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » .

ومهما يسرفوا على أنفسهم فمغفرة الله واسعة ، وهو سبحانه ينهي عباده عن القنوط من رحمته :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » .

بل ان هذا القنوط ، يحمل في العقيدة الاسلامية على الضلال والكفر :

« ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ؟

« ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون » .

في حديث قدسي ، عن رسول الله ﷺ : ؟ إن الله يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا دعاني » .

وقال تعالى :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » .

صدق الله العظيم

الوالي . . الرعية

قال الامام علي بن أبي طالب :

أيها الناس : إن لي عليكم حقاً . . ولكم علي حقوق . . فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعملوا . . وأما حقي عليكم . . فالوفاء . . والنصيحة ، والاجابة حين أدعوكم والطاعة حين آمركم .

مع المصطفى في ليلة القدر

تجلى له الوحي في « غار حراء » وألقى إليه بالكلمة : « إقرأ » .

وما كان « محمد بن عبد الله » بقارىء ، وما كان يتلو من قبله كتاب ولا يخطه بيمينه ، فماذا يقرأ ؟

« إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » .

وخرج من الغار ، والكون من حوله ساج خاشع ، وعلى الأفق نور فجر جديدة ينسخ ظلمات ليل طال ، ويوشح البيت العتيق بسنا وضاء ، يكشف عما تكدس في رحابه من أصنام ، فتبدو على حقيقتها العارية : ممسوخة شائهة بلهاء . وكان لها من ظلمات الليل ستر كثيف يخدع البصر ويزيف الرؤ ية .

النور ملء بصره وبصيرته .

والكلمات ملء قلبه ومسمعه .

ولكنه في حيرة من الأمر ، يعييه أن يستوعب كنه السر الأعظم الذي تجلى له ، ويأخذه من جلاله ما يشبه الدوار فيكاد لا يدري ما إذا كان في وعي يقظته ، أم تلك رؤ يا بصيرة أرهفها طول التأمل في آيات القدرة ، والتطلع إلى اجتلاء سر هذا الكون وخالقه ؟

وأحس وطأة العبء الثقيل تجهده وترهقه ، فما بلغ داره ، حتى بدأ مكدوداً مرتعداً شاحباً ، كأنه ووجدها هنالك ساهرة في انتظاره « خديجة » التي كانت له على مدى خمس عشرة سنة ، زوجاً وأماً ، وملاذا وسكنا .

وهذه هي معه في ليلة القدر ، ليس له في الدنيا غيرها من يودعه سره ويلتمس مشورته ورأيه .

هذه هي إلى جانبه ، يفضي إليها بما رأى وسمع ، ويملأ

عينيه منها إذ تصغي إليه بسمعها وقلبها ، محاولاً أن يستبين وقع هذا الأمر على أقرب أهله إليه ، وأعزهم عليه ، وأصفاهم له وداً وأرشدهم نصحاً ورأياً . .

وقالت في إيمان ويقين :

« الله يرعانا يا أبا القاسم . إبشر يا إبن عم وإثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » .

وأحس راحة الأمن والسكينة . . وباتت خديجة ليلتها : أم المؤمنين الأولى التي ستظل زوجها المصطفى في أشق مراحل الدعوة وتواجه معه أصعب مخاطرها وأقسى تكاليفها ، وتقف إلى جانبه إذ يلقى بالقلة من السابقين الأولين ، طواغيت الوثنية القرشية الضارية .

كتب مؤرخو السيرة النبوية :

« كان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بخديجة رضي الله عنها : إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس . . حتى ماتت رضي الله عنها ـ في السنة العاشرة للهجرة ، عام الحزن ـ فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الاسلام » .

بعد عام الحزن ، أوحشت دنيا المصطفى ﷺ من وزيره وربة بيته ، وثقلت عليه وطأة الغربة في مكة ، وأنها لمهد مودة ودار مبعثه ومنزل عشيرته .

وبدأ ﷺ بمكر في الهجرة ، ويرجو أن يأذن الله .

وعاشت بعد رحيلها ، ملء الحياة في قلبه ودنياه ، وفي تاريخ الاسلام الذي عرف لها مكانها وقدرها ، وأعزه الله بها منذ وقفت مع المصطفى في ليلة القدر ، وليس في الدنيا ليلتئذ من آمن به سواها .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

صدق الله العظيم

مخموم القلب

سئل النبي عليه السلام : أي الناس أفضل ؟

فقال : كل مخموم القلب ، صدوق اللسان !

قيل : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟

قال : هو التقي النقي ، لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد .

وديعة مستردة

في السنة السابعة للهجرة ، استقبلت المدينة المنورة « مارية القبطية » هدية من مصر ، بعثها المقوقس عظيم القبط إلى نبي

الاسلام عليه الصلاة والسلام ، مع صاحبه « حاطب بن أبي بلتعة » الذي حمل إليه كتابه ، يدعوه فيه إلى الاسلام .

ولم يسلم المقوقس ، لكنه رد على الداعي رداً جميلاً ، وأكرم وفادة صاحبه حاطب ، وأرسل إليه بهدية من خيرات الكنانة ، منها « مارية وسيرين ابنتا شمعون » لهما مكان في القبط عظيم .

وكان مولدهما ، لأب قبطي وأم رومية ، في صعيد مصر بقرية « حفن » على الشط الشرقي للنيل تجاه الأشمونين ، وانتقلتا في صباهما المباكر إلى قصر المقوقس ، ومنه خرجتا إلى المدينة ، فكان من حظ « مارية » أن اصطفاها ﷺ لنفسه ، أما أختها « سيرين » فكانت لحسان بن ثابت الأنصاري ، أم ولده عبد الرحمن .

صعدت « مارية » بحظوتها لدى المصطفى الذي كان لها في الغربة الأهل والوطن ، وآثرها الله تعالى بأن حملت من خير البشر ، ووهبه منها على الكبر واليأس ولده « إبراهيم » .

كان ﷺ في أواخر العقد السادس من عمره ، لم يرزق ولداً قط ، من أمهات المؤمنين اللواتي تزوجهن بعد السيدة خديجة أم أبنائه الستة . وقد ثكل منهم ولديه « القاسم وعبد الله » ثم ثكل بناته الثلاث « زينت ورقية وأم كلثوم » فلم يبق له غير إبنته الزهراء .

فلما أن جاءته البشرى بمولد إبراهيم ، سجد لله شاكراً ،

وحمل وليده يقبله مغتبطاً قرير العين ، واحتفلت المدينة بمولد إبن المصطفى ، يعزيه عما امتحن به من ثكل . وتفتح « إبراهيم » للحياة ، وأبوه سعيد به يرقب نموه يوماً بعد يوم ، ويجد فيه أنسه ومسرته .

ثم شاء الله أن يسترد وديعته .

مرض « إبراهيم » قبل أن يتم السنة الثانية من عمره ، وسهرت عليه أمه تمرضه ، والمدينة كلها تدعو له بالشفاء ، حتى إذا دنا أجله ، جاء أبوه معتمداً على صاحبه « عبد الرحمن بن عوف » لشدة ألمه ، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه ، ووضعه في حجره محزوناً جاشع القلب ضائع الحيلة ، لم يملك دمعة وهو يشهد ولده الوحيد يعالج سكرات الموت .

وأسلم إبراهيم الروح ، فقبله أبوه وقال والدمع يفيض من عينيه :

« تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب . وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وسار وراءه محمولاً على سرير صغير من منزل أمه إلى البقيع ، فصلى عليه أبوه وصحابته ، وأضجعه بيده في قبره .

وآب المشيعون إلى المدينة وقد غام الأفق وانكسفت الشمس ، فقال قائلون منهم : إنها انكسفت لموت إبراهيم .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسُفان لموت أحد ولا لحياته » ولم يطل به العمر بعد ولده .

كانت وفاة إبراهيم في السنة العاشرة للهجرة ، وفي ربيع الأول من السنة التالية ، رحل أبوه ﷺ عن هذه الدنيا ، ولحق بالرفيق الأعلى :

« سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار » .

الأمير يعمل بدلاً من الخادم

سلمان الفارسي هو أحد الصحابة الأجلاء ، تولى الامارة على نحو ٣٠ ألفاً من المسلمين . . لم يكن له بيت وكان يأكل من عمل يده ولا يأكل من أموال الصدقات . . كان يشتغل بالخوص ويقول : اشتري خوصاً بدرهم ، فأعمك فأبيعه بثلاثة دراهم ، ، فأعيد درهماً فيه ، وأنفق درهماً على عيالي ، وأتصدق بدرهم . . كان يتولى أمر العجين في بيته بدلاً من الخادم حين يرسلها في حاجة أخرى ، ويقول : لا أجمع عليها عملين .

نعم العبد الصائم

نعم العبد الذي أطاع مولاه واقتدى بسنة سيدنا رسول الله

فاستحق أن يكون كما قال تعالى ﴿ ومن يطيع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النسيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ والعبد الصائم الملتزم حدود الله بما قرره رسول الله ﷺ كان حقاً على الله أن يدخله من أكرم أبواب الجنة .

يقول الحديث : « إن في الجنة باباً يقال له الريان لا يدخل منه إلا صائمي رمضان فإذا دخل الصائمون تلقتهم الملائكة مستبشرة قائلة لهم أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم يا صائمون رمضان » ولعظم هذه العبادة وما لها من المنزلة عند الله جعل الله في رمضان انتصار المسلمين في غزوة بدر وكانت غزوة الفتح الأعظم وفي الثلث الأخير منه ليلة القدر التي قال الله عنها ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر - إلى آخره ﴾ فهي ليلة يتجلى الله فيها على الصائمين إيماناً وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال : (التمسوها في العشر الأواخر من رمضان وفي لياليها الوترية ويميل أكثر العلماء على أنها ليلة السابع والعشرين وبهذا اقتدى الجميع ، وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عما يقال فيها فقالت كان صلوات الله عليه يقول (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا) ولقد توج الله تلك العبادة بقبولها فجعل سبحانه زكاة الفطر تطهيراً للصائم ودعوة من الله لعباده بالمودة والمحبة .

ووقت زكاة الفطر من أول يوم في رمضان إلى ما قبل صلاة العيد ومقدارها عن كل فرد نصف صاع من بر وقدره . اثنا عشر قرشاً يخرجها الصائم عن نفسه وعن كل فرد هو ملزم بالانفاق عليه ولا يعلم من يعطيها له أنها زكاة حتى لا تفسد ويبدأ بالأقارب الذين هم أولى بالمعروف ولا ينسى صلة الرحم في هذه الآونة فالله تعالى يقول لصلة الرحم : (أما ترض أن من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته تقول رضيت يا ربي وهي أي صلة الرحم معلقة بين السماء والأرض تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله وكما سن رسول الله أحياء ليلة القدر احيا الله قلبه يوم تموت القلوب ـ كذا أمر الرسول ﷺ بإحياء ليلة العيد فقال (من أحيا ليلة العيد لم يمت قلبه يوم تموت القلوب) وكما قررنا أن المقصود من العبادات أرواحها لا أشباحها والله سبحانه لا ينظر إلى المظاهر الخادعة التي يظن صاحبها أنه يخدع المؤمنين .

استعمله الله . .

قال رسول الله ﷺ : إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته .

فسأله رجل من القوم : كيف يستعمله ؟!

قال الرسول : يهديه الله إلى العمل الصالح قبل موته ، ثم يقبضه على ذلك .

بـــر .. الوالدين

حث القرآن الكريم والرسول العظيم على البر بالوالدين والرفق بهما والحنو عليهما ورد الجميل لهما وقد قرن الله سبحانه وتعالى بر الوالدين بعبادته وتوحيده حيث يقول : وقضي ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً » .

وبر الوالدين مطلوب ومفروض خصوصاً عندما يلحق بهما أو بأحدهما الكبر لأنهما في هذه الحالة يكونان أشد احتياجاً إلى العطف والرعاية .

روى أبو هريرة عن النبي - ﷺ - قال : رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ، رغم أنف رجل أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له .

وبر الوالدين واجب حتى بعد موتهما ويكون ذلك بصلة أهل ودهما وأصدقائهما - روى إبن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى .

وقد جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : « يا رسول الله ، هل بقي من بر والدي من بعد موتهما شيء أبرهما به ؟ قال : نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما

بعهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك من قبلهما فهذا الذي بقي عليك » .

وبر الوالدين مأمور به حتى ولو كانا على غير دين الاسلام ، فقد روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها فاستفتيت النبي ﷺ فقلت : إن أمي قدمت وهي راغبة . (أي راغبة عن الاسلام) فأصلها ؟ قال : نعم صلى أمك .

أكبر الكبائر

قال رسول الله ﷺ : ألا أحدثكم بأكبر الكبائر ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : الاشراك بالله . وعقوق الوالدين .

وكان النبي متكئاً فجلس ثم قال : وشهادة الزور . أو قول الزور .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

مختارات إسلامية

1- رمضانيات (١)

2- رمضانيات (٢)

3- أساسيات إسلامية في الأخلاق والآداب.

4- أحكام الحج إلى بيت الله الحرام.

5- الأدعية والابتهالات

6- الإسلام وشبهات العصر (١)

7- الإسلام وشبهات العصر (٢)

8- التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)

9- التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)

10- أحاديث رمضانية